

# تَكُونُ مِنَ الْمُفْكِرِينَ

خطوات عملية



أ.د. عبد الله كريم بكار

دار النيل للآباء

الطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

تَكْوِينُ الْفَكِيرِ

"خطوات عملية"

# كافة حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة

للباشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة  
لصاحبها

عبد الفادر محمود البكار

الطبعة الثانية  
والأولى لدار السلام

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

بطاقة فهرسة  
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة للدار  
الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

بكار ، عبد الكريم .  
 تكون الفكر : خطوات عملية / تأليف : عبد الكريم  
 بكار . - ط ١ - القاهرة : دار السلام للطباعة  
 والنشر والتوزيع والترجمة ، [٢٠١٠] م .  
 ٢٢٤ ص ٢٤١ سم .  
 تسلك ٨ ٨٧٧ ٩٧٧ ٩٧٨ ٣٤٢  
 ١ - التفكير .  
 ٢ - طرق البحث  
 ٣ - العنوان .  
 ١٥٣,٤٢

## دار الأزهر

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة  
٢٠٠٣ ش

تأسست الدار عام ١٩٧٢ وحصلت  
على جائزة أفضل ناشر للتراث ثلاثة  
أعوام متالية ١٩٩٩ م، ٢٠٠٠ م، ٢٠٠١  
م من على المعاشر تكريماً لتفاني  
ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية  
 الإدارية : القاهرة : ١٩ شارع عمر الطفلي موزع لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران  
 عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربوني - مدينة نصر  
 هاتف : ٤٢٨٠ - ٢٢٧٤٠٧٨ - ٢٢٧٤٠٧٩ (٢٠٢) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢)  
 المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢)  
 المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي مترفع من شارع على أمين امتداد شارع  
 مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢)  
 المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطئي بجوار جمعية الشبان المسلمين  
 هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٢)  
 بريدياً : القاهرة : ص.ب ١٦١ التغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩

البريد الإلكتروني : [info@dar-alsalam.com](mailto:info@dar-alsalam.com)  
 موقعنا على الإنترنيت : [www.dar-alsalam.com](http://www.dar-alsalam.com)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
كُلُّ حَمْدٍ لِلَّهِ الْمُفْتَقِدِ

# خطوات عملية

تأليف

أ. د. عبد الكريم بخاري

دار الشّرائط

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



فِهْرِسُ الْمَوْضُوعَاتِ

١٣	المقدمة
١٧	من هو المفكر؟
١٧	١ - التخصص
١٧	٢ - العالم
١٨	٣ - المصلح
١٨	٤ - الداعية
١٨	٥ - المثقف
١٩	٦ - الفيلسوف
٢٠	٧ - المفكر
٢٣	من صفات المفكر
٢٣	١ - حبُّ للمعرفة واحتفال بالجديد
٢٤	٢ - كل مفكر نسيج وحدة
٢٥	٣ - الشعور بالمسؤولية
٢٦	٤ - استقلالية المفكر
٢٦	أ - قيد الخيط
٢٦	ب - قيد الانتماء
٢٧	ج - قيد الذاكرة
٢٩	٥ - من الجزئي إلى الكلي
٣١	٦ - المفكر والمفكر المسلم

٣٣	العقل والدماغ
٣٣	الدماغ
٣٤	العقل وعلاقته بالدماغ
٣٦	العقل عقلان
٣٩	الحقيقة أولاً
٣٩	١ - ما الحقيقة؟
٤٠	٢ - العقل محدود بحدودية الموس
٤١	٣ - القرآن الكريم يبني إنسان الحقيقة
٤٢	٤ - الحقيقة تحررنا
٤٣	٥ - قواعد لتشيد مجتمع الحقيقة:
٤٣	أ - غموض الواقع الاجتماعي
٤٣	ب - حقائق تستعصي على الكشف
٤٤	ج - إمكانية رؤية الحقيقة بطرق مختلفة
٤٥	٦ - تعامل المفكر مع الحقيقة
٤٧	ما التفكير؟
٤٧	١ - التفكير انتقال من حال إلى حال
٤٨	٢ - التفكير استقصاء للخبرة
٤٨	٣ - التفكير بناء للنماذج
٥٠	٤ - التفكير فن طرح الأسئلة
٥١	٥ - التفكير من أجل تخطي الحلول القائمة
٥٢	٦ - التفكير والعواطف:
٥٣	أ - العواطف مكمن الجوهر الإنساني
٥٣	ب - تأثير الأفكار في المشاعر هائل
٥٥	ج - تأثير المشاعر في الأفكار

٥٦	د - الارتباط بين جمود المشاعر وجمود العقل
٥٧	٧ - التفكير واللغة:
٥٧	١ - اللغة مرآة العقل والقلب
٥٨	٢ - اللغة وسيلة لتخزين الأفكار
٥٨	٣ - اللغة أداة لصناعة الأفكار
٥٩	أ - الاهتمام بالحصيلة اللغوية
٥٩	ب - تنمية العربية من مسؤولية المفكر
٥٩	ج - اللغة ترسم حدود عمل العقل
٥٩	د - اللغة أسلوب لرؤيه الحياة
٦٠	ه - كيف نثري معرفتنا باللغة؟
٦٠	٨ - التفكير والعقل الجمعي:
٦١	١ - معظم الناس لدينا مبرمجون من قبل العقل الجماعي
٦١	٢ - العقل الجماعي يميل إلى السطحية
٦٢	٣ - العقل الجماعي والميل إلى الاستحواذ على عقل الفرد
٦٢	أمثلة على توجهات العقل الجماعي لدينا:
٦٢	أ - العرب يخضعون لمؤامرة كبرى
٦٢	ب - غير المسلمين يد واحدة على المسلمين
٦٣	ج - تقدير العمل الجماعي
٦٣	د - النجاح مرادف للذكاء
٦٣	ما العمل تجاه هذا؟
٦٤	١ - محاولة التمايز عن العقل الجماعي
٦٤	٢ - الخروج من صندوق البيئة
٦٥	٣ - النظرة الصحيحة للوحي

٦٧	تنمية الإبداع
٦٨	- التغلب على المعوقات أولاً:
٦٩	١ - ضعف الثقة بالنفس
٧٠	٢ - الإسراع في تقبل الأفكار
٧١	٣ - التبعية للأ الآخرين
٧١	٤ - ضالة الحصول المعرفي
٧٢	طريق الإبداع
٧٢	١ - وجود الدافع
٧٣	٢ - التركيز والاهتمام
٧٣	٣ - المجال الرحب
٧٥	٤ - تعامل خاص مع المعرفة
٧٧	التفكير الناقد
٧٧	أهمية الممارسة النقدية:
٧٨	١ - الرؤية النقدية للمجتمع، هي محك التفرقة بين المفكر والعالم
٧٨	٢ - انفصال وعي الناقد عن وعي مجتمعه
٧٩	٣ - أهمية الرؤية المستقبلية
٨٠	٤ - دور النقد في ترشيد المسيرة الاجتماعية
٨٠	كيف تؤسس للعقلية النقدية؟
٨١	١ - الشعور بالمسؤولية
٨١	٢ - رؤية ما هو خارج المؤلف
٨٢	٣ - فن السؤال
٨٦	٤ - السعي إلى الوضوح
٨٨	عقبات أمام الممارسة النقدية
٨٨	١ - المحيط الثقافي

٨٩	٢ - الخوف من المتقددين
٩١	٣ - القصور الذاتي للنائد
٩٢	كيف نفهم الواقع
٩٢	- بداية الفهم
٩٣	- الخريطة الإدراكية
٩٤	- أمثلة على الخريطة الإدراكية
٩٦	- الواقع طبقات
٩٨	مفاهيم تساعد على مقاربة الواقع:
٩٩	١ - الواقع ليس انعكاساً للقيم
١٠٠	٢ - التغير سمة كل واقع
١٠١	٣ - من ظروفهم تعرفونهم:
١٠١	أ - تأثير المكان في المشاعر وال العلاقات
١٠٣	ب - تأثير الغنى والفقر
١٠٧	٤ - الامتثال للنظم والقوانين
١٠٩	٥ - العيش على هامش الحياة مصدر للتخلل الذاتي:
١٠٩	أ - الدول الصناعية الكبرى تشكل عقل العصر
١١٠	ب - محاور بارزة تدفع عجلة التقدم
١١٠	ج - كيف يكون التهبيش للأفراد؟
١١١	د - كيف يكون التهبيش للشعوب؟
١١٢	٦ - طابع الحياة الحضارية أنثوي
١١٢	مظاهر الطابع الأنثوي
١١٤	٧ - تعايش النظم المتباعدة:
١١٦	الحكم على الواقع
١١٦	١ - الحكم على الواقع اجتهادي

١١٧	٢ - رؤيتنا للواقع تعتمد على المعلومات
١١٧	٣ - لكل حكم اعتباراته
١١٨	٤ - وقع الأحداث على الناس متفاوت
١١٩	٥ - لا ارتباط بين الحكم بالخطأ وتوجيه اللوم
١١٩	٦ - في وجه التعميم
١٢١	تعانق المطلق والنقي
١٢١	- ما المطلق؟ وما النقي؟
١٢٣	- النقي مدخل لتحسين الرؤية
١٢٣	١ - الكليات مكمن المطلق:
١٢٤	أ - ليس هناك من لا يؤذيه التقدم في السن
١٢٤	ب - معظم القيم مشتركة بين الأئم
١٢٥	٢ - الحرمان من الضروريات يدمر الاهتمامات العليا
١٢٦	٣ - الكم لا يكون إلا على حساب الكيف
١٢٨	ما النقي في معادلة الكم والكيف؟
١٢٩	٤ - التفكير النقي مدخل لتحسين الوعي
١٢٩	أ - ترسيخ النهج الاحتمالي
١٢٩	ب - فهم جذور ما لدى الآخرين
١٣١	ج - الميل إلى التفصيل
١٣٥	٥ - النسبة تسهل تجاوز القيم
١٣٦	٦ - المطلق أساس في تفسير الماضي
١٣٦	أ - لماذا حدثت الردة؟
١٣٧	ب - الجهل مصدر شرور
١٤٠	ج - تارينا صراع بين المبادئ والظروف الصعبة:
١٤٠	- الصعيد الاجتماعي

١٤٢	- الصعيد السياسي
١٤٧	المعرفة وقود العقل
١٤٧	١ - التزود المستمر بالمعرفة
١٤٨	٢ - العمل في البحث العلمي يستقطب المزيد من المهتمين والموظفين
١٥٠	٣ - اللقاء بأهل العلم
١٥١	٤ - التخصص والتركيز
١٥٢	٥ - فهم تاريخ الأفكار والقضايا
١٥٤	٦ - فهم مدلولات التقدم التقني
١٥٥	٧ - التفريق بين المعلومات والتحليل الشخصي
١٥٦	٨ - التفكير عند شع المعلومات
١٥٩	أمور تستحق الحذر
١٥٩	١ - الحزم حيث ينبغي التوقف
١٦١	٢ - الجاملة على حساب الحقيقة
١٦٢	٣ - تحجيم الخيارات:
١٦٢	أ - المال عصب الحياة
١٦٣	ب - الوحدة الإسلامية
١٦٤	٤ - سطوة الانتشار
١٦٥	أ - الانتشار يشجع الانتشار
١٦٥	ب - تأثير الهالة
١٦٦	ج - سطوة الانتشار
١٦٧	٥ - ثقافة التحرير
١٦٧	أ - المقصود بالتحيز
١٦٨	ب - التفاضل بالتفوي
١٦٩	ج - الحذر عن التسيب

١٦٩	د - دور المناضل
١٧١	ه - مقاومة التحيز
١٧٢	٦ - الانسياق خلف الخراقة
١٧٤	٧ - الرضوخ للطبيعة والعادة
١٧٤	أ - السرعة في التفكير
١٧٥	ب - الكسل الذهني
١٧٥	ج - عدم الاعتراف بالخطأ
١٧٦	د - وهم الاكتفاء المعرفي
١٧٦	ه - مقاومة الجديد
١٧٦	و - التطرف في التشاؤم والتفاؤل
١٧٧	ز - تبسيط ما هو معقد
١٨١	تطوير الأفكار
١٨٢	١ - وضع الأفكار في نطاق أوسع
١٨٤	٢ - التداعي المنطقي والثقافي
١٨٦	٣ - التدرج في تطوير الأفكار
١٨٧	٤ - وضع الفكرة موضع التنفيذ
١٨٨	٥ - المقارنة بالأفكار والمشروعات الشبيهة
١٩١	٦ - عصف ذهني جيد وواثق
١٩٤	الخاتمة
١٩٦	مراجعة مختارة
١٩٨	فهرس الأفكار والمقولات العامة
٢٢٠	التبرة الذاتية للمؤلف

المقدمة

الحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين، والصلوة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فإنني لا أخفى أنني ترددت كثيراً قبل الإقدام على تأليف هذا الكتاب؛ وذلك خشية أن يتورّم متوجه أنه إذا اطلع على كتاب أو كتابين أو عشرة كتب... في تحسين المحاكمة العقلية، وتحسين أسلوب ممارسة التفكير وفي تنمية الحس النقدي... فإنه يصبح مفكراً، وهذا بالطبع غير صحيح، لما سأذكره بعد، لكن الذي جعلني أتجاوز التردد في الشروع في هذا العمل، هو الاتصالات التي تأثّرني من كثير من الشباب الذين يرغبون في الولوج في عالم الفكر والتفكير والمفكرين، وذلك بسبب جاذبية ما تدلّ عليه هذه الألفاظ في هذه الأيام؛ تلك الجاذبية التي نشأت بسبب ما يراه الناس من تباين بين ما يطرحه المتحدثون والمؤلفون في تخصصاتهم وبين ما يطرحه من يُلقبون بـ (المفكرين) حول القضايا والمشكلات السياسية والاجتماعية والحضارية على نحو عام.

وإذا عدنا إلى الوراء نحوًا من عشرين سنة، فسنجد أن كثيراً من طلاب العلم لم يكونوا يُظهرون أي قدر من الارتياح والاطمئنان لتحليلات المفكرين ومقارباتهم، ولعل ذلك يعود إلى هشاشة المعرفة الشرعية لدى كثير من أصحاب الطرح الفكري، مما ولد لدى التابعين لهم الخوف من الابعد عن النصوص والضوابط والأداب الشرعية أثناء التنظير لوصف المشكلات المعاصرة وأثناء البحث عن حلول لها.

وأعتقد أن لهذا الخدر ما يسوّغه، لكن الناس أدركوا فيما بعد أن المفكرين يقدمون للأمة زاداً فكريًا وعمريًا مهتمًا، قد لا يستطيع غيرهم من أهل الاختصاصات الدقيقة تقديره، وقد كان هذا الإدراك ثمرة طبيعية لتحسين وعي الناس بالحاجة الملحة إلى الكبير من الرؤى والتحليلات والمقاربات التي تساعدهم على الارتقاء بنوعية الحياة التي يعيشونها، كما تساعدهم على تجاوز المشكلات التي يرزحون تحت وطأتها، ومن هنا فإن هذا الكتاب هو هدية متواضعة لإخوانني طلاب العلم الذين لم تسعفهم دراساتهم

المخصوصة بامتلاك المفاهيم والقواعد الأساسية التي يحتاجون إليها في استيعاب التحديات المعاصرة والتعامل معها. لكن لا بد لي من القول: إن كلمة (مفكر) غامضة الدلالة، وسأبدل جهداً من أجل توضيحها، لكن مهما كانت درجة الوضوح التي سحصل إليها، فإن مدلولها لن يكون أفضل وضوحاً من كلمة (عالم) أو (منقف) أو (فيلسوف)، وسنظل نتجادل فيما إذا كان فلان من الناس يستحق أن يُطلق عليه لقب من هذه الألقاب أو لا؟ من هنا فإن عنوان الكتاب يشير بوضوح إلى أنني أحاول أن أسلك مع قرائي الكرام الطريق التي تمضي بنا نحو إعداد المفكر وتكتوينه، وهذه الطريق طويلة وطويلة؛ ولهذا فإن هناك من يقطعها على نحو كامل فيصبح فعلاً في عدد الأشخاص الذين لا يختلف الناس في أنهم يتربون على قمة الفكر والوعي الثقافي في بلادهم أو في أمتهم أو في عصرهم، وهناك من يقطع ربع الطريق أو نصفه... ثم لا يجد من الوقود الروحي ومن الإمكانيات الشخصية ومن الظروف المواتية ما يساعد له على الاستمرار، فيتوقف، أو يتراجع.

ليس في الجامعات أي تخصص يمكن أن نقول: إنه يجعل من دارسيه مفكرين صغاراً، حتى الأقسام التي تهتم بالكثير من قضايا الفكر والتأصيل الفكري - مثل قسم أصول الفقه، وقسم الفلسفة، وقسم النقد - لا تفعل هذا؛ وذلك لأن معرفة القواعد والأصول والأفكار مهما كانت ممتازة لا تصنع بالضرورة مفكراً ممتازاً؛ فهناك شروط وحيثيات عديدة أخرى تؤثر في هذا الشأن تأثيراً كبيراً، وذلك مثل توفيق الله - تعالى - للعبد، ومثل حدة الذكاء وجودة الاستعداد الطبيعي إلى جانب تلك الموهبة الغامضة التي تجعل من الشخص فناناً مبدعاً؛ بالإضافة إلى تأثير التربية والبيئة والظروف المحيطة... قد يقول قائل منكم: إذن ما مسوغ تأليف هذا الكتاب؟ وما الفائدة من قراءته؟

أقول في الجواب: إن هذا الكتاب يهدف - كما تهدف كل الكتب المشابهة - إلى تحسين المحاكمة العقلية لدى القارئ وتمليكه قدرًا جيداً من الرؤى والمفاهيم التي تساعد له على فهم ذاته وفهم عصره، كما تساعد له على امتلاك رؤية نقدية للواقع الذي يعيش فيه ولسبل تطوير ذلك الواقع والارتقاء به، وبعبارة أخرى: إنني أهدف إلى أن أساعد القارئ الكريم على أن يفك بطريقة أوضح، وقد يكون هذا الكتاب بالنسبة إلى بعض القراء هو الشرارة الصغيرة التي تحول بفضل عبقريتهم وجهدهم

إلى نور عظيم يضيء كل أرجاء المكان؛ وما ذلك على الله بعزيز.

بقي أن أقول: إنني بذلك كل ما أملك من جهد في سبيل جعل أسلوب الكتاب سهلاً وقريناً حتى يتتفع به أكبر شريحة ممكناً من القراء الأفضل، لكن بما أنني أعالج موضوعاً معقداً، فلا بد من أن يكون ما أحقه ناقضاً، وأحياناً مخيتاً للأمل! إنني قائم ببعيد طريق ضيق في قلب بحر من الرمال المتحركة، ويأضاعه بعض الزوايا المظلمة، وقائم بإزالة بعض الحجارة من طريق شديد الوعورة، سائلًا المولى لهم أن يبارك في ذلك، وينفع به؛ إنه ولني ذلك القادر عليه.

أ. د. عبد الكريم بخار

الرياض في ٣ من شوال ١٤٢٠ هـ

\*\*\*



## من هو المفكر؟

ما دمنا نتحدث عن تكوين المفكر، فلا بد أن نبدأ بتعريفه أولاً، والحقيقة أن لدينا عدداً من المصطلحات التي نستخدمها في حياتنا الدعوية والعلمية، وتُطلقها على أشخاص يعملون في حقول المعرفة والإصلاح والإبداع، ومن أهم تلك المصطلحات: (العالم)، (المصلح)، (الداعية)، (التخصص)، (الثقف)، (الفيلسوف)، وأود أن أقول ابتداءً: إن من الصعبوبة يمكن وضع فواصل واضحة بين مدلولات هذه الكلمات، وهذا يعود إلى أمرين أساسين، الأول هو: أن (العقل) ليس مجهزاً بفطنته للتعامل مع (الصفات) بكفاءة، على خلاف تجهيزه للتعامل مع ما هو من قبل (الكم) و (الرقم)، والثاني: أن كل الألقاب التي ذكرناها تُطلق على أشخاص يعملون في حقل العلم والمعرفة، ويستخدمون الأفكار والمفاهيم والمصطلحات المتعلقة بالحضارة والإصلاح، ويمارسون نوعاً من النقد للواقع؛ ومن ثم فإن تحديد تعريف كل واحد منهم وتحديد أوصافه على نحو دقيق أمر متعدد، وإذا ألحنا عليه فقد ندخل في باب التعسف والقسر، ولعلي أشير إشارات سريعة إلى مفهوم كل لقب من تلك الألقاب قبل أن أفصل القول في مدلول (المفكر):

### ١ - المتخصص:

هو طالب علم صرفاً قدرًا من عمره في دراسة تخصص من التخصصات العلمية، وهكذا نقول اليوم: فلان متخصص في التاريخ، وفلان متخصص في الكيمياء، وفلان متخصص في إدارة الأعمال...

### ٢ - العالم:

هو شخص برع في تخصص من التخصصات حتى فاق أقرانه أو صار بين المتفوقين من أقرانه، وقد كانت كلمة (عالم) تطلق في العديد من الأوساط على المتمكن في علوم الشريعة؛ حيث إن المتخصصين في علوم الشريعة كانوا قبل عصر

النهضة الحديثة يشكلون السواد الأعظم من مثقفي الأمة، أما اليوم فإننا في الغالب نقول: فلان عالم في الشريعة، وعالم في الجغرافيا، وعالم في الفيزياء... إذن العالم اليوم هو شخص متبحر في تخصصه على نحو ظاهر.

#### ٢ - المصلح:

هو شخص لديه رؤى وأفكار إصلاحية ذات طابع سياسي أو أخلاقي أو اجتماعي، وهو يستند في العادة إلى الرصيد العقدي والثقافي الموجود لدى أمته، وهكذا نجد أن كل من سمعناهم مصلحين في تاريخنا الإسلامي كانوا ينطلقون من عقبة الإسلام ومن أصالته وأصوله ومفاهيمه الكبرى... المصلح يملك أفكاراً لكنه في الغالب ليس منتج أفكار، ولا صاحب نظريات معرفية، إنه يتحرك على أرض الواقع بما لديه من رؤية إصلاحية حركة حثيثة، ويغلب على أفكاره الطابع العلاجي والنهضوي، وليس الطابع النظيري الفلسفى.

#### ٣ - الداعية:

شخص لديه علم وفكر وهم إصلاحي، وعمله الأساسي هو التبليغ والتذكير والهداية ودفع الناس في طريق الصلاح، لكنه لا ينبع في الغالب الأنوار والمفاهيم، كما أنه لا يقوم في الغالب بإجراء الدراسات والبحوث؛ لأن همه منصرف إلى الحركة اليومية بين صرف الجماهير وتجمعاتهم، وبما أن كل مسلم مطالب بأن يدعو إلى الخير، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، على مقدار معرفته وظروفه، فإن من المألف أن نجد من يجمع بين التخصص والدعوة، وبين الفكر والدعوة؛ وهناك أطباء ومهندسوں ومتخصصون في علوم مختلفة، وأهل غيره وديانة، لم يدرسوا أي تخصص... يقومون بجهود عظيمة في خدمة الدعوة الإسلامية وإرشاد الأمة إلى الطريق الصحيح.

الداعية دون المصلح في استيعابه لمشكلات الأمة وفي سعة أنقه وحركته، ودون العالم في معرفة أحكام الشريعة وأدابها؛ وهذا حكم أغلبي وليس عاماً شاملـاً.

#### ٤ - المثقف:

شخص تجاوز تخصصه الأساسي، ووسع دائرة اهتمامه على صعيد القراءة والمطالعة وعلى صعيد التأثير، فهو في خطابه يستهدف شريحة واسعة من الناس، وهو في الوقت

نفسه يمتلك ملاحظات نقدية ويُتّبع بعض الأفكار والمفاهيم ذات الطابع التقني والعلجي والمتعلقة بتطوير الواقع واستشراف المستقبل، وهو على خلاف الداعية. والمصلح لا يوسع دوائر اهتماماته بالجماهير، فقلمه ولسانه هما الجسر الذي يعبر من خلاله إلى عقول الناس وقلوبهم، وربما كان هذا اللقب ينطبق أكثر ما ينطبق على من يمكن أن نسميهم ( الشخصيات العامة ) من فئة المتعلمين بالإضافة إلى الكتاب الصحفيين ومعدّي البرامج الإذاعية والتلفازية وكتّاب القصص والروايات والممارسين للنقد الأدبي... وإذا نظرنا في تعرّيفات كثيرة من الكتاب المعاصرین لـ ( المثقف ) فإننا نجد أنّهم يؤكّدون على أن ( المثقف الحقيقي ) هو صاحب دور نضالي في الوقوف إلى جانب الحق وفي نقد الممارسات الاجتماعية والإدارية الخاطئة إلى جانب امتلاك روح التضحية بالكثير من مصالحه من أجل الجمهور بأرائه وأفكاره وملحوظاته، وفي هذا يقول ( نعوم تشومسكي ): « المثقف هو من حمل الحقيقة في وجه القوة »، وهناك من المثقفين من يتحدث عن ( المثقف الوهمي ) والذي يجتمع في خطابه إلى التبرير والتحذير والتزيف... ومن الواضح من كثيرة من الكتابات أن هناك شكوى مريرة من بعض المثقفين الذين سخروا أقلامهم لخدمة جهة أو لخدمة مصالحهم الخاصة، ونسوا واجبهم في قول الحق ومحاسرة الشر وإنصاف المظلوم وحماية المصالح العامة... ويدوّلي أن من سمعناهم ( مثقفين ) أقصى الواقع من الفلسفه والمفكرين، وحديثهم كثيراً ما يصطدم بالقوى والاتجاهات الفاعلة في الساحة؛ ومن ثم فإن كثيرين منهم يجدون أنفسهم في مواجهة تحديات أكبر منهم، ويشعرون أحياناً أنهم مهددون في لقمة عيشهم، مما يدفعهم - بطريقة لا واعية - إلى الانحراف في تيار آمن...».

#### ٦ - الفيلسوف:

يختلف الفيلسوف اختلافاً ظاهراً عن العالم والداعية والمصلح؛ وذلك لأن الفلسفة - هذه الكلمة ذات الأصل اليوناني - تعني: ( حب الحكمة )؛ ومن ثم فإن البحوث الفلسفية تلبي في معظم الأحيان حاجات العقل، على حين أن العلم والاختراع ببيان الحاجات المختلفة للناس. العالم يبحث، ويترتب على بحثه في كثير من الأحيان القيام بعمل ما، أما الفيلسوف فإنه يبحث في التعرّيفات والمصطلحات والقيم والأهداف... العالم يشتغل بالجزئيات؛ وذلك لأن العلم يبحث أصلًا في قضايا جزئية تم تنظيمها وفق

منهجية معينة، أما الفيلسوف فإنه يبحث في مسائل وقضايا كلية، ويحاول اكتشاف قوانين وسنن الوجود على مستوى الطبيعة المادية وعلى مستوى المجتمع الإنساني. العالم يستخدم في عمله المفاهيم والأفكار الناجزة، أما الفيلسوف فإنه يقوم بصناعة المفاهيم وإبداعها ونقدتها وتطويرها وغربلتها. العالم يحاول حل المشكلات المعرفية والعلمية التي تصادفه في عمله، أما الفيلسوف فيذكر من خلال الأسئلة الكبرى التي يطرحها على إثارة المزيد من المشكلات واكتشاف المزيد من التناقضات في الحياة العامة. ومن المهم أن أشير هنا إلى أن الوعي الإسلامي جفل في وقت مبكر من تاريخ هذه الأمة من الفلسفة والفلسفه؛ وذلك بسبب الظروف الفلسفية لكتير من الفلاسفة المسلمين؛ حيث إن كثيرًا منها كان بعيدًا جدًا عن مدلولات النصوص الشرعية و بعيدًا عن القيود والضوابط والقواعد التي وضعها علماء العقيدة وعلماء أصول الفقه.

وما زال كثير من الناس إلى يومنا هذا ينظرون بعين الريبة والشك لكل أولئك الذين ينتظرون ويتفلسفون خوفاً من بُثُّ أفكار ومفاهيم تنافي التصور الإسلامي للحياة والأحياء... .

هذا الكلام الذي ذكرته حول أصناف المشغلين بالعلم والتنوير والإرشاد وصناعة المفاهيم هو كلام اجتهادي، قد يوافقني فيه كثيرون، وقد أحالف فيه كثيرين، ولا يستطيع أحد أن يقول كلاماً قاطعاً في هذه المسائل، وأود قبل أن أتحدث عن المفكر والمفكر المسلم أن أشير هنا إلى أننا لو فرضنا جدلاً أننا اتفقنا على تعريف الفيلسوف والمثقف والمصلح... يظل لدينا إشكال كبير جدًا، وهو ما سماه الأصوليون ( تحقيق المناط ) أي تحديد الشخص الذي يستحق لقب مفكر أو عالم أو مثقف.. وهذا الإشكال لا حل له؛ لأن الذين يطلقون هذه الألقاب مختلفون اختلافاً كبيراً في معايرهم وفي الروايات التي ينتظرون منها؛ ولهذا فإننا نلاحظ بكثرة وجود من يطلق لقبنا معيناً على شخص ما، ومن يستنكر ذلك الإطلاق بشدة، وهذا بسبب ما أشرت إليه.

## ٧ - المفكر:

كل الناس يفكرون، ولكن هناك فروقاً كبيرة بين من ينصرف في تفكيره إلى حل المشكلات اليومية التي تواجهه في معيشته وعمله، وبين تلك الصفة من الناس الذين

يحاولون توفير أساس لقراءة الماضي والاستفادة منه، كما يحاولون توفير قواعد لفهم الحاضر واكتشاف العلاقات بين القوى المؤثرة فيه...

في اعتقادي أن المفكر يتبوأ منزلة ثقافية وعقلية هي فوق منزلة المثقف ودون منزلة الفيلسوف، وهذا التصنيف لا يقوم على أساس التفوق الذهني أو على أساس النفع للناس أو على أساس الأهمية في المجتمع؛ لأن هذه الأمور لا تصلح أستئناتاً للتصنيف الذي نحن في صدده، وإنما يقوم على أساس مقدار التجريد والتنظير والتعالى عن الواقع لدى هذه الفئات الثلاث؛ فالفيلسوف أبعد غوراً في التجريد وفي إبداع المفاهيم وأشد اشتغالاً بالقضايا الكبرى من المفكر، والمفكر أبعد غوراً في هذه الأمور وأشباهها من المثقف، ومن هنا يمكن القول: إن كل فيلسوف مفكر، وليس كل مفكر فيلسوفاً، وإن كل مفكر مثقف، وليس كل مثقف مفكراً، وسائل أوّل على أن الفصل بين جميع من ذكرناهم هو فصل غير حاسم، والتداخل بينهم سيظل أمراً وارداً.

المفكر يتربّد بين صناعة المفاهيم وبلوغ الرؤى واستخلاص العبر وكشف السنن... وبين إصلاح الواقع وتشخيص الأزمات التي يعاني منها الناس، وهو يحاول باستمرار أن تكون العلاقة بين محصوله الفكري والمعرفي وبين الواقع علاقة جدلية؛ بمعنى أنه يعمل فكره في تحديد المشكلات الراهنة، ويقوم بنقدتها ومحاولة العثور على حلول لها، ويعدّل في رؤيته للواقع وفي حكمه عليه وفي أساس إصلاحه بناء على المعطيات التي يحصل عليها من وراء كل ذلك؛ ومن هنا فإن المفكر يشبه الفيلسوف في أنه يظل في حالة مستمرة من التلمس للمنهجية الصحيحة في التفكير، كما أنه يشبهه في الشعور بعدم الحصول على اليقين تجاه كثير من الأمور، وهذا الشعور يعصمه من الكبر ويدفعه إلى الاستمرار في البحث والتأمل والتعلم.

وهذه الوضعية تشكل فارقاً مهماً بين العالم والمفكر؛ فالعالم يجد نفسه شديداً اليقين في كثير من المواقف وعند بحث كثير من المسائل؛ وذلك لأنّه يتعامل مع أمور جزئية، ويجد دائمًا ما يدلّي فيه بالقول الفصل، أما المفكر فإنه بسبب اشتغاله بأمور كلية وبسبب اشتغاله باكتشاف الحقائق، واستخدامه الموسّع للنقد... يجد نفسه بعيداً من القطع والحسن في كثير مما يقوله، وهذا يشكّل مصدر إزعاج لكثير من الناس

الذين يريدون شيئاً يقبحون عليه ويغضون به، ولا أريد أن أقلل هنا من قيمة أحد، ولا من دوره في إصلاح الحياة والأحياء، وإنما أرمي إلى توضيح طبيعة كل صنف من الأصناف التي أشرت إليها، وإن فضل الإنسان يعود في نهاية المطاف إلى استقامته الشخصية ومدى مساهمته في رقي أمته.

\* \* \*

## من صفات المفكر

الفكر مخلوق لله - تعالى - والمفكر إنسان ذو حاجات، والمفكر منتفع وصاحب تطلعات، والمفكر عضو في هيئة اجتماعية؛ ولهذا فإننا حين نتحدث عن شيء من صفات المفكر، فإننا نتحدث عن أمور مشتركة بينه وبين غيره، كما نتحدث عن أمور خاصة به، وأخرى موجودة لديه على نحو ظاهر، وعلى سبيل المثال فإن المفكر يبحث عن الحقيقة ويناصرها ويحترمها، ويحاول إبرازها، وهذه الأمور موجودة لدى بعض الناس العاديين، موجودة لدى العالم والثقيف والداعية على درجات مختلفة، وعلى من يريد سلوك طريق المفكرين والدخول على عالمهم الرحب أن يحاول جعل ما سنذكره من أخلاق وصفات وعادات ومهامات المفكرين أموراً راسخة في عقله وقلبه وسلوكه؛ فالماء في نهاية الأمر ليس شيئاً أكبر من اهتماماته ومهامه وأخلاقه.

وهذا عرض مختصر لما أعتقد أنه من صفات المفكر، مع الإشارة إلى أن بعض ما سأذكره هنا قد أؤكّد عليه في مواضع أخرى من هذا الكتاب:

### ١ - حبُّ للمعرفة واحتقارُ بالجديد:

لعل هذه الصفة أهم صفة بين صفات المفكر؛ لأنَّ الولَّة الشديد بمعرفة الجديد وبصياغة المفاهيم والرؤى الكلية هو الذي يملُّك طالب العلم فضيلة التابعة في تنمية عقليته وإثراء مفاهيمه واكتشاف الوجود الذي يعيش فيه. إن طلاب العلم المبتدئين يفرحون بالمعلومة التي يحصلون عليها، ولا سيما إذا كانت من باب الغريب والطريف؛ أما المفكر فيتّهَجُ أشد الابتهاج بقانون يكتشفه أو ملاحظة ذكية يلتقطها أو رؤية جديدة ييلوّرها، وإنك لترى الواحد من المفكرين يطرب لقوله عظيمة يقوم بصياغتها أيامًا عديدة، وهو يتغَمَّ بها، وكأنه عثر على كنز من الكنوز أو مفتاح لنجسم ذهب، وما ذلك إلا لأنَّ المفكر يعرف قيمة المفاهيم الجيدة، ويعرف دورها المحوري في تقدم الحياة الفكرية.

يقول أرسسطو: إن الفلسفة تتطلب من يعمل فيها شروطاً معينة، منها عشق لاذع، وذهن بارع، وصبر مقيم. وسئل أنسانياً ذات مرة عن الفرق بينه وبين الإنسان العادي، فقال: إذا طلبت من الإنسان العادي أن يحاول العثور على إبرة في كومة قش، فسوف يتوقف ذلك الشخص عن البحث حين يعثر على الإبرة، أمّا أنا فسوف أقفز على كومة القش بحثاً عن الإبر المختملة. هذا هو المفكّر الحق؛ إنه يظل في حالة مستمرة من الأمل بالعثور على شيء جديد، ويملك مع هذا وقوداً روحيّاً عظيماً، يساعدّه على المضي قدماً في عمله مهما كانت الصعاب. ومن المؤسف في هذا السياق أن مدارسنا وجامعتنا لا تبني هذه الروح لدى الطلاب؛ بل كثيراً ما تقوم بقتلها من خلال المناهج المختزلة والامتحانات السهلة والساخنة البالغ في منح الدرجات!

إن على من يسعى لأن يكون بين المفكّرين أن يدرك أن طريق المفكّرين يبدأ بحب البحث، وينتهي بالتفاني في البحث، واني أعرف من المفكّرين من هم اليوم في السينين من أعمارهم، وهم أشد شوقاً إلى المعرفة، وأشد حرصاً على اكتشاف المجهول منهم حين كانوا في الثلاثينيات، هذا هو طريقهم، وليس هناك أي طريق آخر للوصول إليهم.

### أ - كل مفكّر نسيج وحدة:

المجال الذي يتحرك فيه المفكّر مجال رحب للغاية، إنه الشأن الإنساني كله، والحضارة الإنسانية كلها، وهذا يعني إتاحة مدى واسع للاختلاف بين المفكّرين، ونحن نعرف أننا حين نتحدث في تفسير التاريخ وتشخيص الواقع، وحين نجتهد في البحث عن حلول للمشكلات المتأسنة... نجد أن النصوص ذات الدلالة المحددة شديدة للغاية، مما يجعل الاختلاف بين مفكّر ومفكّر أمراً لا مندوحة منه. المفكّر يختلف مع غيره من المفكّرين؛ لأنه يختلف مع نفسه في الأصل، أعني أنه يقوم بكسر اتساقه الفكري الذاتي، إنه مثل الذي ينظر في مرآة متّبطة؛ فهو يرى في كل مرة شيئاً جديداً، إنه دائم التعرّف على ما لديه، وكلما رأى شيئاً جديداً وجد نفسه يتبنّى بعض الأفكار الجديدة، ويخلّى عن بعض الأفكار القديمة، وهذا يشكّل نوعاً من الصدمة لطلابه والمعجبين بهجه، إن التفكير في مستوياته العليا اجتهاد، وإن الله يهلك حين كتب الأجر على الاجتهاد أذن لنا بالاختلاف وبالتراءجع عن شيء رأيناها؛ بل إنه

لا يحل للعالِم ولا المُفَكِّر أن يجهز للناس بقناعات قديمة، ويُخفي في نفسه قناعاته الجديدة، إلا في أحوال دقيقة وقليلة، أما في النهج العام، فإن على المرء أن يقول بصدق وجراة، كما قال السابقون: ذاك رأي رأيناه بالأمس، وهذا رأي نراهاليوم، وفي تراث فقهائنا الأجلاء من الشواهد العملية على هذا ما يفوق الحصر، ويكتفي ما فعله الإمام الشافعي من ذلك بعد أن خرج إلى مصر، واستقر بها.

إن المفكرين يكرعون من مناهل وموارد ثقافية مختلفة، وينظرون من زوايا متباعدة، ولهم بنى عقلية متفاوتة ومتعددة؛ ولهذا فإن اختلاف بعضهم مع بعض أمر لا مفر منه، وإن الاختلاف هو مصدر ثراء وغنى إذا كان في إطار الثواب والأصول التي تؤمن بها.

#### ٢ - السعور بالمسؤولية:

حين يبلغ الباحث مرتبة عالية في العلم والفن، ويجد نفسه في القمة، فإن اكتراته ينقد الخالفين يصبح أقل أهمية لديه، كما أن جرأته على صوغ المفاهيم والمقولات وتقديم الطروحات الجديدة تصبح أكبر، وهذا ملموس ومشاهد، لكن من المهم أن يدرك المُفَكِّر والمنظَر والداعية... أن هناك الآلوف أو مئات الآلوف من الشباب الذين يتلقفون كلامه، ويتدارسونه ويفيرون في قناعاتهم واتجاهاتهم بناء عليه؛ ومن هنا نجد في النصوص الكريمة ما يؤكِّد تأكيداً شديداً على توخي الدقة والحذر تجاه كل كلمة ينطق بها الإنسان أو يكتبها، على نحو ما نجد في قوله - سبحانه - ﴿مَا يَنْفِطُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدِيْهِ رَبِّ عَيْدٍ﴾ [ف: ١٨] وقوله: ﴿إِنَّا تَحْنُّنُ تَعْنِيَ الْمَوْرِقَ وَتَكْثِيْبَ مَا قَدَّمْنَا وَأَنَّهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَخْصَبَنَا فِي إِيمَانِ مُّتَبَّنٍ﴾ [بس: ١٢] وهذه الآية واضحة في مسؤولية الإنسان عن الآثار التي يتركها في الآخرين من خلال سنته سنة سيئة، أو من خلال نشر أفكار خاطئة أو ضالة.

ويقول عليه السلام: «إن الرجل يتكلم بالكلمة من سخط الله، ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيهوي بها في النار سبعين خريفاً، وإن الرجل يتكلم بالكلمة من رضوان الله، ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيرفعه بها في علين»<sup>(١)</sup>؛ لهذا نجد المُفَكِّر الحق شديد الدقة في أحکامه واستنتاجاته وتعقيماته؛ لأنه يعرف أن هناك من يتلقى كلامه بشكل حرفى، وهناك

(١) أخرجه الترمذى وغيره.

من يمكن أن يستغل غموض صياغته على نحو سئ.

#### ٤ - استقلالية المفكر:

لا يستطيع أي إنسان مهما بلغ من النضج أن يكون مستقلاً تماماً الاستقلال، وهذا من جملة القصور المستولى على البشر، لكن على من يريد أن يكون مفكراً أن يدرك أن عليه أن يبذل جهداً متواصلاً في بناء عقلية متحركة من كثير من القيود التي يواجهها في حياته، ولعل أهم تلك القيود ثلاثة:

##### أ - قيد الحبطة:

إن في كل بيئة من البيئات مفاهيم وسلمات وعادات ومعلومات ومعطيات معتمدة اعتماداً عالياً لدى أبناء تلك البيئة: ينطلقون من مدلولاتها في تصوراتهم للواقع وفي أحکامهم على الأشخاص والأحداث..... وأنما أجزم أن تلك البيئة مهما كانت متعلمة وصالحة وراقية، فإنه سيظل فيها ما هو غير مقبول، أو هو مثار جدل، ومن هنا فإن على المفكر أن يتطلع دائمًا إلى ما هو خارج الصندوق الذي وجد نفسه فيه، وأن يقوم بعملية (مقارنة) واعية حتى يكتشف بعض العطب الثقافي الموجود في بيته، ويعلم على الفكاك من إيحائه وتأثيره، وهذا الانتعاق من تأثير البيئة هو الذي يهدى الطريق أمام المفكر للانتقال من المحلية إلى العالمية.

##### ب - قيد الانتفاء:

المقصود بالانتفاء هنا تحديداً الانتفاء إلى قبيلة أو حزب أو جماعة أو جهة أو مؤسسة؛ لأن مراعاة المفكر لهذه الأمور أثناء تفكيره وتنظيره وإصداره للأحكام، لا يساعده على أن يكون مخلصاً للحقيقة وموضوعياً في مواقفه؛ وقد عانت أمّة الإسلام في الماضي، وما زالت تعاني في الحاضر - من هذه المسألة، إن المفكر حين يتخذ من شيء مما أشرنا إليه إطاراً يفكر في داخله أو خلفيه يستند إليها يفقد طلاقته وحياده ويعرض عقله إلى نوع من التشويه، وبعض الناس لديهم ذكاء وعلم وتمرس في الكتابة والجدل لكنهم تحولوا إلى أبواق أو أشياء استعمالية؛ فقدوا الجدارنة باسم مشفق أو مفكر، وقدوا مع ذلك النزاهة والقيام لله - تعالى - بالقسط، كما فقدوا إلى جانب ذلك ثقة الناس واحترامهم!

إن الانتفاء يكون فضيلة بل شيئاً أساسياً في حياة الإنسان حين ينحاز المرء إلى

الكلبات والثوابت والمعطيات المتفق عليها، إنه بذلك يوفر لنفسه أرضية صلبة يقف عليها وإطاراً مرجعياً يحتمكم إليه، ولا فقد يفقد الاتجاه، ويضيع في فضاء المطلق، كما تاه كثير من النّاس في الماضي والحاضر.

رأيت في حياتي أشخاصاً يتمتعون بقدر كبير من الذكاء والفتنة، ومع هذا فقد كانت لهم طروحات فجّة وأقوال تدعو إلى العجب، وما ذلك إلا لأنهم منحوا العصمة لأشخاص غير معصومين، ونصوا أنفسهم وبالتالي للدفاع عن أخطائهم وعيوبهم، وقرأت لأعلام تعصّبوا لجماعة أو مذهب فقهي أو حزب سياسي، فحملتهم ذلك على الاستدلال بأدلة، أقل ما يقال فيها إنها مضحكة!

#### جـ - قيد الذاكرة:

قوة الذاكرة نعمة كبرى من الله - تعالى - وإن رجلاً من غير ذاكرة، هو رجل من غير جذور ولا خبرة ولا تراكم معرفي، لكن بما أن الخير الحض نادر، فإن علينا أن نتلامس المشكلات التي تثيرها الذاكرة في وجه العقل بما هو بنية للإبداع والتجديد والنقد والحكم على الموروث... وهذه المشكلات تتبع من ماهية التضاد بين طبيعة الذاكرة، وما يريده الإنسان من العقل. إن الوارد هنا يشعر بالفخر والثراء حين يتذكر الحجم الضخم لما يحفظه من نصوص وشواهد وقصص وعبر وتجارب وخبرات، وهي فعلاً مصدر اعتزاز؛ لأن العقل من غير معرفة أشبه بحاسب آلي من غير برماج، أو صحن من غير طعام؛ ونحن حتى نحافظ على مخزوننا المعرفي فإن الذاكرة تلح علينا بأن نشرح ما لدينا من محفوظات، ونبذع في تلخيصه وتعليله، وتطلب دوام مراجعته والاهتمام به حتى لا نفقدده، وهذا يعني اشتغال العقل به وانصرافه إليه، وهذا ما يفعله الذين وهبهم الله - تعالى - ذاكرة ممتازة، فهم يحفظون الكثير، وينشغلون بالحافظة عليه من خلال شعورهم بقيمة ما يحفظونه وزهوهم به.

الذاكرة أيضاً تحاول المحافظة على مكتوناتها ومقتبساتها من خلال العمل على مقاومة أي حذف أو غرابة أو نقد لتلك المقتنيات، أي تطلب من العقل أن ينصرف عن التفكير في الماضي، والانصراف إلى أي شيء آخر، والتاريخ يدل على أن سطوة الذاكرة هائلة، وأن معظم العقول تخضع لها بالفعل، والدليل هو قلة المحتهدين والمفكرين وكثرة الحفظة والقلديين.... المرء في حاجة إلى علاقة متوازنة مع الذاكرة؛ فهو لا يستغني عن أن يكون

لديه الكثير من المقول عن الأجيال السابقة، وعن المفكرين الكبار من أهل زمانه، وهو حتى يصبح مفكراً يحتاج إلى شيء جوهرى جداً، هو امتلاك رؤية نقدية للماضي والواقع، وهذه الرؤية تستند إلى النقص والقصور الذي يشوب أفعال البشر وأحكامهم في كل زمان ومكان، إذن على الواحد منا أن يفترض من الذاكرا دون أن ييلل ثيابه بعائده، أي أن يقترب منها اقتراب متفع دون أن يفرق في مياهها، إنه يقترب ليتعد، ويتعذر ليقترب، يأخذ من عبرة الماضي لإصلاح الحاضر، ويحكم بمعطيات الحاضر على كثير من أحداث الماضي ووقائعه، وعلى كثير من موروثاته.

إن من اللافت للنظر في هذا السياق أن الله - جل وعلا - قد تعهد للأمة بحفظ القرآن الكريم، فقال: ﴿إِنَّمَا مَنْ حَفِظَنَا الْأَذْكُرَ وَلَا إِنَّمَا لَهُنَّ حَفَظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وطلب من المسلمين العمل على فهمه ووعيه واستيعاب مقاصده ومراميه فقال - سبحانه - : ﴿كُتِبَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ سُرْكَرْ لِتَذَكَّرُوا بِأَنْتُمْ وَلِتَذَكَّرُ أَوْلُوا الْأَلْئَبِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَبَرَّوْنَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَفْفَالِهَا﴾ [سورة العنكبوت: ٤٢] لكن الذي حدث هو اتجاه السود الأعظم من الناشئة والشباب إلى الحفظ مع إهمال شبه تمام للتدارس والتفكير في معاني القرآن الكريم ومراداته. في تاريخنا الإسلامي وعي بالفرق بين من هو مهم بالحفظ، ومن هو مهم بالاستنباط والاستدلال وتبوير النصوص، وينذرون في هذا الإطار أن أبو حنيفة التعمان كان عند الأعمش، وكان الأعمش يلقى عليه مسائل، فيجيبه أبو حنيفة، فيقول له الأعمش: من أين لك هذا؟ - يسأل عن مستنبته في إجاباته - فيقول أبو حنيفة: أنت حدثنا عن إبراهيم بكذا، وحدثتنا عن الشعبي بكذا، فكان الأعمش يقول: (با معشر الفقهاء أنت الأطباء ونحن الصيادلة).

وإذا تأملنا في تراجم المحدثين المعروفين بحفظ السنة فإننا نجد أنهم لم يكونوا من المتفوقين في الفقه، كما أن الذين اشتغلوا بالفقه لم يكونوا يُعدون بين أئمة المحدثين، ولهذا استثناءات قليلة، وإن كان الأصل في الفقيه الممتاز أن يكون محدثاً ممتازاً أولاً، لكن النبوغ في هذين الأمرين ليس بالأمر السهل، ولهذا لم يفز به إلا القليل.

تعامل المفكر مع الذاكرا ينبغي أن يكون مصحوباً بحذر أشبه بحذر الذي يمشي على جبل مشدود، فهو يخاف ويتجاشي السقوط بينة أو يسرة، وأنا هنا أدعو المستغلين بالتفكير إلى الانفتاح على النصوص والتراث عامه، وأدعو المستغلين بالحفظ

إلى الإصغاء لما يقوله المفكرون، فوجود الفجوات بين هؤلاء وأولئك لا يخدم أحداً.

#### ٥ - منالجزئي إلى الكلي:

الانطلاق من الجزئي إلى الكلي ومن ضيق النظرة إلى اتساع الرؤية، من أهم ما يفرق بين العالم والمفكر، ذلك أن العلم هو عبارة عن مسائل جزئية تم تنسيقها على نحو معين لتشكل تخصصاً محدداً كما هو الشأن في الكيمياء والفيزياء والجغرافيا والفقه وقواعد اللغة.... وإن المتخصص في أي علم كلما تعمق في تخصصه، وجد نفسه يستغل بسائل أصغر حجماً، كما هو الشأن في رسائل (الماجستير) و (الدكتوراه)؛ حيث إنك تجد الواحد من طلاب الدراسات العليا يكتب بحثاً مطولاً في مسألة صغيرة جدأ، ربما لم يكتب فيها السابقون سوى صفحات قليلة، حتى إن في إمكانك أن تقول: إن بعضهم يكتب أشياء كثيرة عن (لا شيء)! أما المفكر فإن له شأنآ آخر، فهو لا يحفل بالجزئيات إلا من أجل عبورها إلى الكليات؛ بل إن (العبور) على نحو عام هو أحد مشاغل المفكرين؛ حيث إنك تجد الواحد منهم قد عَبَرَ تخصصه إلى فضاء المعرفة الأُرْحب، وعَبَرَ معارفه بالماضي إلى توظيفها في فهم الحاضر وإصلاحه، وبعد ذلك يعبر رؤيته للواقع من أجل استشراف المستقبل.... ومن الممكن في هذا السياق أن ننظر إلى تخلف العالم الإسلامي واهتمام الباحثين به، وسنجد أن عالم الاقتصاد ينظر إلى المشكلات الاقتصادية التي يعاني منها الناس، ويحاول إعطاء أهمية بالغة لتأثير ضعف الاقتصاد في تخلف الأمة، كما أنه ينبع المال والاقتصاد دوراً أساسياً في تحضر الأمة ورقيتها، أما الداعية فإنه ينظر إلى دور الانحراف العقدي والأخلاقي والسلوكي في تخلف الأمة، ويعُد تصحيح تلك الانحرافات كافية لتحقيق النهضة والازدهار، وبفعل مثل ذلك السياسي والجغرافي والمعلم والمربي.... كل واحد منهم ينظر إلى تخلف الأمة من أفق تخصصه، ويطرح رؤاه الإصلاحية من أفق ذلك التخصص، وهذا واضح.

أما المفكر، فإنه لا ينظر إلى الأمور من أفق تخصصه الأصلي، وإنما يحاول بلورة رؤية مركبة تستند إلى وعيه بجوانب التخلف المختلفة، ثم يسعى إلى إدراك العوامل الأساسية في إيجاد ذلك التخلف، وإدراك ما يمكن أن يسهم فيه كل تخصص من التخصصات العلمية والعملية في تحقيق التقدم.

المفكر لا يكفي بالقول: إن كل جوانب الحياة لدينا متخلفة وتحتاج إلى نهضة، وإن كل الجهات والافتات مسؤولة عن ذلك التخلف، ويكونها المساعدة في إزالته والخلاص منه... بل يحاول أن يعرف المقدار الذي يمكن أن يسهم به الحكم الرشيد - مثلاً - في الخلاص من التخلف، وأن يعرف المقدار الذي يمكن أن يسهم به اهتمام أرباب الأسر بأسرهم، وما يمكن أن يسهم به إصلاح نظام التعليم وإصلاح نظام الضرائب وإيجاد بيئة تجارية في تحقيق التقدم، إنه يحاول معرفة كل ذلك ومعرفة ما لا يستطيع أهل تخصص أو مجال ما إصلاحه، إنه يعرف أن من مظاهر التخلف ما لا يمكن إصلاحه عن طريق الوعظ أو عن طريق نشر العلم الشرعي أو عن طريق سن المزيد من القوانين أو ضخ المزيد من الأموال في السوق، وهذه المعرفة نابعة من فهمه العميق لطبيعت الأشياء وسنن الله - تعالى - في الخلق وفهمه للعلاقات التي تربط بين الجوانب المتعددة للتخلّف.

المفكر - كما أشرنا قبل قليل - يعيش العبور في كل الاتجاهات، ويتأتى على الحشر في الروايا الضيقة؛ ولهذا فإنه لا يعبر الجزئي إلى الكلي فحسب، ولكنه يعبر الكلي إلى الجزئي أيضاً، وإن الملاحظ أن التربويين - مثلاً - مشغولون في البحث عن أوجه القصور في النظام التعليمي والعمل على تلافيها من أجل تحقيق النهضة التعليمية، أما المفكر فإنه لا يدخل في تفاصيل النظام التعليمي، لكنه يوضح للتربويين أن النظام التعليمي هو جزء من كل، وأنهم لو حصلوا على أفضل نظام تعليمي في العالم، فإن هذا لا يعني الحصول على أفضل تعليم؛ وذلك لأن للنظام السياسي والاقتصادي، والاجتماعي ولوضعيّة الأسرة والتنمية الشاملة وأمور أخرى من هذا القبيل... تأثيراً مهماً في المخرجات التعليمية، أي أن المفكر يرى الجزئي في ضوء الكلي، ويدرك أنه ليس هناك مجال مستقل بنفسه، كما أنه لا يمكن لأهل أي تخصص أن يضمنوا نتائج جهودهم فيه على نحو مطلق، وذلك بسبب التشابك بين النظم وال المجالات المختلفة. هذا كله لا يعني أن كل من يظن نفسه مفكراً أو يظنه الناس كذلك - يملك فعلاً طاقة كبيرة على العبور من الجزء إلى الكل وعلى رؤية الجزئي في ضوء الكلي، هذا لا يكمل لأحد، ويكون ناقضاً نفطاً ظاهراً عند بعض المفكرين، لكن ما ذكرناه هو ما يسمى إليه المفكرون من الطراز الرفيع، وصدق الله تعالى إذ يقول:

﴿وَقَوَّقَ كُلُّ ذِي عَلِيهِ عَلِيُّم﴾ [يوسف: ٧٦].

## ٦ - المفكر والمفكر المسلم:

قد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن العقل البشري لا يستطيع العمل في فضاء مطلق وخاري من التوابات والأطر وال المسلمات، ومن هنا فإنه ما من مفكِّر في العالم يستطيع أن يدعُّي أنه سيسلك طرِيقاً في الاستنتاج والفهم والتَّقْعِيد، لم يسلكه أحد من قبل، وإنما على العكس من هذا، الجميع يبنون على المعطيات التي توصل إليها من سبقهم من أهل العلم والتفكير، وإن كانوا يختلفون فيما بينهم في الكثير من المسائل، لكن دائمًا هناك ثوابت تجاوزت مرحلة النقاش، وهذا هو الذي أتاح لنا أن نتحدث عن شيء اسمه التقدم العقلي. ومهما يكن من أمر فإن المفكِّر في أمس الحاجة إلى التمسك بالقيم الإنسانية العليا التي لقيت نوعاً من الإجماع على مدى العصور بسبب اتصالها بالفطرة التي فطر الله الناس عليها، وبسبب تعزيز الرسائل السماوية لمضامينها وتأكيد الخبرات البشرية على ضرورة الانحياز إليها، ومن تلك القيم، القيم الثلاث المشهورة: الحق والخير والجمال، ولا شك في أننا قد نختلف هل هذا الموقف أو العمل أو الحديث من الخير أو الشر، وهل الحق مع فلان أو فلان في مسألة كذا وكذا، كما قد نختلف في تقويم المشاهد الجمالية، هذا كله يحدث كثيراً في كل يوم، لكن مجرد الالتزام بأصول هذه القيم والعمل على الدفاع عنها يوفر للمفكِّر نوعاً من الاستقامة السلوكية، كما يضع أمامه بعض الحواجز عند رغبته استخدام أفكاره في تحقيق مصالح خاصة على حساب الأمة أو على حساب التراحم، ويوفِّر له صمام أمان من أن يصبح بثابة المستأجر الذي يعمل لحساب هذه الجهة أو تلك، وهذا الانحياز للقيم الكبيرة مطلوب في الحقيقة من كل الناس لكنه بالنسبة إلى المثقفين والمفكرين والعلماء عامةً يشكل ضرورة من الضرورات.

### المفكر المسلم:

لو أردنا أن نحصي ما هو مشترك بين المفكرين عامة وبين المفكرين المسلمين خاصة لأعياناً ذلك، ونحن لا نحتاج إليه، لكن من المهم أن أشير إلى بعض ما يتميز به المفكِّر المسلم عن غيره حتى نزيل اللبس الذي شاب هذه القضية منذ زمان بعيد:

المفكِّر المسلم هو مسلم أولاً ومتذمِّر ثانياً، وهذا يشكل فارقاً جوهرياً بينه وبين المفكِّر العلماني أو اللاديني والذي لا يملك من العقائد والثوابت المعصومة ما يتتجاوز ما هو متوفِّر من المناهج العقلية والفكِّرية لبني البشر، والحقيقة أنه إذا كان لا بد للمرء

من أن يستند إلى ثوابت وهو يمارس عملية التفكير، فإن مما لا ينسجم مع عقائدهنا الرجوع إلى أطر أو مسلمات تختلف مع المسلمات والقواعد القطعية التي جاءت بها الشريعة الغراء، وهذا التوجه من المفكرين المسلمين ينظر إليه من قبل المفكرين غير المسلمين على أنه قيد على الفكر والإبداع، وهو يجعل مجال الحركة أمام عقل المفكر محدوداً، وهذا أمر متوقع من أناس لا يرون في عقيدة الإسلام وشرائعه ما نراه، ونحن من جهتنا ننظر بعين الإشفاق إلى أولئك الذين حرموا من نعمة الهدایة ومن أنوار الوحي، وننظر إلى ما يعده غيرنا قيوداً وعقبات في وجه الطلاقة الفكرية، وأمام الإبداع على أنه موجهات تسد العقل في عمله، وتحفظه من الضياع في فضاءات المطلق واللامهائي.

إن الإنسان يستخدم العقل من أجل الارتفاع بال النوع البشري وحل مشكلاته وتوفير البقاء والأمن له، وحين توفر نصوص الشريعة وأحكامها وأدابها ما يساعدنا على الحصول على ذلك، فإن علينا أن لا نتردد في الأخذ به والركون إليه، لكن حكمة الله - تعالى - اقتضت أن يظل الإنسان محتاجاً إلى التفكير والتأمل؛ ولهذا فإن من الملاحظ أن ما لا يتغير بتغير الزمان والمكان من شؤون البشر وأوضاعهم، جاءت أحكامه مفصّلة غاية التفصيل في الشريعة الإسلامية، كما هو الشأن في العقائد وأحكام العبادات، مما يحصر حركة الفكر آنذاك في مجال الفروع والجزئيات على نحو أساسى، أما ما يختلف باختلاف الزمان والمكان مثل شؤون الإدارة والحكم وال العلاقات الدولية وتنظيم الحياة الحضرية، فإن النصوص فيه قليلة، وهذا يتبع للعقل المسلم أن يتحرك فيه حرفة واسعة جداً على صعيد القضايا الكبيرة والصغرى، إن من المهم دائمًا لا تصطدم اتجهادات المفكر المسلم وأطروحته بالإجماع والنصوص الثابتة والصريحة في دلالتها، أما المskوت عنه والمختلف فيه، فمجال النظر فيه واسع، وأنا دائمًا أقول: إذا اتفقنا في الثوابت والكلمات لم يضرنا الخلاف في المتغيرات والجزئيات. لا شك أن الأمور ليست بهذه السهولة واليسر؛ فهناك مسائل كثيرة شائكة قد نختلف فيها: هل هي من الأصول أو الفروع؟ كما أن من مثقفينا من يشتغل بالتفكير، ويجهد في بعض القضايا ذات الامتداد الشرعي دون أن يملك الثقافة الشرعية المطلوبة، وأنا أشعر أن الأمور تتجه إلى التحسن في هذا شأن، والله المستعان في كل حال.



لا نستطيع التحدث عن تكوين المفكر دون أن نعطي لحة مريعة عن كلّ من الدماغ والعقل والعلاقة بينهما، وذلك حتى نعرف عظم المنة التي تفضل الله - تعالى - بها على عباده، ونعرف شيئاً عن إعجازه في خلقه، ولا يخفى ذلك الفارق الضخم بين الإنسان وبين غيره من المخلوقات، ويكفي أن نعلم أن كل ما يحيط بالإنسان سُخْرَ له حتى يتفع به، وقد قال الله - تعالى - : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جِبِيلًا﴾ [المائدة: ١٢] وقال : ﴿وَلَئِنْ كَرَمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَلَّنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ أَطْيَابِنَا وَفَصَلَّنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ حَلَقَنَا تَقْيِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]. إن جوهر تفضيل الله - تعالى - للإنسان منوط بتلك القدرات العظيمة التي مكنت الإنسان من التفكير والإبداع والبطء والكتابة، ومنوط بنعمة الإيمان وإرسال الرسل، مما يستوجب الحمد لله والثناء عليه.

### الدماغ،

إن الدماغ عبارة عن كتلة من النسيج الدهني والبروتيني، تزن في حدود ( ١٤٠٠ ) غرام، أي ما يقرب من ( ٢٪ ) من وزن الجسم - وسطياً - لكنه يستهلك أكثر من ( ٢٠٪ ) من الطاقة الواردة إلى أجسامنا. هذه الكتلة تتشكل من نحو مئة مليار خلية، ولكل خلية عشرة آلاف اتصال مع الخلايا الأخرى، فهل سمعت بشبكة أعقد وأدق من هذه الشبكة؟ الشعيرات الواصلة بين الخلايا تجمع بين مواصفات الأسانك الكهربائية والألياف، هي أسلاك لكونها تنقل الشحنات الكهربائية من خلية إلى خلية، وهي أنابيب لأنها ليست أسلاكاً صماء، وإنما مواسير مجوفة، تنقل مواد كيماوية بين الخلايا وتسمى هذه المواد الموصلات العصبية، ولكلّ من هذه الموصلات مستقبلات خاصة، كل موصل ينقل رسالة محددة؛ تحفيز، تشبيط، فرح، حزن، غضب... يولد كل إنسان مزوداً بعدد من الخلايا وبوصلات بين هذه الخلايا، وهي محمّلة

بغرائزه الحيوية ومجهزه بمهارات فطرية، لا يحتاج المرء إلى تعلمها، وتنطلق عند الحاجة إليها، وتشكل بعد ذلك الوصلات الخاصة بكل شخص، والعجيب أن المرء كلما تعلم شيئاً، أو من تجربة، أو اكتسب مهارة تم اختزان ذلك في دماغه، وتتصبح له دائرة الخاصة. إن بيئة الإنسان وتقاليده وديانته وجنسه وجنسيته تُسهم في تشكيل دماغه عبر ما ترسمه فيه من أخذٍ وردٍ، وما تحدثه من وصلات بين الخلايا، وتشير بعض الدراسات إلى أن دماغ الإنسان يعمل بأعلى قدر من الكفاءة حين يكون المرء في التاسعة والثلاثين من عمره، ثم يبدأ بالترابع بعد سن الأربعين حين تقل كفاءة الجسم في إصلاح ما يأكل من الطبقات التي تعطي الخلايا العصبية، أما الذاكرة فإنها تبدأ في التراجع في سن مبكرة، ربما تكون عند بلوغ الإنسان الخامسة والعشرين من عمره.

وقد تم اكتشاف أمر مهم، هو أن عدد خلايا المخ أقرب إلى أن يكون ثابتاً، ولكن الذي يتغير هو كيفية تواصل وتلامح هذه الخلايا؛ فكلما درب الإنسان نفسه، وأجهد دماغه بالتفكير زاد عدد الوصلات وتحسن التحامها، وهو ما يؤدي إلى مقدرة أكبر على الاستيعاب، ويرفع في درجة الذكاء، والعكس صحيح، وهذا يعني أن الله تعالى - وهبنا آلة بالغة العظمة والتعقيد وابتلانا بها؛ حيث ترك لنا مساحة للمحافظة عليها والارتفاع بها، وعدم استغلال تلك المساحة يعني تدهور أدمغتنا وتراجعها. ولا بد من القول بعد كل ما ذكرناه: إن معرفة البشر بالدماغ ما زالت محدودة، وهو فعلاً أشبه بصنどيق مغلق نظر إليه من ثقب صغير للغاية؛ فنرى شيئاً منه وتفتّب عنا أشياء، وإن البحث العلمي المتواصل يوسع ذلك الثقب، ويجعلنا نطلع على المزيد من أسرار هذا المخلوق العجيب، وإنك حين تطلع على مداولات العلماء والباحثين في شأن الدماغ وعظمته لا تملك إلا أن تقول: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرَوْفُ مَاذَا خَلَقَ اللَّهُ بِنِ دُرْبِي﴾ [العنان: ١١].

### العقل وعلاقته بالدماغ

إذا كان الدماغ - وهو شيء محسوس معain - ما زال محاطاً بالكثير من الأسرار، فإن العقل وهو شيء معنوي، سيظل غارقاً في الكثير من الغموض، والذي قد لا نجد له أية نهاية؛ ولهذا فإن كل ما يقال في هذا الشأن لا يخلو من شيء من التخيّل، وسوف يستمر حوله الكثير من الجدل.

العقل مصطلح يستخدم عادة لوصف الوظائف العليا للدماغ البشري، ولا سيما تلك الوظائف التي يكون فيها الإنسان واعياً على نحو شخصي، وذلك حين يجادل ويذكر ويحلل الأحداث ويلوم نفسه ويراجع مشروعيته، وحين يثور، ويتعاطف، ويفرح.... الدماغ إذن ليس هو العقل؛ بل هو المكان الذي يتواصل العقل من خلاله مع الجسم البشري؛ حيث يستخدمه لإيصال الرسائل والأوامر إليه. الدماغ هو المنفذ لإرادة العقل و وسيط التركيز الذهني. بعض العلماء ينظرون إلى العقل على أنه مجموعة من الأفكار والمشاعر والعواطف والأحساس وما إلى ذلك.... وبعضهم ينظر إليه على أنه ذات مستقلة عليا، تتضمن الأنماط والمحاكمات العقلية والمشاعر، وإذا قلنا: إن العقل ذات مستقلة فإنه يرد علينا سؤال حول ماهية المادة التي يتألف منها العقل: هل هي نفس مادة الأجسام الطبيعية أو هي مادة أخرى؟ وإذا قلنا: إن العقل ليس أكثر من حوادث عقلية، وإن كل ما يفعله العقل هو تصميم سلسلة الحوادث العقلية، يظل السؤال مطروحاً حول طبيعة العلاقة بين الحوادث العقلية والحوادث الفيزيائية؟

وإذا كان جمهور الأطباء والعلماء اليوم لا يكادون يختلفون في أن وظائف العقل وأنشطته موجودة مجتمعة في الدماغ، فإن السابقين كانوا مختلفين في هذا، وقد كان كثيرون منهم يعتقدون ذلك أيضاً، لكن كان يُشكّل عليهم ما ورد في كثير من النصوص مما يدل على أن آلة الفهم والإدراك هي (القلب) كما في قوله - سبحانه - : ﴿قُلْمُوبُ لَا يَقْهُرُنَّ إِبَاهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقوله: ﴿أَلَّا يَتَبَرَّوْنَ أَلْفَرَّهَاتَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَفْتَالَهَا﴾ [سجدة: ٢٤] وقوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْنِي الْأَبْصَرَ وَلَكِنْ تَعْنِي الْأَلْوَبُ الَّتِي فِي الْأَبْصَرِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقد كانوا يدركون أن القلب الحسي ليس هو المقصود، وإنما هو مضخة لإيصال الدم إلى أجزاء الجسم؛ ولهذا فإن منهم من قال: إن المراد بالقلب في الآيات التي ذكرناها هو قلب معنوي روحاني متصل بالقلب اللحمي، ومنهم من قال: إن قلب الشيء هو باطنه؛ ومن ثم فإن أدلة الفهم هي في باطن الإنسان، وهذا الباطن هو القلب اللحمي أو الدماغ. ويدرك بعض الباحثين اليوم أن بعض من زرعت لهم قلوب طبيعية وصناعية قد تغيرت عواطفهم على نحو جذري، مما يدل فعلاً على أن القلب اللحمي المادي هو مركز للعواطف والمشاعر... لكن في اعتقادي أن ما يذكر من ذلك لا يبعد أن يكون عبارة عن حالات فردية،

هي إلى الشذوذ أقرب، واحتمالات الوهم والخلط في هذه المسائل كبيرة جدًا، والله أعلم وأحكام.

### العقل عقلان،

من المعروف أن أهل العلم يقسمون العقل إلى عقلين: عقل أول وعقل ثان، والعقل الثاني هو في الحقيقة المعرفة والخبرة المكتسبة، وسأتحدث عن ذلك فيما بعد، بإذن الله تعالى.

العقل الأول في تعريف سهل قريب هو: مجموعة من الإمكانيات والاستعدادات والمبادئ الأولية التي وهبها الخالق - سبحانه - بنى البشر؛ إذ كل واحد منا مزود بالقدرة على التذكر والتخيّل والربط بين الأشياء والقدرة على التحليل والتركيب.... كما أن كل واحد يملك مبادئ أولية تشكل ركائز أساسية لبنيته الفكرية، وهذه المبادئ عالمية، لا تختلف باختلاف الأعراق والأجناس واللغات والأديان كما لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة.

وهذه بعض الأمثلة الشارحة لتلك المبادئ:

- الجميع يعرف أن النقيضين لا يجتمعان، السيارة التي في الشارع إما أن تكون متحركة أو ساكنة، ويستحيل أن تكون ساكنة ومتحركة في آن واحد. ونقول أيضًا: يستحيل أن تكون تلك السيارة خالية عن أحد النقيضين، أي ليست ساكنة ولا متحركة.

- الناس جميعًا يدركون أن الكأس الصغير لا يتسع لماء الكأس الكبير، ويدركون أن الظرف أكبر من المظروف، ويدركون أن الكل أكبر من جزءه، فأذن زيد لا تكون أكبر منه، والنجم لا يكون أكبر من الجمرة.

- نحن نعرف أن فاقد الشيء لا يعطيه، وحين نقول لطفل أعطني رغيفاً، ويقول لك: ليس عندي رغيف، وتلعن أنت عليه في طلب الرغيف، فإنه سيقول لك: قلت لك: ليس عندي رغيف، فكيف أعطيك إيه، أي: هذا مستحيل.

- نحن نعرف أن الترجيح - بغير مرجع - باطل، وعلى سبيل المثال فإنه إذا كان لدينا ميزان له كفتان، فإن العقل يقضي بأن تكونا في مستوى واحد ما لم يكن في

إحداها شيء يجعلها أثقل، فتكون أخفض، أو يحركها الهواء، أو يضغط عليها أحد...

قال المناطقة: الدور باطل، أي: مستحيل، لا يتصور العقل وجوده، وللدور أمثلة كثيرة، منها أن يكون زيد حاملاً لعمرو، ويكون عمرو حاملاً لزيد، فيتصف كل منهما بصفتين متناقضتين، وكأن يكون الشيء علة وعلولاً في آن واحد، وذلك لأن نقول: المكان المنخفض يجذب إليه الماء، والماء يجذب إليه المكان المنخفض، وهكذا...

الطفل ابن الخامسة يبتليك هذه المبادئ، ويفكر على أساسها، ولا أريد أن أخوض هنا في البحث حول وقت امتلاكها، وهل كان يمكن لها عند الولادة، ولكن لم يكن يملك اللغة المعبرة عنها، أو أنه امتلكها عن طريق الحس والمشاهدة، المهم أن الناس جمِيعاً يملكون هذه المبادئ، ويفكرون على أساسها. ومن الواضح أن عقولنا - كما أشرنا - هي عبارة عن مفاهيم وأفكار وملحوظات وآراء ومشاعر تتشكل على نحو عام من واردات الحواس: السمع والبصر والشم والذوق واللمس، تلك الواردات يأتي معظمها متربطاً، وذلك من خلال التزامن والحدث المتزامن؛ فتشكل بنيات فكرية أولية وأساسية بناء عليها وانطلاقاً منها، إن الطفل يظهر ابتهاجه لرؤيه (الرضاعة)؛ لأنه يتذكر المتعة التي يجدها عند مصها، وتلك المتعة ترسخت في ذهنه من خلال تكرارها مرات عديدة، وكثير من الأطفال يكونون حين يرون أمها them وقد ارتدت عباءتهن السوداء؛ وذلك لأن ليس العباءة ارتبط من خلال التكرار بخروج أمها them من البيت وتركهم فيه. وحين يمر محسن من جانب شخص فقير، فقد يخفق قلب الفقير فرحاً إذا رأى المحسن يخرج محفظته من جيده؛ وذلك لأن ذلك المحسن قد تصدق على ذلك الفقير مرات عديدة، فارتبط مرور المحسن ومده ليده إلى جيده بالحصول على المال، أما الشخص الذي يتعرض للناس بالمسألة فإن بيته الفكرية تجاه المحسنين والصدقات والعطاء تكون أوسع بكثير، إنه يعرف أين يجلس ومن يطلب الصدقة، ويعرف ماذا يقول كما يعرف المظهر الذي ينبغي أن يظهر فيه حتى يستدر عطف الآخرين، إن (الشحاذة) فن كامل له أصوله وأدياته، وله رجاله وفرسانه وحبراؤه! الطفل الصغير يُعرف على (الماء) في وقت مبكر، وهو يبحث عنه، ويطلبه عند الشعور بالظماء، ويظن الطفل أن كل السوائل التي لها لون الماء يمكن أن تُشرب

ويكون لها نفس الطعم، ويكتشف مع الأيام أن الأمر ليس كذلك؛ بل يكتشف بعد مدة أن من الماء ما هو عذب، ومنه ما هو ملح لا يصلح للشرب، وهكذا يتكون عقل الإنسان من خلال بناء المزيد من البنية الفكرية، ومع كل بنية فكرية وتصنيف جديد للأشياء يحدث نمو لمشابك ومحاور عصبية داخل الدماغ، وبذلك ينمو الدماغ مع نمو الفكر، ويتحول الدماغ النامي والمبدئي والبنيات الفكرية التي تم ترسيخها إلى أدوات مستخدمها خلال فهمنا للوجود وحكمنا على الأشياء، ولا شك أن تلك البنيات لا تكون دائمًا صحيحة، وما فيها من صحة وصواب وحداثة يختلف من شخص إلى آخر، ومن هنا تنشأ لدينا (عقليات) مختلفة، وبسبب اختلاف تلك العقليات تختلف نظرتنا للأشياء، وتختلف الأحكام التي تُصدرها عليها. ربما وقعت في التبسيط وأنا أشرح هذه القضية الشائكة جدًّا، ولهذا فعل القارئ الكريم يتلقى هذا الشرح على أنه مقاربة وطرح غير حاسم.

بقي أن أقول: إن علماءنا القدماء نظروا إلى العقل على أنه أداة لإرشاد صاحبه إلى الطريق القويم، كما أنه أداة للانضباط الذاتي ولجم الأهواء والبعد عن طريق الرذيلة، وكل ما يخل بالمروعة، وحين نقرأ ما قالوه في هذا الشأن يخيل إلينا أنهم جعلوا مفهوم (العقل) شيئاً أشبه بالمرادف لمفهوم (الحكمة)، وفي هذا يقول سفيان الثوري: (ليس العاقل هو الذي يعرف الخير من الشر، ولكن العاقل هو الذي يعرف الخير، ففيه، ويعرف الشر، فيتجنبه)، ويقول محمد بن ورد بن نصروري: (العقل أن يغلب حلمك جهلك وهواك). وعن سفيان بن عيينة أنه قال: (لا تنظروا إلى عقل الرجل في كلامه، ولكن انظروا إلى عقله في مخارج أمره) أي في حسن تدبيره لشؤونه. هذا المنحى الأخلاقي السلوكي في توضيح معنى العقل، يشكل نوعاً من الارتباط بين ثمرات استعمال العقل وبين المنهج الرباني والأداب الشرعية التي يؤمن بها المسلم، ولا شك في أن أعظم وظيفة للعقل أن يساعد صاحبه على العيش وفق مرادات الله - تعالى - وأن يساعده على النجاة من عذابه، وحين نغض النظر عن هذا المعنى، فقد يصبح لدينا في الأمة الكبير من الأذكياء والمبدعين والمخترعين والقليل من الحكماء أرباب البصيرة والعقول النيرة وهذا لا يكون أبداً أمارة على الرشاد والفلاح.



الحق والحقيقة هما ركنا الحياة الإنسانية، فإن حفاظ الحق يعني استقامة المجتمع وقدرته على مقاومة شرور العداون والطغيان والتزوات... وفهم الحقائق يعني أننا نعرف أنفسنا، ونعرف الخيط الذي نعيش فيه، ونعرف ماضينا وسنن الله - تعالى - الماضية في خلقه، وهذا يشكل شرطاً مهماً لتقدم البشرية وازدهارها وشرطًا مهماً لتجاوز الكثير من المشكلات التي تعاني منها.

خدمة الحق والحقيقة والدفاع عنهما والامتثال لمدلولاتهما شأن من شؤون النفوس الكبيرة، وقد أخبرنا ربنا - سبحانه - أن من الناس من يتعاملون مع الحق ويغبطون معرفته إلى درجة البكاء: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزَلَ إِلَيْ الرَّسُولِ رَبِّنَا أَعْيُنُهُمْ تَفَجَّعُ مِنَ الْأَدْعِيَةِ مَا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَمَّا فَاعْلَمُنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

الشفف بمعرفة الحقائق من صفات المفكرين العظام؛ حيث إن من الصعب أن نجد مفكراً كبيراً لا يهتم بالحصول على درجة عالية من الوضوح لكل القضايا والمسائل التي يفكر فيها؛ وذلك لأن الاهتمام بذلك والسعى إليه من الأمور التي تشكل فارقاً جوهرياً بين المفكر وبين غيره من المتخصصين الذين قد يكونون في حوزتهم الكثير من المعلومات، لكن لا يستهويهم البحث عن الحقائق أو صياغة الأفكار العظيمة.

قضايا اكتشاف الحقيقة وفهمها واحترامها وخدمتها قضايا ذات تفريعات كثيرة، وفيها الكثير من الغموض، وتحتاج إلى الكثير الكثير من الشرح؛ ولهذا فسأحاول إلقاء بعض الأضواء عليها من أجل تقريرها للقارئ الكريم قدر الاستطاعة:

١ - الحقيقة هي الشيء الثابت يقيناً، ولا ريب أن من الحقائق ما هو واضح الثبوت حتى لو لم نره؛ حيث لا يشك أحد أن وجود النبي عليه السلام في مرحلة تاريخية معينة كان حقيقة ساطعة، ولا شك أن هناك بلدًا اسمه الصين... هذا النوع من الحقائق راسخ ولادراكه بسيط، لكن هناك ما لا يحصى من الحقائق التي ما زالت موضع جدل.

إن لكل شيء وجودين: وجوداً مادياً في الواقع ووجوداً معنوياً في عقولنا، وهو الصورة الذهنية التي رسمناها عن ذلك الشيء أو الحكم الذي أصدرناه عليه، وعلى سبيل المثال: فإننا حين نقول: إن فلانا هو أعلم الناس بالذهب المالكي، فإن هذا يشكل الصورة الذهنية التي رسمناها عنه، والحكم الذي أصدرناه عليه، وأما الواقع فقد يكون كذلك فعلاً، وقد لا يكون، والدليل على ذلك هو أن أهل العلم كثيراً ما يختلفون في كون فلان هو أعلم أهل زمانه أم فلان؟ وفي كون فلان أشجع أم فلان....؟ الواقع واحد، والحقيقة واحدة، لكن الصور الذهنية التي رسمناها عنها مختلفة. وهذا يعني أن على الواحد منا أن يدرك أنه وهو يصدر الأحكام يمارس الاجتهاد، ونحن نعلم أن المجتهد يخطئ ويصيب. بعبارة أخرى: هناك حقائق متفق عليها، وهناك آراء شخصية لأهل العلم، وإن المسيرة العلمية على كل الأصعدة تمضي نحو تحييد الآراء وتجاوزها في اتجاه بلورة المزيد من الحقائق، ومن خلال فرز المزيد من الآراء، وفي خضم الحراك المعرفي والعقلي قد يتتحول رأي ما إلى حقيقة راسخة، وقد تحول حقيقة كانت موضع اتفاق في يوم من الأيام إلى مجرد قول يقوله أحد أهل العلم، ويختلف فيه مع غيره، والحقيقة أنه حين يسود الجهل ويختفي الجمود العقلي يسارع الناس إلى تصديق كل ما يسمعونه وتلقونه على أنه حقيقة ثابتة، مع أنه في الواقع لا يبعد أن يكون رأياً من الآراء، انظر مثلاً إلى آراء كثير من الأطباء القدامى ونظرياتهم في تشخيص الداء ووصف الدواء تجد أن أهل زمانهم تلقواها على أنها حقائق ثابتة، ويتبين اليوم أن كثيراً منها لم يكن صحيحاً، وهذا ما حدث في كل العلوم دون استثناء.

٢ - إن العقل الإنساني محدود - إلى مدى بعيد - بحدود الحواس التي متنعاً الله - تعالى - بها ، وبما أن طاقة حواسنا على التواصل مع الأشياء وعلى التماس مع المدارات محدودة وضئيلة، فإن من المتوقع أن لا نظفر إلا برؤية محدودة للحقائق، وإن من سنن الله ﷺ في هذا الشأن، أنها كلما اقتربنا من الشيء الذي نريد رؤيته ومعرفته - رأينا مساحات أقل وتفاصيل أكثر، وكلما ابتعدنا عنه رأينا مساحة أكبر وتفاصيل أقل، وهذا يطبق على المعنيات والماديات، وعلى سبيل المثال فإن المختص في التاريخ المعاصر لمدينة من المدن يرى من التفاصيل والجزئيات أكثر بكثير

ما يراه المتخصص في تاريخ دولة فيها عشرات المدن، وإن المتخصص في مناسك الحج يعرف تفريعات أكثر بكثير من الذي يقرأ في كل أبواب الفقه... ما الذي يعنيه هذا بالنسبة إلى من يريد تحسين سوية المحاكمة العقلية لديه؟

إن هذا يعني شيئاً مهماً، هو أن تركيز البحث والفهم والخبرة في موضوعات صغيرة يجعلنا نفهمها بشكل جيد، لكن هذا يحرمنا من فهم شيء مهم، هو الامتداد المعرفي لتلك الموضوعات والعلاقات التي تربطها بالعلوم الأخرى، وإذا عدنا إلى مثل التخصص في تاريخ إحدى المدن نجد أن من المهم للمتخصص أن يعرف شيئاً عن تاريخ المدينة في العصور السابقة، وأن يعرف نوعية العلاقات الثقافية والتجارية... التي تبادلها مع المدن الأخرى، وهذا يتطلب منه أن يقرأ في الجغرافيا واللغة وعلوم الإنسان وعلوم أخرى، وإذا لم يفعل ذلك سيجد أن معرفته بتلك المدينة محاصرة ومنقوصة ومشوهة. أما الذي يقرأ في عدد من التخصصات دون أن يهتم بأي منها، فإنه يخوض في حقول معرفية أوسع، ويطلع على معلومات أكثر، لكنه يجد نفسه عاجزاً عن التحقيق في المسائل الكثيرة التي يطلع عليها، وعاجزاً عن الإضافة إلى أي علم يقرأ فيه؛ بل ربما شكلت قراءاته المتفرقة عقلاً مملوءاً بالأوهام والمعرف غير الممُحصّنة والمدقّقة، إذن سيكون من المفيد أن يبذل طالب العلم (٦٠٪) من جهده ووقته في تخصص محدد، وأن يترك (٤٠٪) من ذلك للقراءة في فضاءات ذلك التخصص وامتداداته، وفي العلوم الشرعية وال العامة.

٣ - يهدف القرآن الكريم - في جملة ما يهدى إليه - إلى بناء (إنسان الحقيقة)؛ الإنسان الذي يبحث عن الحقيقة ويعرف بها، ويتحقق عند العثور عليها، ويغير في تفكيره وأوضاعه وفق معطياتها... وفي هذا الإطار نجد أن الله - تبارك اسماؤه - يعلم المسلمين أن يسموا الأشياء بأسمائها: النصر نصر، والهزيمة هزيمة، والخير خير، والشر شر.... بل إن القرآن الكريم يعاتب نبيه عليه السلام على بعض ما بدر منه وعلى بعض اجتهاداتـه، وذلك حتى تظل رأية الحقيقة خفافة، وحتى تظل معالملها واضحة. في غزوة أحد شعر المشركون أنهم حفروا نصراً على المسلمين، وغسلوا العار الذي لحق بهم يوم بدر، مع أنهم لم يحققوا كل أهدافهم، وحين كان المسلمون يلقون جراحهم ويحاولون استعادة توازنهم، نزل القرآن الكريم ليضع النقاط على الحروف في أسباب

الهزيمة وملاساتها؛ حيث يقول ﷺ: ﴿وَلَقَدْ مَكَرُوكُمُ اللَّهُ وَغَدُورُهُ، إِذْ تَحْسُونُهُمْ بِيَدِنِيهِ، حَقَّ إِذَا فَشَلْتُمْ وَتَنَزَّلْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْنِي نَبْدِلْ مَا أَرِيكُمْ مَا تُعِيشُونَ﴾ منكم من يُرىي الدين؟ ومنكم من يُرىي الآخرة؟ ثم مكرركم عنهم ليستليلكم ولقد عفنا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ﴿[آل عمران: ١٥٢]﴾ وقال: ﴿هُوَ أَوْ لَمَّا أَصْبَحْتُمُ مُؤْمِنِيْهِ قَدْ أَمْبَثْتُمْ مُنْتَهِيَّهَا قُلْتُمْ أَنَّ هَذَا قَلْمَوْنَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥] إن القرآن الكريم هنا لم يوضح للMuslimين أسباب هزيتهم في أحد، ولكن حدثهم بما تکه صدور بعضهم من إرادة الدنيا والسعى إلى مغانها. ويقول - سبحانه - معاذًا رسوله عليه السلام: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيْنَ آتَيْتُهُ وَأَنْتَمَتَ عَلَيْهِ أَنْتِيْكَ عَلَيْكَ رَوْجَكَ وَأَنْتَ اللَّهُ وَتَخْفِي فِي تَقْسِيْكَ مَا اللَّهُ مُبِيدٌ وَتَخْفِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ...﴾ [الأحزاب: ٣٧] تقول عائشة رضي الله عنها: (لو كم رسول الله عليه شيئاً من القرآن لكتم هذه الآية) وأيات العتاب عديدة ومعروفة، والمقصود هو ظهور الحقائق وإطلاع الناس عليها ليعرفوا كيف يتعاملون معها.

٤- البحث عن الحقيقة واحترامها والجهر بها يحررنا من كثير من الأمراض الخلقية والنفسية والاجتماعية، وأهم ما تحررنا الحقيقة منه هو الوهم وخداع النفس ورؤيا الأشياء على غير ما هي عليه. إن من الواضح أن الإنسان يملك قدرة فائقة على تسمية الأشياء بغير أسمائها، وإن ما تملكه اللغة من مرونة وثراء وأساليب، يساعد على ذلك مساعدة كبيرة وعلى سبيل المثال، فإن في إمكاننا أن نعبر عن الدول المتخلفة على الصعيد العماني بقولنا: إنها متخلفة ومتخلفة جدًا، ويمكن أن نقول: إنها نامية، وناهضة، وواعدة، وماضية في طريق التقدم، ونقول: إن لديها الكثير من الجوانب المشرفة ونقول: إنها متقدمة على الدول المتقدمة في بعض المجالات.. فأي هذه التعبيرات يا ترى أدق في الدلالة على الواقع؟ وهل يمكن أن تشترك جميعًا في درجة واحدة من صدق الدلالة، أو أن ذلك غير ممكن؟

مهما يكن الجواب فإنه يكفي إدراك الحقيقة والاعتراف بها - فضلاً وأهمية - أنهم يفتحان أمامنا باباً لنقد أنفسنا ومراجعة أخطائنا وتشخيص أدواتنا وعيوبنا، وهذه مهمة المصلحين والدعاة والمفكرين وقادرة الرأي. حتى تحررنا الحقيقة فإن علينا أن

نتحمل الأوجاع التي تثيرها والانكسارات التي تفضحها، وعلى المذنبين أن يتحملوا مسؤولية ذنبهم، وعلى الذين حازوا ما ليس من حقهم أن يكفوا عن التمادي في ذلك، وأن يعيدوا ما اغتصبوا إلى أهله إذا أرادوا للحقيقة أن تحررهم من التخطي الداخلي، وأن تنعمهم من المضي في طريق الهلاك. الحقيقة تحررنا بشرط أن نقبل تحريرها، وإلا زادتنا خبلاً واضطراباً.

٥ - لدينا عدد من القواعد التي تساعدنـا - إذا عملنا بمقتضاهـا - على بناء مجتمع الحقيقة، ومن تلك القواعد الآتي:

أ - حين نريد معرفة الحقائق في شؤوننا الاجتماعية، وحين نريد تحليل التاريخ واستخراج العبر منه، وحين نريد فهم واقعنا الأخلاقي والحضاري وتحديد ملامحه، فإننا نتحرك حيشد في مناطق معتمدة، ويكون إدراكنا للحقائق جزئياً ونسبة، وعلى سبيل المثال، فإننا حين نقول: إلى أي مدى يُعد مجتمع المدينة الفلانية ملتزماً بالأحكام الإسلامية، فسنواجه في الوقوف على الجواب الصحيح مشكلة تعريف الالتزام، كما ستجد مشكلة في معرفة واقع الناس، وإذا سألنا الناس عن التزامهم، فهل سيعرفون على نحو جيد معنى الالتزام؟ وإذا عرفوه، فهل سيعرفون عن حقيقة أوضاعهم؟ من هنا نقول: إن علينا أن نبحث عن الحقيقة لأننا فعلًا لا نعرف، كما أن علينا أن ندرك أن الحقائق التي سنثر عليها في الميادين التي أشرنا إليها هي حقائق هشة ونسبية وغامضة، ويجب أن نأخذ هذا بعين الاعتبار حين نعبر عنها، فلا نستخدم القطع والجزم والعبارات الحادة.

ب - كل واحد من المتخصصين والباحثين في المجالات الحضارية كافة يملك جزءاً من الحقيقة، وهناك أمور لا يعرفها أي باحث؛ حيث مضت سنة الله في خلقه أن يجعل في كل حقيقة من الحقائق الكبرى عناصر غريبة استثار بعلمها وحججها عن عباده؛ فقد نعرف - مثلاً - أن النوع الفلاني من السيارات يخدم ثلاثة سنوات دون الحاجة إلى صيانة، ولكن لا يعرف أحد مقدار نسبة الذين يقودون ذلك النوع من السيارات بمهارة عالية وحكمة، ولا نسبة الذين يشعرون بالملل عند قيادتها، ولا نسبة الذين يستخدمونها في الدعوة إلى الله - تعالى - أو في الذهاب إلى الملالي..... إذن سيكون البحث المشترك والمحوار ومقارنة الآراء بعضها مع بعض... مطلوبـاً من

أجل تكامل معلوماتنا وخبراتنا حول تلك الحقائق.

ج - لا ننظر إلى الحقائق من أفق واحد، ولا من منطلق شروط واحدة؛ ولهذا فإن الحقيقة الواحدة تُرى بطرق مختلفة، وتترك في أذهاننا ونفوسنا آثاراً متباعدة، وأعتقد أن اختلاف طبائع الناس واختلاف مصالحهم وتباعد المعلومات والمعطيات المتوفرة لديهم، ودرجة الوعي الاجتماعي السائد... إن كل ذلك يجعلهم يختلفون تجاه الكثير الكثير من الحقائق، وعلى سبيل المثال فإن نظرة المسلم إلى (العسل) وإلى (الحبة السوداء) تتعلق من أفق النصوص الكريمة الدالة على ما يجعل فيما من شفاء عظيم، أما غير المسلمين فإن نظرتهم إليهما تكون من أفق التحليل الكيميائي في الخبراء. ولذلك أن تقول مثل هذا في (الربا)، حيث إن الاقتصادي المسلم يرى فيه تخريباً للاقتصاد وللحياة الاجتماعية ومجلبة لغضب الله - تعالى - أما الاقتصادي الرأسمالي فإنه يرى فيه عماداً أساسياً للنظام الاقتصادي؛ بل لا يتصور نهضة اقتصادية من غير ربا. وعلى صعيد المصالح نجد نظرة الناس للفيت مختلفاً؛ فالفللاح يتمنى شديد، على حين أن الذي تعهد تعبيد طريق، وحفر فيه الحفر الكثيرة، يرى في المطر معوقاً كبيراً عن عمله.

في حالات الإعراض عن الدين والانغماس في المعاصي ينظر كل واحد من الناس إلى أمور مثل البسمة في افتتاح الخطاب وإلقاء السلام وقول: (إن شاء) - على أنها أمارة على التدين والالتزام، ولا يكون الأمر كذلك في حالات إقبال الناس على التدين، والالتزام بتعاليم الإسلام، وإنما يتطلعون إلى أداء الفرائض والبعد عن المحرمات...

وقد عبر عن هذه الوضعية أحد الشعراء الأذكياء حين قال:

يقضى على المرء في أيام محتته      أن يرى حستاً ما ليس بالحسن  
الأزمات والعقبات من الأمور التي تبادر نظرة الناس إليها من زمان إلى زمان، وفي  
هذا السياق فقد كان معظم الخلق - إن لم نقل جميعهم - ينظرون إلى الأزمات  
والمعوقات على أنها شر خالص، ويتجاوزون بالشكوى منها، لكننا اليوم نرى فيها  
محرضًا على الإبداع، ومحفزًا لروح المقاومة - كما نرى فيها سداً في وجه الترهل  
والترانخي والتسيب.. ما الذي يعنيه هذا الكلام؟

إنه يعني أن الحقائق تتلون بحسب الأفق الذي ننظر منه إليها، ومن هنا فإن علينا أن نفك ونتحاور في كثير من المسائل، وكأنها لا تتمتع بحقيقة واحدة، وإنما بحقائق متعددة ومتباعدة؛ فالعالم في نهاية المطاف ليس شيئاً غير ما نراه.

٦ - كثيراً ما تظهر أمانة الفكر من خلال تعامله مع الحقيقة وعرضه لها، وهذه المسألة في غاية الأهمية؛ لأن اكتشاف الزغل فيها صعب. المفكر إنسان أسس له الكثير من العقول القياد، ليقدم لها الأفكار والمفاهيم والرؤى التي تبlier طريقها وهذا يحتمله مسؤولية البحث عن الحقيقة بصدق وإخلاص وتقديمها في الأسلوب المناسب لها.

حين يتوصل المفكر إلى نظرية، أو مفهوم أو يصوغ مقولته... فإنه يطلع في كثير من الأحيان على العديد من الآراء التي تخالفه فيما يقول ويطرح، كما أنه يدرك أحياناً أنه تسرع في إصدار حكم، أو عمم القول بأوسع مما يحتمله الواقع... وفي كل هذه الأحوال فإن الأمانة تتضمن إعادة الصياغة وتعديلها بما يتلاءم مع الوعي المتأمني.

ومن المهم في هذا السياق ألا نعرض ما نعتقد أنه يقيني في صيغة تفيد الظن، وأن لا نعرض ما هو موضع شك وتردد في صيغة جزم وقطع، كما أن من المهم أن نحتذر أشد الاحتياز من (التعيم)؛ وذلك لأن النفوس تشجذب إليه بصورة كبيرة جداً. المفكر يحترس، ويحاول أن يكون دقيقاً وأميناً فيما يعرضه؛ لأن هذا هو استحقاق الريادة الفكرية، وهو بهذا يخالف نمطين من عرض الحقائق، لا يخلو كل واحد منها من شيء من الزغل وتشويه الحقيقة:

١ - الأسلوب الذي يتبعه المحامي المصرّ على كسب دعوى موكله، إنه يُظهر كل الأدلة التي تساعد في الفوز بالقضية، ويُخفي كل ما يعترض عليه من أدلة تدعم وجهة نظر خصم موكله، والواقع يشهد أن المحامين الذين يرفضون الترافع في قضائياً لم يقتعوا بعدالتها دائماً قليلاً، والأكثرية تبحث عن نصوص قانونية وسابق قضائية تدعم قضائياً موكلיהם، هذا الطريق في التعامل مع الحقائق بعيد عن طريق المفكر الحر والأمين.

٢ - الأسلوب الذي يتبعه بعض الساسة في التعامل مع الأحداث، وقد صار من المألوف القول: إن هذا الحكم الصادر في حق فلان ليس قانونياً، وإنما هو حكم سياسي، إننا حين نسيّس الحدث أو الواقع أو الفعل، فإننا ننظر إليه بعيون المصلحة

أو بعيون العاطفة، وكلا الناظرتين غير دقيق، ومن المألوف أن يعترك جيشان عراًكا شديداً ويتحقق أحدهما نصراً حاسماً، ثم يدعى الجيش الآخر أنه هو المتصر، وما ذلك إلا لأنه سينتصر المعركة وسيئ نتائجها، فخرج الحكم من دائرة الاعتبارات العسكرية إلى دائرة الاعتبارات السياسية. والحقيقة أن هذا النوع من التعاطي مع الحقائق يبعث المراة في الفوس، و يؤدي إلى حدوث شرخ كبير في القاعدة الشعبية العربية، وينبغي الابتعاد عنه على مقدار ما نستطيع.

\*\*\*

## ما التفكير؟

وَهَبَ اللَّهُ بِعْلَمَنَ إِلَيْهِ دَمَاغًا مُخْتَلِفًا عَنْ أَدْمَغَةِ باقِي الْحَيَاةِ، وَهَذَا الدَّمَاغُ يَظْلِمُ فِي حَالَةِ الْعَمَلِ الْمُتَوَاصِلِ خَلَالَ أَوْقَاتِ الْيَقْظَةِ، لَكِنَّ مَا يَشْتَغلُ عَلَيْهِ يَتَعَلَّمُ غَالِبًا بِتَسْبِيرِ أَمْرَوْرِ الْحَيَاةِ الْيَوْمَيَّةِ، وَتَحْلِيلِ الْمَوْاقِفِ الصَّغِيرَةِ، وَبَعْضُ التَّفْكِيرِ هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ تَحْرِيكِ الْهَمُومِ وَتَحْرِيكِ الْمَوَاجِعِ لِيُسَأَّلُ أَكْثَرُ الْإِنْسَانِ كَائِنٍ نَاطِقًا، وَحِينَ لَا يَجِدُ مِنْ يَتَحَدَّثُ إِلَيْهِ يَتَحَدَّثُ مَعَ نَفْسِهِ، وَالْمَادِهَةُ مَعَ النَّفْسِ هِيَ تَفْكِيرٌ، وَبِهَذَا الْوَصْفِ يَكُنُّ الْقَوْلُ: إِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ هُوَ مُفْكِرٌ، وَيَمْارِسُ التَّفْكِيرَ، وَهَذَا بِالْطَّبِيعَ لِيُسَأَّلُ هُوَ الْمَقْصُودُ فِي بَحْثِنَا هَذَا، إِنَّا الْمَقْصُودُ ذَلِكُ الْتَّوْرُعُ مِنْ عَمَلِ الدَّمَاغِ الَّذِي يَسْتَهْدِفُ حَلَّ مُشَكَّلَةٍ أَوْ الرَّوْصَولُ إِلَى شَيْءٍ مَجْهُولٍ أَوْ اكْتِشافِ عَلَاقَةٍ غَيْرِ ظَاهِرَةٍ... وَلَعَلِي أَحَاوِلُ الْجَوابَ عَلَى السُّؤَالِ الَّذِي أَثْرَتْهُ فِي الْعُنْوَانِ عَبْرِ الْمَفَرَّدَاتِ التَّالِيَّةِ:

### ١ - التَّفْكِيرُ اِنْتِقَالٌ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ.

يَقُولُ أَبْنَ سِينَا عَنِ التَّفْكِيرِ: إِنَّهُ اِنْتِقَالُ الذَّاتِ الْعَارِفَةِ مَا هُوَ حَاضِرٌ إِلَى مَا هُوَ لَيْسُ بِحَاضِرٍ. وَهَذَا تَعْرِيفٌ جَيْدٌ وَلِتَوضِيْحِهِ نَقُولُ: إِنَّ إِنْسَانَ لَا يَرِي سَوْيَ جَزْءٍ صَغِيرٍ مِنَ الْوَاقِعِ، وَنَظَرَتِهِ لِلْمَاضِي تَخْمِينَيَّةً، وَهُوَ يَوْدُ اِسْتَشْرَافَ الْمُسْتَقْبَلِ مِنْ أَجْلِ التَّعَامِلِ مَعَهُ وَالْاسْتَعْدَادِ لَهُ، وَلَدِي كُلَّ وَاحِدٍ مِنَا مُشَكَّلَاتٍ يَوْدُ التَّعَلُّصُ مِنْهَا وَمَعَالِجَتِهَا... وَهَذَا كُلَّهُ يَتَطَلَّبُ شَيْئًا وَاحِدًا، هُوَ تَجاوزُ مَا هُوَ مُوْجُودٌ وَمَعْلُومٌ إِلَى مَا لَيْسُ مُوْجُودًا وَمَعْلُومًا، وَهَذَا التَّجاوزُ يَتَمُّ عَنْ طَرِيقِ اِسْتِخْدَامِ إِمْكَانَاتِنَا الْذَّهَنِيَّةِ فِيمَا نَمْلِكُهُ مِنْ مَعْلُومَاتٍ وَمَعْطَيَّاتٍ وَأَفْكَارٍ وَمَلَاحِظَاتٍ... إِنَّا إِذْ نَفْكِرُ نَشَبِهُ الَّذِي يَخْضُّ لِلْبَنِ لِيُسْتَخْرِجُ مِنْهُ (الْزَّبَدُ) وَكَمَا أَنَّ الْبَنَ قَدْ يَكُونُ قَلِيلَ الدَّسْمِ، وَبِالْتَّالِي إِنَّا مَا سَنْنَحِصُلُ عَلَيْهِ مِنَ الزَّبَدِ سَيْكُونُ قَلِيلًا، كَذَلِكَ قَدْ تَكُونُ الْمَعْلُومَاتُ وَالْخَبَرَاتُ الَّتِي لَدِينَا حَوْلَ مَا نَفْكِرُ فِيهِ ضَئِيلَةً أَوْ غَيْرَ كَافِيَّةً، وَحِينَئِذٍ إِنَّ الْأَفْكَارَ الْجَدِيدَةَ الَّتِي سَنْنَحِصُلُ عَلَيْهَا سَتَكُونُ ضَحْلَةً أَوْ خَاطِئَةً. وَإِذَا كَانَتْ إِمْكَانَاتِنَا الْذَّهَنِيَّةِ مَتَوَاضِعَةً، فَإِنَّا حِينَئِذٍ سَنَشَبِهُ أَلَّا

الحضر للبن حين تكون غير مناسبة، وسنثبته الذي يقوم بالحضر حين يكون ضعيفاً أو غير خبير، التسليمة أيضاً القليل من الزبد والقليل من الأفكار الجديدة.

## ٢ - التفكير استقصاء للخبرة

التفكير في بعض الأحيان يكون عبارة عن عملية استقصاء للخبرة وتقليل لمحصولها من أجل اتخاذ قرار أو حل مشكلة أو إصدار حكم، هذا قاضٍ جاءه زوجان يريدان الطلاق، وأحب أن يسعى في الصلح بينهما، إنه بعد أن يسمع من كل واحد منها ما لديه تجاه صاحبه، يقوم وعلى نحو سريع جداً باستعراض الكثير من الحالات المماثلة التي عرضت عليه، ويحاول فرزها واستحضار أكثرها شبهاً بالحالة التي أمامه، ثم يقوم بانتقاء الحالة التي نجح فيها في الإصلاح بين الزوجين، ومع ذلك الاستحضار يحاول أن يتذكر الأمور التي نصح بها الزوجين في تلك الحالة حتى ينصح بها الزوجين اللذين أمامه، وفي الغالب يفلح في ذلك. لماذا لو لم ير به مثل هذه الحالة؟ وماذا لو كانت قدرة القاضي على التذكر ضعيفة؟ إن التسليمة هي أن استقصاء القاضي لخبراته سيكون محدود الفائدة.

## ٣ - التفكير بناء للنماذج

من أعظم ما يمكن أن تفكر من أجله (بناء النماذج)؛ حيث إن عقولنا تكره الفوضى، وتكره الغموض، وتتجدد صعوبة بالغة في التعامل مع الأمور العائمة، وغير المعينة؛ ومن ثم كان بناء النماذج عملاً عظيماً؛ لأنه يسهل علينا عملية فهم العالم وعملية التربية والتعليم أيضاً، النموذج الذي نبنيه في عقولنا لشخص أو حالة أو وضعية... هو عبارة عن صورة عقلية نرى من خلالها الواقع، أو هو أشبه بخريطة معرفية، نزعم أنها تحكى الواقع، وترشد إليه. النموذج مكون من عدد من العناصر، بعضها يتم التقاطه من الواقع المشاهد، وبعضها يتم استخراجه من الخبرة الشخصية، وبعضها يتم إحضاره عن طريق الخيال. دعونا الآن نقوم بمحاولة لبناء (نموذج) للشخص (الكذاب)، فما قسمات ذلك النموذج؟

- ١ - يميل إلى الإكثار من الكلام دون الشعور بالمسؤولية حيال دقة ما يقول.
- ٢ - يكثر من الأيمان حتى يقطع الطريق على من يشكك، أو يشكك في صدقه.
- ٣ - مولع بسوق الغرائب، وميال إلى المبالغة.

- ٤ - ينظر إلى نفسه على أنه ذكي، ويعرف كيف يثير إعجاب الآخرين.
- ٥ - لا يالي بالعهود التي يقطعها على نفسه.
- ٦ - تشعر وهو يحدثك أنه رجل المصادفات والمفاجآت الغريبة، فما يجري معه من أحداث لا يجري مع غيره.
- ٧ - ماهر في سوق البراهين على صحة قوله بسبب استسهاله الكذب.

هذه السمات المكونة لهذا النموذج الكذاب اجتهادية، وقد لا تتوفر مجتمعة لدى بعض الكذابين، لكن أعتقد أنها موجودة لدى معظمهم، وقد تكون هناك سمات أخرى لم أهتد إليها. النموذج الذي بنية قد يكون لأشخاص وقد يكون لمنتجات؛ فالمهندسون يبنون نماذج للأبنية الاقتصادية منخفضة التكلفة، كما بنا نماذج للسيارات الفارهة. أنا هنا أدعو القارئ الكريم إلى أن يشحذ ذهنه وخياله، وينمي قدرته على التفكير والتركيب من خلال محاولة بناء عدد كبير من النماذج، ثم عرضها على بعض الأساتذة والزملاء من أجل مناقشتها، وما يمكن أن يكون فيها من نقص، وهذه بعض العناوين لنماذج يمكن العمل على بنائها:

- الطالب الجدد.
- الإنسان المتسامح.
- الشخص المسؤول.
- الشخص الجشع.
- الإنسان الميال إلى النقد.
- مدرسة ممتازة.
- بيئة عمل يسودها التسيب والغموض.
- أب حازم في تربيته.
- ضيف ثقيل الظل.
- مزرعة ناجحة.
- طالب مهمل.

إن النموذج الذي نبنيه يشكل أداة لفهم صاحبه والاقتراب منه، ومن هنا فإننا من خلال العثور - مثلاً - على صفتين من صفات الإنسان الجشع لدى شخص من الأشخاص، يمكن أن نتأمل وندقق لتأكد من وجود باقي مكونات النموذج، فإذا لم نجدتها، قلنا: فلان لا يعد جشعًا، والعكس صحيح، وهكذا يكون فن بناء النماذج هو نفسه فن مكافحة العماء والغموض وفن تسهيل الإدراك والقبض على الحقائق.

#### ٤ . التفكير فن طرح الأسئلة.

طرح الأسئلة حول القضايا المختلفة من صنيع المفكر ومن صنيع التفكير الراقي، وإنما كان طرح الأسئلة مهمًا وحيويًا؛ لأنه يفتح طريقًا جديدة للتبصر والفهم، ويكسر الانساق المصطنع للقيقة. ومن الواقع أن أفكارنا حول الموضوعات المختلفة تنساق في أشكال تحاول أن تكون منطقية ومفهومة، وهذا ملموس جدًا في البيات الأممية والبدائية؛ حيث تسود المعارف الضحلة، ويأتي المفكر ليوضع أن ما يُظن أنه منطقي ليس كذلك، وما يُظن أنه مكتمل ومفهوم ليس كذلك، إن السؤال الكبير يشبه حجرًا كبيرًا نقبيه في بحيرة صغيرة، والسؤال الصغير يشبه حجرًا صغيرًا نقبيه في بحيرة كبيرة، ولعل من الأسئلة التي تعبر عما نريده الأسئلة التالية:

- لماذا نجد أن معظم المسلمين فقراء مع أننا نملك أفضل نظرية اقتصادية في العالم؟  
 - لماذا تنفق المرأة المسلمة على الحلي والزينة والملابس أضعاف ما تنفقه المرأة الأمريكية، مع أن المسلمة تعتقد أن الآخرة خير من الأولى، وتعتقد بأهمية الزهد وخطورة التبذير؟

- لماذا لا يستطيع معظم الشعوب الإسلامية التخلص من حكومة سيئة حتى لو أرافقوا الدماء، وتستطيع الشعوب الغربية فعل ذلك دون أن تريق الدماء مع أن التزاهة في الحكم والشورى وتغليظ سفك الدماء والزهد في المناصب أمور أساسية في ديننا؟  
 - لماذا لا نجد لدينا من الأعمال الخيرية والتطوعية ما يداني ما هو موجود لدى بعض الأمم غير المؤمنة، مع أننا نملك عدداً كبيراً من النصوص والأداب التي تمجّد العمل الخيري؟  
 - لماذا يتخرّ الناس بحسب مرتفعة في دول متراجعة في معيشتها إلى حد الترف

## كما هو شأن في الدول الإسكندنافية؟

- كثيراً ما نقول: إن تسلط الغرب علينا هو سبب ضعفنا.... لماذا لا نقول: إن ضعفنا هو سبب تسلطه علينا؟

إن سؤالاً واحداً قد يفجر من المعرفة ما لا يفجره ألف جواب؛ وذلك لأن السؤال الجيد يبعثنا على إعادة النظر في بعض المقدمات والمنطلقات وال المسلمات، وهذا ضروري جداً للتقدم العقلي والحضاري.

### ٥ - التفكير من أجل تخطي العلل القائمة:

كثيراً ما يواجه الفرد - كما تواجه الشركات والحكومات - مشكلات عديدة، ويتم اعتماد بعض الحلول في مرحلة من المراحل، وكثيراً ما يكون الخل غير ملائم أو يكون باهظ التكاليف، وحيثذا يأتي دور العقل الذكي ليوجد بدائل للحلول المستخدمة، تفي بالغرض، وتكون أقل كلفة، أو تكون أكثر فعالية وأعظم جدوى، ولو كانت كلفتها أعلى. المعروف أن الإنسان لم يستخدم سوى جزء يسير من طاقاته وقدراته الذهنية، كما أن من الواضح أن ضعف الإمكانيات المادية في البلاد النامية أدى إلى قلة (البرامج البحثية) وضعفها، مما حرم عقول أبنائنا من العمل في أطier حية وملائمة.

المال الوفير أحياناً يصرف العقل عن الإبداع والبحث عن حلول اقتصادية عن طريق البحث والتطوير، وهذا مشكل آخر، وما يستشهد به في هذا السياق ما يذكر من أن علماء وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا)، حين كانوا يجهزون الرحلات للفضاء الخارجي واجهتهم مشكلة كبيرة، هذه المشكلة تمثل في أن رواد الفضاء لن يستطيعوا الكتابة بالأقلام بسبب انعدام الجاذبية، بمعنى أن الحبر لن يتشال من القلم على الورق، فماذا يفعلون لحل هذه المشكلة؟

قام العلماء ببحوث استمرت عشر سنوات، وتم إنفاق أكثر من اثني عشر مليون دولار من أجل تطوير قلم جاف تمكن الكتابة به في حالة انعدام الجاذبية، كما تمكن الكتابة به أيضاً على سطح أملس مثل (الكريستال)، وحين واجه الروس هذه المشكلة حلوها بطريقة بسيطة جداً، ومن غير إنفاق أي مال، إنهم قرروا استخدام

## أفلام الرصاص بدلاً من أفلام الحر!

مثال آخر على تخطي الحلول الناجزة يأتينا هذه المرة من اليابان؛ فقد كان هناك مصنع عملاق لصناعة الصابون، وحدث أن وقع اختلاط كبير بين الصناديق المعبأة والصناديق الفارغة، فماذا فعلوا لحل تلك المشكلة؟ إنهم قاموا بصناعة جهاز يعمل بالأشعة السينية متخصص بالكشف عن الصابون بداخل الصناديق، ووضعوه أمام خط خروج الصناديق بقسم التسليم، وعينوا عمالاً جدّاً، مهمتهم إبعاد الصناديق الفارغة التي كشفها الجهاز. بعد مدة حدثت المشكلة نفسها في مصنع للصابون أصغر من المصنع الأول، فما كان من القائمين على المصنع إلا أن ابتكروا بدلاً للأشعة السينية، هو عبارة عن مروحة إلكترونية، قاموا بضبط قوة دورانها بما يناسب وزن الصندوق الفارغ، وتم توجيهها إلى خط خروج الصناديق بقسم التسليم؛ حيث يسقط الصندوق الفارغ من فوق السير من تلقاء نفسه بفعل اندفاع الهواء. إنه حل أقل تكلفة، وأيسر، بسبب وجود عقل مبدع. في الهند تعمل إحدى شركات الحاسوب الآلي على تخطي النماذج الحاسوية السائدة، والتي يصعب اقتناصها على كثير من أبناء القراء في العالم، وهذا التخطي سوف يتجسد في حاسوب آلي بسيط يلبي الكثير من حاجات طلاب المدارس، ولا يتجاوز ثمنه خمسة عشر دولاراً!! هل نستطيع إذن القول: إن كل واحد منا يحمل فوق كتفيه منجماً لأنذكار لا تُقدّر بشئ؟ نعم ولا شك، لكن بشرط أن ندخل إلى ذلك النجم ونبداً في الاستفادة منه.

### ٦ - التفكير والعواطف:

الإنسان وحدة واحدة، ولكن كثيراً ما نجد أنفسنا مضطرين لتجزئته إلى أجزاء مختلفة بغية تسهيل الفهم، وإذا كان للجانب الروحي والنفسي تأثير في الجانب الجسمي، وكان للجانب الجسمي تأثير في الجانب الروحي والنفسي، فإن تبادل التأثير بين الجانب العقلي والعاطفي كائن من باب أولى.

العواطف والأحساس تنسم بالغوصى وبالغموض والقليل من العقلانية والمنطقية؛ فللقلب حين يحب ويغضض ويفرح ويحزن... أسبابه التي لا يحتاج إلى الموافقة عليها من عقل أو خبرة أو تجربة.. وأعتقد أن من المهم لنا ونحن نحاول تكوين عقلية راشدة

وناضجة أن نحاول التعرف على طبيعة العلاقة التي تربط أفكارنا بعواطفنا؛ لأننا من غير الوعي بهذه العلاقة لا نعرف مدى صواب آية التفكير والمحاكمة العقلية لدينا ولعلني أشير إلى ذلك عبر النقاط الآتية:

أ - إذا تساءلنا عن المكمن الذي يمكن فيه الجوهر الإنساني: هل هو الفكر أو العواطف والمشاعر؟ فإني لا أتردد في القول: إن عواطفنا وأحاسينا هي التي تشكل البنية العميقية لنا؛ فالإنسان يكون إنساناً ليس على مقدار تفكيره، ولكن على مقدار مشاعره وعواطفه؛ وعلى الصعيد العملي كثيراً ما يكون من الصعب أن نفكر أولاً، ثم نشعر، ومن المؤسف أن كثيراً من الناس الأذكياء يصدرون حكمًا فوريًا بناءً على مشاعرهم، وبعد ذلك يحاولون استخدام ذكائهم في توسيع ذلك الحكم ودعمه، ويدركون في هذا السياق أن رجلاً كان يقود سيارته، فإذا بأمرأة مطروحة أرضًا فنزل الرجل من سيارته ليسعفها، وجاءت بعده سيارة، فنزل السائق وضربه ظنًا منه أنه هو الذي صدم المرأة. السائق خضع لشعوره، وتصرف تجاهوًّا معه دون أن يحاول معرفة الشخص الذي صدم المرأة فعلاً. المشاعر كثيراً ما تكون صادقة، ولكن ليست على حق دائمًا، فنحن نشعر في حدود إدراكنا، وبما أن إدراكنا محدود، فإن مشاعرنا قد تكون مبنية على معطى ناقص وحسير. ولا بد من الإشارة هنا إلى شيء آخر، هو أن العواطف والمشاعر ميالة إلى التطرف؛ فنحن قد نحب شخصًا أو شيئًا حتى إننا لا نتصور كيف تستمر حياتنا من غيره، وبعد مدة نتصرف عنه، حتى إننا لنعجب من تعلقنا به في السابق، ومن هنا جاء إرشاده عليه السلام وتوصيته لنا بالاعتدال في حالتي الحب والبغض حيث يقول: «أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغرضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما» <sup>(١)</sup>.

ب - حين نعمل عقولنا من أجل إنتاج بعض الأفكار، فإنها تتفاعل مع ما نراه أو نسمعه أو مع المعلومات التي نحصل عليها، أو مع ما لدينا من خبرات مختبرنا، وحين نحصل على فكرة حول شيء ما فإن الفكرة التي نحصل عليها تشير من مشاعرنا وعواطفنا ما يتناسب معها، وهذا يعني أن الأفكار تولد المشاعر وتوجهها، كما أنها تغيرها وتطفئها أيضًا، والحقيقة أن الشواهد على هذا أكثر من أن تمحى، ولدى كل

(١) حديث صحيح رواه الترمذى وغيره.

واحد مِنْ تجارب ثرية في هذا الشأن، ومع هذا فلا بأس بعرض بعض الأمثلة:

- حين تrepid دولة مستكيرة ضرب شخص أو دولة أو مصالح جهة من الجهات، فإنها تمهد لذلك بفتح سجلاته وتوجيه الأنظار إليه، وهم بالطبع لا يقرؤون ولا ينشرون الحسنات والإنجازات، وإنما السلبيات والفضائح، ويسيّرون لذلك آتهم الإعلامية الضخمة ذات الوسائل المعددة: في كل يوم خبر عن الفساد والرشوة، أو عن انتهاك حقوق الإنسان، أو البذخ والترف في الإنفاق، أو عن الجروح والمرض بسبب السياسات الغبية.... والهدف من ذلك واحد رسم صورة ذهنية قائمة لذلك المستهدف، وترسيخ تلك الصورة يستمر وقتاً طويلاً، والغاية من وراء كل ذلك هي حرمان من يستهدفونه من أي نوع من مشاعر المؤازرة والتعاطف؛ فهو شرير أو (محور من محاور الشر)، ولهذا فإنه يستحق كل ما يمكن أن يحل به من قتل وتشريد ونهب وحصار... وقد تزعمت الولايات المتحدة الغرب في حملات إعلامية عدّة ضد العديد من الأشخاص والدول وحققت نجاحات لا يستهان بها.

- ركب رجل في قطار ومعه طفلان، وقد كانت حركة الطفلين داخل العربة مزعجة لكثير من الركاب، فاستنكروا ذلك، وطلبو من الأب أن يتحمل مسؤوليته، ويضبط أولاده، وكان جواب الأب عبارة عن دمعة حزى نفرت من عينه حين قال: توفيت والدة الطفلين قبل ساعتين من الآن، ولا أستطيع في هذا الظرف العصيّ أن أضغط عليهم. هنا حدث تغير مفاجئ في موقف الركاب؛ حيث صاروا يتسابقون إلى إكرام الطفلين، وملاءعتهما، وأحاطوهما بالكثير الكثير من الحنان والرعاية والاهتمام. لماذا كل هذا؟ إن ما سمعوه من الأب محا مشاعر الضيق التي كانت لديهم تجاه الطفلين، وأحلّ محلها مشاعر من نوع آخر. إن الواحد منا تتباه مشاعر الأسى والحزن حين يفكر في موت أحد الأعزاء، أو فقدان عمله، أو الفشل في تحقيق هدف شخصي مهم. وهو يشعر بالغضب حين يفكر في الاستغلال، أو العداوان، أو الظلم الذي تعرض له من قبل جهة من الجهات أو شخص من الأشخاص، وهو يشعر بالنقض وضعف الكفاءة حين يقارن نفسه بالزملاء والأصدقاء، وتنتهي به المقارنة إلى الاعتقاد بأنه ليس ناجحاً أو منتفقاً، ولا يملك شيئاً خاصاً يمتاز به على غيره... ما الذي يعني هذا؟ إنه يعني شيئاً مهماً، هو أن نحذر كل الحذر من الأفكار والمفاهيم والتصورات

الخاطئة والبائسة والمحبطة والمشوهة، فهي قادرة دائمًا على جعل مشاعرنا تتجه الوجهة الخاطئة، أو تكون سوداوية تغدر حياتنا، وتسلينا الطمأنينة والهناء وليس هذا السياق هو الموضوع المناسب لشرح ذلك.

ج - كما أن الأفكار تثير المشاعر، وتطعّها، وتغير اتجاهها، فإن المشاعر أيضًا تؤثر في الأفكار تأثيرًا لا يستهان به، وقد أكدت بعض الدراسات الحديثة على هذا الصعيد أن النظومة الوجدانية لدى الإنسان مقدمة ومركبة وشديدة المقاومة للتغيير، وهي تحدد معالم شخصية الإنسان منذ وقت مبكر، وأكّدت تلك الدراسات أن عدد الألياف العصبية المتوجهة من المراكز الوجدانية في المخ إلى المراكز المنطقية، يفوق كثيراً التي تسير في الاتجاه المعاكس، وهذا يعني أن تأثير الانفعال والوجودان في السلوك والتعليم والمحاكمة العقلية يفوق كثيراً تأثير الأفكار في المشاعر، ويمكن لنا الإشارة في هذا الإطار إلى الأمور التالية:

- تقوم العواطف بترتيب الأولويات الفكرية، وتوجه انتباها أكثر فأكثر للمعلومات الأكثر أهمية، وهكذا نجد أن الناس الذين طغى عليهم حب المال وجمعه يفكرون في الليل والنهار في استنباط طرق جديدة للربح وعقد الصفقات الناجحة، كما أنهما يهتمون بتحليل الأخبار المالية، ويطالعون الصفحات الاقتصادية في الجرائد والمجلات، ويحضرون بعض الدورات التدريبية التي تساعدهم في الحصول على عقود جيدة، ولكن في هذا السياق أن تخيل باحثاً في علم الأورام أصيب ولده الوحيد بورم خبيث؛ كيف ستدعوه شفنته على ولده إلى تركيز البحث في نوعية الورم الذي أصيب به ابنه وإلى مضاعفة عمله في سباق مع الزمن.

- تؤثر العواطف - ولا سيما المتأجج منها - في الأحكام التي تصدرها على الأشخاص والأشياء والأحداث، ونحن في حالة الحب والعاطف لا نكاد نرى سوى الإيجابيات والمحاسن، وفي حالة النفور والكره لا نكاد نرى سوى السلبيات والمعائب، والظاهر أن العاطفة تجعل من نفسها ما يشبه الغشاء أمام عيون العقل، من هنا حذرنا الله تعالى - من أن يحملنا بعض الناس على الجور في الأحكام التي تُصدرها عليهم، حيث يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُوْنُوا فَوَّيْنِكُلَّهُ شَهَدَهُ إِلَيْقُسْطِيْلَهُ وَلَا يَجْرِيْنَكُمْ شَنَقَانُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَقْدِلُوا أَعْدَلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَأَنَّقُوا اللَّهُ إِلَهٌ﴾

الله حَبِّرُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ [المائدة: ٨] أي لا يحملنكم بعض قوم على ترك العدل فيهم. ومسألة تأثير العواطف في إصدار الأحكام معروفة في كل الثقافات الحية، وهي جزء من التجربة الإنسانية، وما يروى عن العرب في المثل: (حبك الشيء يعمي ويصم) <sup>(١)</sup>. إن الذي يسترسل في اتباع هواه لا يصر قبيح أفعال من استرسل في حبه، ولا يستمع إلى نهي من ينصحه في ترك مصاحبة. وما يروى عن الإمام الشافعي قوله:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة      كما أن عين السخط تُبدي المساويا

ويقول أحدهم:

إذا شئت أن تلقى المحسن كلها      ففي وجه من تهوى جميع المحسن  
وحين قيل لجميل بشارة: إن من استغرقك حبها ليست حسناء؛ بل إنها تذكر  
بالسوداد قال:

أحب لحبها السودان حتى      أحب لحبها سود الكلاب

د - العواطف - كما أشرنا - ميالة إلى التقلب، على مستوى الاتجاه وعلى مستوى الشدة والخمود، وهذا التقلب موجود لدى كل الناس بدرجات متفاوتة، وقد تبين أنه يؤثر أيضاً في اتجاهاتنا الفكرية؛ حيث إن من الملموس أن الذين لديهم نوع من الجمود العاطفي تكون عقلياتهم أقرب إلى التصلب - على حين أن الحيوية العاطفية تبعث من يتمتع بها على تقبل بعض وجهات النظر المخالفة لمعتقداته. ومن المعروف أن إحساس الإنسان بالمرح والسعادة يساعد له على الوصول إلى أفكار جديدة ومبدعة، كما أن أولئك الذين يفكرون وهم في حالة يأس وإحباط أو في حالة إرهاق أو في حالة خوف ينحو نحو إنتاج أفكار مطبوعة بطابع الشاؤم والسوداوية.

إن الذي تستفيد منه هذه الملاحظات، هو إخضاع مشاعرنا قدر الإمكان للحكم العقلي، وإقامة نوع من الرقابة المستمرة عليها، ولا تنسى في هذا السياق ما للمعرفة من تأثير جوهري في إرشاد العواطف؛ فنحن حين لا نملك القدر المطلوب من المعلومات نتعاطف حيث لا ينبغي التعاطف، وننفر حيث لا معنى للنفور، وهذا يجعل أحکامنا أيضاً من غير أساس صحيح.

(١) أورد بعض المحدثين هذا المثل بين الأحاديث المرفوعة وحكموا عليه بالضعف، وبعضهم قال: هو موضوع.

## ٧ - التفكير واللغة:

نعم الإيمان ونعم العقل ونعم الكلام، يعمم ثلاث تتوج بنعم الحال في علينا، وبهذه النعم الثلاث يصبح للحياة معنى، ومتناز عن سائر المخلوقات.

علاقة التفكير باللغة لا تخلو من شيء من الغموض، وهناك الكثير من الاختلاف والتساؤل: هل التفكير سابق على اللغة أو اللغة سابقة على التفكير؟ هل اللغة متصلة بالتفكير أو هي منفصلة عنه؟ تساؤلات كثيرة وإجابات قابلة للنقاش والطعن... وما أني لا أنزع في هذا الكتاب مترئًا فلسفياً، فلندع التعليمات والخلافات جانبًا، ولتحدث عما هو عملي و قريب الفهم:

١ - من السهل دائمًا أن نقول: إن اللغة هي مرآة العقل والقلب، ولهذا كان سocrates يقول: «تكلّم حتى أراك» وكانت العرب تقول: «تكلموا تعرّفوا» اللغة هي أداة التعبير الأساسية عما نريد التعبير عنه، وهذا ما كان القدماء يرونونه بوضوح تام، وقد عرف ابن جني اللغة بأنها «أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»، وهذه الوظيفة للغة موضع اتفاق، لكن لا بد من القول: إن النظام اللغوي هو نظام نام على نحو مستمر؛ ولهذا فإن سيطرتنا على اللغة تكون دائمًا غير كاملة ووعينا بمفرداتها وأساليبها ودلائلها ورمزياتها يظل ناقصاً، ورحم الله الإمام الشافعي إذ يقول: «لا يحيط بلغة العرب إلا نبي»، وهذا في الحقيقة ليس خاصاً بلغة العرب؛ فاللغات الحية كلها عصية على الخضوع الكامل للأغرين بها، وهذا يعني أننا سنظل نعاني من قصور تعبيراتنا عن أفكارنا ومشاعرنا، وسنظل نعاني في أحيان كثيرة من قصور فهمنا لما نسمع ونقرأ؛ ولذا فإن سوء الفهم شيء رائج ومتشر في كل مكان، وهذا يتطلب من المفكر أن يحاول توضيح طروحاته ومقولاته، كما يتطلب من كل واحد منا أن يحاول التأكد من أنه فهم ما قرأه وسمعه على نحو جيد قبل برمجته في عقله أو إصدار حكم عليه.

إن اللغة تمارس نوعاً من العنف ضدنا، فنحن أسرى لنظمها وإملاءاتها، فإذا حين أود أن أعبر عن إعجابي بذكاء شخص ما - مثلاً - أجد نفسي مضطراً لاستخدام الكلمات التي تُستخدم عادة في الثناء واستخدام الأساليب المعتادة في ذلك، وإذا قلت ما هو شائع، ظهر كلامي وكأنه مكرور وخالي من الإبداع، وإذا أسرفت في المديح، فربما ظن بعض الناس ذلك أنه مجاملة زائدة، وإذا اقصدت في الثناء فسنجد من

يقول: إنه أثني من غير رغبة، أو لم يعط ما أثني عليه حقه... اللغة فضاء واسع وملوء بالرموز والمعاني والدلالات، وسوف نجد أنفسنا تائبين فيه ما لم نحاول تحسين مستوى استخدامنا للغة بجدية وثابرة على مستوى التعبير وعلى مستوى الفهم والتفسير.

٢ - اللغة وسيلة لتخزين الأفكار والمفاهيم والمعلومات ووسيلة لاسترجاعها من الذاكرة أيضاً. إننا حين نودع ذاكرتنا ما امتلكناه من معانٍ نودعه مجسداً في كلمات وجمل وتعابيرات وقصائد وأمثال وحكم، فأننا إذا أردت أن تذكر ما جرى بيني وبين زيد من الناس في المجلس الفلاني من تبادل للأفكار والمشاعر، أحاروّل أن تذكر الكلمات والتعابيرات التي سمعتها منه، والتي قلتها له، وهذا طبيعي؛ فاللغة هي التي أتاحت لنا فرصة الوعي بأفكارنا، ولو لاها لكان ما في عقولنا عبارة عن خليط من التهويّات العامضة والمحظّة. ومن الواضح أنه كلما رُفقتنا لصياغة أفكارنا في تعابيرات جميلة ورصينة ومبدعة كان اختيارنا لها واسترجاعنا إليها يتم بطريقة أسهل، وهكذا فإن الحكم والأمثال والمقولات الأخاذة والمبتكرة تظل على طرف الألسنة وفي متناول اليد، حين يكون التعبير ضعيفاً أو متنافراً، فإن الذي يتظاهر هو الغوص في أعماق الذاكرة ثم الضياع الأبدى. ومن وجه آخر فإن منطقية الأفكار وترابطها يجعل استدعاءها من الذاكرة أيسر وأسهل، كما أنها كلما كانا أكثر انتباها وحضوراً وقت اختيارها صار الاسترجاع أسهل، والعكس صحيح.

٣ - اللغة أداة لصنع الأفكار، إن الفكرة تتسع - ولا شك - بدرجة من الاستقلال النسبي عن اللغة، وذلك حين تكون في طور التخمر والتكون الأولي، وهذا بسبب ما جبنا الله به من نعمة الخيال الذي يحرك القوى الذهنية نحوفهم المدرّكات المختلفة، لكن الأفكار في هذه المرحلة - مرحلة التخمر - تكون جنинية غير واضحة الملامح، أو كما يقول (دي سوسيير): عبارة عن كتلة من الضباب لا شيء فيها يبدو متميّزاً. وقد أثبت علم نفس الطفل أن الأطفال يتعلمون التفكير في الوقت الذي يعلمون فيه اللغة، إن الطفل في شهوره الأولى يرى العالم من حوله لكنه لا يصر شيئاً، حين يبدأ باكتساب الكلمات يبدأ العالم أمامه بالتمايز، ويبدأ عقله بالاشغال. ومن الملاحظ أن الواحد منا حين تلتسع في ذهنه فكرة ما، فإنه يبحث عن كلمات يعبر بها عنها، والحقيقة أنه حينئذ لا يبحث عن كلمات، لكن يبحث في

الفكرة نفسها لشعوره أنها لم تبلغ حد البلورة والتوضّج، وتكون الكلمات والجمل هي الأدوات التي يستخدمها الدماغ في عملية البحث هذه. وقد كان ( هيجل ) من أكثر الفلاسفة الذين اهتموا ببحث العلاقة بين اللغة والتفكير، وهو يرى أن التفكير بدون كلمات محاولة عديمة المعنى؛ لأن الكلمة تمنع الفكرة وجودها الأسمى والأصلح.  
ماذا يعني تقرير هذه المسألة؟

إنه يعني الآتي:

أ - إذا كان توهج الفكر مرتبطاً إلى هذا الحد باللغة التي نتحدث ونكتب بها، فإن هذا يعني أن علينا أن نعطي لحصيلتنا اللغوية الشخصية المزيد من الاهتمام؛ فالتمكن من اللغة يستطيع أن يصل إلى أفكار دقيقة ومنظمة؛ بل إن المتمكن في اللغة يستطيع أن يبني اللغة نفسها من خلال إبداعه لأساليب واستخدامات جديدة، ومن خلال إثرائه الصور والتشبيهات التداولية.

ب - الحفاظ على العربية ورفدها بالجديد من مسوّليات المفكرين والمشففين عامة، وذلك من خلال محاولة الارتفاع والتقدّم في استخدام اللغة والإصرار على نقاطها من العامة والكلمات والأساليب الأعجمية.

ج - في بعض الأحيان نشّبه الفكر بالروح ونشّبه اللغة بالجسم، وهذا التشبيه صحيح، ولكننا نعرف أن الروح مهما كانت متونة ومنطلقة تظل في النهاية محدودة بحدود الجسم، وهكذا فإن اللغة ترسم لتفكيرنا حدوداً لا يستطيع تجاوزها، وهذا يعني أننا لا نستطيع أن نتّبع من الأفكار إلا ما تسمح به اللغة التي نستخدمها، وإن درجة خصوصية الفكر تتحدد بمستوى نمو اللغة؛ ومن هنا فإن الشخص الذكي جداً لو فكر في مسألة من المسائل، وكان أمياً، أو كانت مهاراته اللغوية ضعيفة، فإنه لا يستطيع الالتفاد إلى حلٍ معتقد لما يفكر فيه بسبب قصور معرفته باللغة، وإذا فرضنا أنه اهتدى إلى حلٍ عظيم فإنه لا يستطيع التعبير عنه، وهذا يشكل خسارة كبيرة جداً للشخص ولأمته، وهكذا نجد أن الجهل باللغة أكبر قاتل للموهبة؛ لأنه يُفقرها، بل يجعلها أشبه بالعدم.

د - إن المرء حين يفكّر في واقعه الشخصي، أو يفكّر في واقع مجتمعه وأمته، فإنه في الحقيقة يقوم باستحضار ذلك الواقع من خلال الخيال ومن خلال اللغة، ونحن حين نستحضر الواقع، نستحضر أحدهاته وأشخاصه وأشياءه، وما يجري فيه من تطورات

متلاحقة، وإن اللغة هي التي تساعدنا على تنظيم كل ذلك، وجعله في وحدة متماسكة قابلة لفهم والتفسير، وحين تكون الحصيلة اللغوية لدى من يفكر في الواقع ضعيفة فإن الواقع يبدو له في صورة ظواهر مشتلة ملفوفة بظلام دامس، وحيثند فإن رؤيته لذلك الواقع تكون مشوهة ومضطربة، وتكون أحکامه المبنية على تلك النظرة كذلك.

كيف سارى الحرية في مجتمعي وأنا لا أعرف ماذا تعني الحرية؟ وكيف سأحكم على مجتمعي بأنه صالح وملائم بتعاليم الإسلام، وأنا لا أستطيع تعريف الصلاح، ولا أعرف حدود مدلولاته؟

من هنا نقول: إن اللغة ليست عبارة عن رموز ومواصفات فنية لقدرتنا على النطق، وإنما هي أسلوب وتصور وطريقة نظر إلى الحياة والأحياء، وعلى مقدار مهارتنا وحذفنا بها تتحسن منهجمية تفكيرنا.

هـ - التمكّن من اللغة يتطلّب معرفة نحوها وصرفها، ويتطلّب معرفة معاني عدد كبير من الألفاظها، إن المفكّر قد يحتاج إلى معرفة معاني عشرين أو ثلاثين ألف كلمة، على حين أن الإنسان العادي لا يستخدم أكثر من خمسة آلاف إلى ستة آلاف كلمة. إن القراءة في كتب المفكّرين وكبار الروائيين والأدباء والقراءة في دواوين الشعراء العظام... إن كل ذلك يثري معرفتنا باللغة، ويزيد في سيطرتنا عليها، وإن على الشباب الطامحين لأن يكونوا مفكّرين كباراً أن يجعلوا من اكتساب المهارات اللغوية شيئاً مهماً في تكوينهم المعرفي.

#### ٨ - التفكير والعقل الجمعي:

يولد الطفل وهو لا يملك أي شيء من أي نوع ولا سيما على صعيد المعارف والمشاعر، كما قال - سبحانه - ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [الحل: ٧٨]. المجتمع هو الذي يمنحك أسماءنا التي تحملها، وهو الذي يعرّفنا على ذواتنا، وينحنا النظارات التي نرى بها العالم، ولهذا فإن سلطته علينا أكبر من أن توصف.

للمجتمع تصوراته ومفاهيمه وعاداته وتقاليده وانطباعاته وتقسيماته الخاصة للأشياء، والتي تراكمت عبر الكثير من السنين، وهي على درجة من الرسوخ تجعلها تشكل

ضمير الفرد ووجوده وعقله وروحه التي تسرى في كل كياناته، ومن اللافت أن كل ذلك قد تكون بطريقة غير واعية، ويصعب جدًا تحديد مصادر ذلك التكوين، وتحديد المسؤولين عنه.

**السؤال الذي يطرح نفسه أولاً هو: ما الطبيعة العامة للعقل الجمعي؟**

يمكن أن نذكر من طبيعة العقل الجمسي الآتي:

١ - مجتمعاتنا العربية والإسلامية تعاني معاناة شديدة من انخفاض مستوى التعليم، ومن وجود أعداد كبيرة من الأئمين، الذين تزيد نسبتهم في المتوسط على (٣٠٪)، وهذا يعني أن معظم الناس لا يستطيعون فهم تركيبة العقل الجمسي الذي يبرم عقولهم، ولا معرفة ما فيه من قصور ومن خلل، ولهذا فإن انصياعهم له سيكون شديداً، وإنما نقول هذا لأن عقل الفرد يقيم نوعاً من الحوار والجدال مع عقل المجموع، وحين تكون الإمكانيات العلمية محدودة لدى الأفراد، فإن ذلك الحوار يضعف إلى حد العدم، وهذا ما نشاهده في كل أنحاء العالم؛ حيث نجد أن الناس في المجتمعات المتعلمة أقل رضوخاً لما هو سائد من أفكار ومقولات وعادات، على حين أنهم في المجتمعات التي تغلب عليها الأممية وضاحلة المعرفة، يستكينون لما هو عام ويسطير، ويُظهرون نوعاً من المباهاة بتلك الاستكانة. النتيجة لهذا وذلك تمثل في تقدم المجتمع وجموده؛ فحين يكون التفاوت بين وعي الفرد ووعي مجتمعه واضحًا وقوياً، فإن درجة التحرر والتغير تصبح أكبر؛ لأن تأثير الأفراد حينئذ يكون أعظم، ويستجيب العقل الجمسي لهم أكثر. أما حين يقل التفاوت فإن العقل الجمسي يصاب بالجمود والتكتل، وتزداد بذلك مساهمه في تكريس التخلف.

٢ - يعاني العقل الجمسي - على نحو عام - من السطحية وانخفاض مستوى الفهم، كما يعاني من نوع من المجافاة للتحليل والتفسير والتفلسف، ولن نعرف على وجه الدقة الأسباب الجوهرية لذلك، لكن ربما كان حرص العقل الجمسي والثقافة الشعبية على التلاحم والتضامن الأهلي - هو الذي يجعل الناس يسيرون بسير الأضعف فيهم، ويختفرون مستوى الفهم لكل الأمور، ويُظهرون الكثير من المراءاة والمراءة والمجاملة، مع التقليل من النقد لمفردات العقل الجمسي، وكل ذلك من أجل تعزيز الشعور التضامني والظهور بمظهر التوحد. ومن الملاحظ في هذا السياق أن

الأفكار والمفاهيم والمقولات الأكثر سهولة وسطحية هي التي تظفر بنصيب الأسد من الانتشار والتعميم والتداول، مما يكبح أي فكر عميق لدى الأفراد، ويدفع بالصفوة إلى العمل في مجال خاص ومحدود. هذا يعني أن التيار العريض في المجتمع ليس هو التيار الأكبر علمًا أو فهمًا أو صلحاً...، ويمكن أن نستشف ذلك من قول الله تعالى - ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَضْتَ يَمْتَزِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]. وقد أشار القرآن الكريم في كثير من الموضع إلى أن أكثر الناس لا يعلمون ولا يشكرون ولا يعقلون، كما أن أكثرهم للحق كارهون، وعنه معرضون..

٣ - موقف العقل الجمعي من العقل الفردي قائم في معظم الأحيان على الاستحواذ وعلى الخوف من التفلت والابتعاد، وهو بذلك يشبه الأم الرؤوم التي لم تنجب سوى ولد واحد، فهي متعلقة به إلى حد الهوس والوله، وتعتبر كل من يقترب منه منافسا لها بوجه من الوجه، وكلما كانت سيطرة الجهل على المجتمع أشد كان خوف العقل الجمعي من شذوذ العقل الفردي عنه أكبر وأعظم؛ ولهذا نجد أن كثيراً من الناس عندنا لا يرتأون للجديد، ولا يحبون من أحد أن يجرب، أو يحاول شيئاً غير مأثور، وإذا حاول أحدهم ذلك انتظروا إخفاقه حتى يقدموا له النصيحة بعدم التكرار، وكل هذا من أجل استمرار التشابه وبقاء كل شيء على حاله!.

#### أمثلة على توجهات العقل الجماعي لدينا:

أ - يسيطر على عقلكما الجماعي أن العرب يخضعون لمؤامرة كبيرة من قبل العالم العربي على وجه الخصوص، ويتابع هذا الاعتقاد بأن الغرب لو تزكنا وشأننا لكننا بخير، وتخلصنا من الفرق والخلاف، ومع أنه ليس بوسع أحد أن ينكر أن الغرب يتحرك عبر العالم كله لتحقيق مصالحه - والتي قد تتنافى مع مصالح غيره - وكما أنه ليس في وسع أحد أن ينكر أن الغرب قد ألحق بنا الكثير من الأضرار إلا أن من الواضح أن بداية المشكلة كانت في ضعفنا، وضعفنا هو الذي أعطى المجال للغرب كي يتدخل في شؤوننا، ويعوق مسيرتنا؛ ولهذا فالحل لن يكون في رفع الغرب يده عننا لأن هذا غير وارد، وإنما يكون في تخلصنا من القصور الذاتي والأسباب الداخلية للخلاف.

ب - يرى معظم الناس لدينا أن غير المسلمين في العالم يد واحدة على المسلمين، ويلخصون هذا بقولهم: «الكفر ملة واحدة»، ويررون كذلك أن غير المسلمين يمكن

أن يختلفوا في كل شيء إلا في عداوتنا والإساءة إلينا...

أهل الرأي والخبرة والعلم لا يرون هذا، ويختلفون مع العقل الجماعي في هذا الطرح؛ حيث إن معظم الدول اليوم لا تقيم علاقتها مع بعضها على أساس عقدي، وإنما على أساس المصالح، ولنا أن نقول: إن الغرب المسيحي أقرب إلينا على مستوى العقيدة - وكذلك اليهود - من اليابان والصين، لكن الوضع يختلف كثيراً على الصعيد السياسي، وحين وقع العدوان الإسرائيلي على غزة قطعت ( فنزويلا ) علاقاتها مع اليهود في فلسطين، على حين كان موقف الغرب مختلفاً جدًا.

ج - العقل الجماعي المسيطر على الجماعات الإسلامية يميل إلى منح نوع من القداسة للعمل الجماعي، ولهذا فإن معظم أفراد تلك الجماعات ينظرون باستخفاف لأى جهد دعوي يبذله أفراد، وهذا الموقف لا يقوم على قراءة الواقع، وإنما ينطلق من نظرتهم للعمل الجماعي على أنه غاية في حد ذاته وليس وسيلة. أنا شخصياً لا أهون من شأن أي جهد جماعي على أي مستوى كان، لكنني أنظر إليه على أنه وسيلة، وشأنه كشأن كل الوسائل؛ فقد ينجح، وقد يخنق، كما أنها جميعاً نلس بقورة أن في العلماء والدعاة والمفكرين أشخاصاً تركوا في ساحات الصحوة من التأثير ما يزيد على ما تركته جماعات بأكملها.

د - في العقل الجماعي لدينا اعتقاد بأن النجاح مرادف لتفوق الإمكانيات الذهنية، وبناء على هذا ينظر معظم الناس إلى الفشل على أنه نوع من الغباء مع أن ما يترسخ اليوم في الدراسات والبحوث المتعلقة بالذكاء والنجاح، هو أن التفوق الذهني ليس سوى سبب واحد من أسباب النجاح، ومن هنا فقد ينبع الإنسان لأنه درس في جامعة ممتازة، أو لأنه أتيحت له فرصة نادرة، أو لأنه يتمتع باستقامة عالية، أو يتمتع بذكاء اجتماعي أو عاطفي غير عادي... وهذا هو التفسير المقبول لما نراه من إبداعات واختراعات عظيمة لأشخاص عاديين، لكنهم يملكون قدرة عالية على الثابتة على البحث وإجراء التجارب، ويعملون في مراكز بحثية ممتازة.

ما العمل تجاه هذا؟

لا بد للمفكر ومن يسير على طريقه أن ينظر إلى علاقة وعيه وعقليته بالعقل

الجمعي على أنها معقد من معانٍ الابلاء والاختبار؛ فالواحد منا مطالب بعلاقة متوازنة مع العقل الجماعي، وهذه العلاقة ينبغي أن تقوم على فهم تركيبة العقل الجماعي وفهم أوجه الخلل فيه، ثم البقاء على مسافة محسوبة منه؛ حيث إن تجاهله على نحو تام مشكلة تشبه مشكلة الاندماج فيه. ولعلي أشير في سياق التعامل مع العقل الجماعي إلى الأمور الآتية:

١ - ميزة المفكر كثيرة ما تجلّى في تمكّنه من بلورة وعي فردي مستقل، يمكنه من اتخاذ موقف متمايز مع الموقف الاجتماعي العام، وهذا التمايز هو الأساس الذي تقوم عليه الرؤية النقدية للمجتمع، وقد دعا القرآن الكريم إلى شيء من هذا التمايز حين قال: ﴿فَلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلّهِ مُتَّقِينَ وَفَرَدَى ثُمَّ لَنْفَرَكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [س:٤٦] هذه دعوة من الله تعالى - لمن يريد الوصول إلى الحقيقة بأن ينعزل بوعيه وجسمه عن الوسط الذي يعيش فيه وعن أفكاره ومفاهيمه ورواسبه ومقولاته، ثم يقوم بالتفكير والتأمل ليرى الأشياء بعيداً عن سلطة الجماهير وسلطة العقل الجماعي القاهر، ولا يأس أن ينعزل اثنان عن ذلك الوسط من أجل التحاوار وتلقيح الأفكار في سبيل استبانته الحق وفهم الأمور على ما هي عليه. هذه العملية ليست سهلة، إنها أشبه بانفصال الرضيع عن أمه؛ لهذا فإنها تحتاج إلى طاقة روحية، ويصحبها الكثير من الآلام وأحياناً الكثير من المخاطر، لكن ليس أمام المفكر من أجل تحرير فكره من سلطان العادات والتقاليد والمفاهيم الرائجة أي طريق آخر.

٢ - الخروج من صندوق البيئة لنفكّر خارجه - أمر مطلوب، وينبغي أن يصبحه في الوقت نفسه افتتاح على الخبرات العالمية، ومن الواضح كما نقول دائمًا: أن معرفة نفائص بيئتنا تتطلب مقارنتها بالبيئات الأخرى، إننا من خلال المقارنة نعرف ما لدينا من أخلاق ومن عادات وتقاليد وما لدينا من تعليم وصناعة وباحث علمي...

المشكل أن بعض الناس يرفضون المقارنة؛ لأنها تضعهم أمام المرأة، فيرون عيوبهم وأنواع قصورهم، فيقومون بنوع من الالتفاف والتشويش: إذا قلت: لدى اليابانيين جدية منقطعة النظير جاء من يقول لك: إنهم جادون حتى لا يموتون من الجوع، فهم شعب من غير موارد، وهو بهذا يريد أن يقول: لا تقارن، فنحن لسنا بحاجة إلى جديتهم؛ لأن

عندنا موارد. وما درى هؤلاء أن في إفريقيا جياعاً كثيرين ولم يصنع منهم الجرع أشخاصاً جادين؛ بل إن في إفريقيا ثروات هائلة تحتاج إلى تنظيم وجهد وعلم وجدية حتى يستفيد أهلها منها، ولم نر شيئاً من ذلك عند السواد الأعظم منهم!.

وإذا قلت: زعماء اليهود تمكروا خلال نصف قرن من تجميع اليهود من أكثر من (١٢٥) دولة ليروا بهم دولة متقدمة ومزدهرة ومستقرة، ويتجروا آلات في غاية التطور.... جاء من يقول لك: لولا مساعدات الغرب لم يستطيعوا فعل أي شيء من ذلك، ونبي هؤلاء أن من المسلمين من دخل خزائنهم أضعاف أضعف ما تسلمه إسرائيل من مساعدات، ولم يصنعوا طائرات ولا صواريخ، كما أن اليهود لا يشكرون من حرب أهلية داخل كيانهم، على حين أن أكثر من دولة عربية وإسلامية منقسمة في صراعات داخلية دامية منذ سنوات طويلة....

الصدق مع الله - تعالى - ومع النفس يقتضي منا أن لا نحاول الالتفاف على المعطيات التي لا تعجبنا، بل نرضخ لها ونعقلها ونستفيد منها.

٣ - في مجتمعاتنا الإسلامية - ككل المجتمعات - قيم وعادات وتقالييد ورموزيات ومفاهيم.... بعضها قديم يعود إلى عشرات القرون وبعضها حديث يعود إلى سنوات قليلة، والوعي الجمعي يستوعب الجديد ويركم به القديم، وبعد مدة كافية يجد نفسه متخرطاً في الدفاع عنه بوصفه الناظم الجامع للحياة الاجتماعية في بعدها النفسي والعقلي والقيمي، ولا شيء في هذا، ولا كيف يمكن للناس أن يشعروا بالتضامن وبوحدة المصير وضرورة العمل المشترك...؟

لكن الشيء الذي يحتاج إلى علاج بعيد المدى هو أن العقل الجماعي لا ينظر إلى الأحكام والآداب الشرعية على أنها شيء قادم من خارج خبرته، وأنه ليس من وضع البشر، وإنما ينظر إليه على أنه جزء من الثقافة الاجتماعية العامة؛ صحيح أن بعض الناس يميز بين الوحي وبين العادات والتقاليد، لكن معظم الناس يتعاملون مع الدين على أنه جزء من ثقافتهم أو يحاولون دمجه في حياتهم العامة، مع أن مهمة الدين هي توجيه العقل العام وبناء الثقافة العامة والحكم عليها، ونحمد الله حمدًا كثيرًا أن وهبنا منهجاً واضحاً وشاملاً نستطيع من خلاله نقد العقل الجماعي وإعادة تشكيله.

على أهل الوعي والفكر القيام بأمرتين مهمتين: الأولى: هو الخروج من دائرة سيطرة

العقل الجمعي ثم الإسهام في ترشيد ذلك العقل من خلال تعريفه على ذاته ونقد اعوجاجه وإثرائه بالأداب والأخلاق الإسلامية السامية، والثاني: دفعه في اتجاه الانفتاح على الفضائل التي لدى الآخرين والاستفادة من خبراتهم وتجاربهم، وهذا هو ميدان جهاد الفكر المستثير والعلم النافع.

\*\*\*

## تنمية الإبداع

قد صار في إمكاننا اليوم أن نقول: إن الإنسان كائن مبدع؛ حيث يزداد يقيناً يوماً بعد يوم بأن الخالق قد زود كل واحد من إمكانات كافية لجعله يبدع في جانب من جوانب الحياة أو في موقف من المواقف... قد كان الناس يظلون أن الإبداع شيء مرادف للذكاء أو العبرية، وقد كانوا يظلون أن الذكاء هو شيء وهي مرتبط بتفوق ذهني غامض، وليس في يد المرء تجاهه أي حيلة؛ ولهذا فلا معنى في سبيل التمعن به لأي جهد يبذل، كل هذا قد تغير الآن؛ حيث إن من الواضح أن الإبداع في شيء أو مجال ما قد لا يتطلب أكثر من التدريب أو الترکيز، أو مجاهدة النفس أو التضحية أو الشعور بالمسؤولية... ومن هنا جاز لنا أن نتحدث عن الإبداع بوصفه شيئاً موجوداً وقابلًا للتنمية والتعزيز، وهذا يتاسب تماماً مع ما نعتقده من تكريم الله - تعالى - للإنسان، ومن اعتقادنا بحب الإنسان للحرية، والتي يشكل الإبداع واحداً من عوامل توسيع نطاقها، لكن لا بد من الإشارة هنا إلى أن الإبداع يظل عبارة عن إمكانية واستعداد كامن، وما لم يستغل الإنسان تلك الإمكانية، ويستمر ذلك الاستعداد، فإنه سيجد له متسعاً في مقابر الموهوبين الذين خرجوا من هذه الحياة دون أن يعرفوا عن مواهيبهم، ودون أن يعرف العالم عنهم أي شيء!.

إن الإبداع ليس شيئاً معقداً أو كبيراً على نحو مستمر؛ فقد تبدع امرأة في تنظيم أثاث بيتها، وقد يبدع رجل في إضفاء لمسة جمالية على علاقته بأحد أصدقائه، وقد يبدع محاضر في تقديم محاضرة مبهرة في موضوع من الموضوعات، وقد تبدع امرأة في تربية ابنتها اليتيمة، ويدفع معوق في التعامل مع إعاقته، وقد يبدع مكرور في التعامل مع كربه... .

أنا أرى أن ننظر إلى الإبداع على أنه إبداع في موقف أو في وضعية، أو في حالة من الحالات، تماماً كما نظر بعض الأصوليين إلى مسألة الاجتهداد حين فرروا وجود

( مجتهد المسألة )؛ حيث إن العالم قد يتخصص في باب من أبواب العلم، فيملك فيه أدوات الاجتهاد والترجح ويكون مقلداً في علم آخر؛ لأنه لم يعطه من العناية والدرس والتأمل والتحقيق ما يستحقه.

الإبداع هو المجيء بشيء غير مسبوق، والوصول إلى نتائج لم تكن معروفة من قبل، وصور الإبداع ومظاهره أكثر من أن تخصى - كما أشرنا - لكن مساراه الأساسية تتمثل في نقد الأفكار القديمة وتحليلها وفي تقديم أفكار حديثة وإضافة تفاصيل جديدة للمعلومات السابقة في أمر من الأمور، أو ما يمكن أن نسميه ( توسيع مدى المعرفة ) ومن المهم هنا أن ألفت النظر إلى أن الفكرة الإبداعية أو الشيء الإبداعي كثيرة ما يرتكز على إبداعات وعطاءات سابقة، لكن تكون فيه إضافة جديدة صغيرة أو كبيرة، وبما أن الإبداع عمل إنساني، وبما أن كل ما يتصل بالإنسان هو نسي - باعتبار من الاعتبارات - فإنه يمكننا القول: إن الواحد منا قد يفتقر بصورة بيانية في بيت شعرى على حين أن شخصاً آخر لا يرى فيها ذلك الإبداع الشير، ومن هنا تم إنشاء الهيئات والمنظمات التي تسجل الأرقام القياسية وبراءات الاختراع من أجل الحد من مسألة النسبة التي أشرنا إليها، وإذا كان هذا ممكناً في الأمور المادية، فإنه مستحيل في الأمور الرمزية والمعنوية، وما ذلك إلا لأن ما يجعلنا نرى الإبداع فيها ليس الخصائص المتوفرة في العمل أو الشيء البديع، وإنما ما لدينا من اعتبارات ومنظورات شخصية. لا يصبح الإنسان مفكراً بمعنى الكلمة إلا إذا كان فعلاً يمارس الإبداع، ومجدها محدد جداً، إنه صناعة الأفكار والمفاهيم الجديدة التي تفتح آفاقاً جديدة، وتدل الناس على حقوق جديدة للعمل، وتساعدهم على فهم واقعهم على نحو أفضل، ومن هنا فإن على من يسير في طريق المدعين أن يجعل من الإبداع أحد مشاغله الأساسية، عليه أن يقرأ ويتعلم ويناقش ليقول وليكتب وينظر، وعليه أن يضفي على كل ذلك مسحة إبداعية ذات نكهة شخصية.

### التغلب على المعوقات أولاً.

مشكلة الإنسان مع الأوهام التي تحول بينه وبين أن يدْعِ مشكلة قديمة جديدة، والحقيقة أن هناك الكثير من المفاهيم والمشاعر الخاطئة التي تحكم بنا في هذا الأمر، إنها أشبه بالنظارة التي نرى من خلفها الأشياء، أو المرأة التي نرى بها وجوهنا، وحين

تكون المرأة محدبة أو مقعرة، فهذا يعني أنها لا نرى وجوهنا على حقيقتها، وبؤسفني القول: إن السواد الأعظم من الناس يحتاجون إلى تغيير مراياهم! ولعلني أحاول المرور على أهم الأوهام التي تحول دون تنمية الإبداع ودون استثمار الطاقات المبدعة التي في حوزتنا، وذلك من خلال الحروف الصغيرة الآتية:

#### ١ - ضعف الثقة بالنفس:

إن ضعف الثقة بالنفس باب كبير من أبواب الشرور التي نفتحها على أنفسنا؛ لأن الذي لا يثق بقدراته ومواهبه يحجم عن تحمل المسؤوليات، ويخشى من القيام بأي مبادرة أو مخاطرة، ولهذا فإنه يفضل أن يقى في الظل وفي المقاعد الخلفية... ضعف الثقة بالنفس يجعل المرء يتبع عن تجربة أي شيء جديد؛ وذلك خوفاً من الإخفاق ولوم الرؤساء والزملاء وشماتة الأعداء.. ومصدر ضعف الثقة بالنفس قد يكون التجارب الفاشلة التي خاضها الإنسان في حياته؛ فالذى عقد عشر صفحات تجارية، وخسر فيها جميعاً، والذي حاول أن ينظم قصيدة، أو يكتب كتاباً أو يصلح بين زوجين... محاولات كثيرة، وكانت عادة كل محاولة أسوأ من الأخرى... هؤلاء وأشباههم كثيراً ما ينتهيون إلى انطباع واحد: أنا غبي، أنا فاشل، أنا لا أصلح لأي شيء، أنا غير محظوظ، لو عثرت على وظيفة آمنة لكان خيراً لي من الأعمال الحرة... قليلاً أولئك الذين يبحثون في أسباب إخفاقهم، وقليلون أولئك الذين يعتقدون أن الإخفاق في مجال من المجالات لا يعني نهاية العالم، وأن عليهم تجربة شيء جديد أو بذل الجهد في مجال آخر على حد قول الشاعر:

#### إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاؤه إلى ما تستطيع

الخبر السار في هذا الشأن هو ما كان مدركاً من قبل لدى كثير من الناس، لكن لم يكن مبلواً واضحاً بالقدر الكافي، وهو ما انطوت عليه نظرية (الذكاءات المتعددة) والتي نشرها (هوارد جاردن) في كتابه (أطر العقل) منذ نحو ربع قرن من الآن، وقد كان الرجل يعتقد أن الإنسان يمتلك سبعة أنواع من الذكاءات، ثم أجرى عليها بعض التعديلات ليصل بها إلى تسعه أو عشرة، ومن تلك الذكاءات:

- الذكاء اللغوي، ويعنى حساسية المرء نحو اللغة والقدرة العالية على تعلمها واستخدامها...

- الذكاء المنطقي الرياضي، ويعني امتلاك القدرة على تحليل المشكلات منطقياً وتنفيذ العمليات الرياضية، كما يعني القدرة على اكتشاف الأنماط والاستنتاج والتفكير المنطقي.
- الذكاء الاجتماعي، وهو يعني القدرة على فهم الآخرين ومعرفة رغباتهم، مما يعني العمل معهم بكفاءة عالية والتأثير فيهم.
- الذكاء الشخصي الذاتي، الذي يمكن صاحبه من فهم ذاته وفهم مشاعره ومخاوفه ودوافعه الشخصية.
- الذكاء العاطفي، والذي يعني إدارة العواطف المختلفة وتوجيهها والتحرر من إعوائتها ...

الرسالة التي تبعث بها إلينا هذه النظرية هي: لدى كل واحد منا فرصة لأن يبدع في مجال من المجالات؛ فالمحرومون من كل أنواع الذكاء قليلون جداً، والذين فازوا بكل أنواعه أيضاً قليلون جداً. الثقة بالنفس والإيمان بأن الله - تعالى - يعين ويجب السائلين، ولا يضيع أجر العاملين، كما لا يحرم أحداً من ثمار جهده.... هذه المعاني أساسية في اجتياح السدود التي تحول يقظتنا وبين أن نبدع في كثير من المجالات.

## ٢ - الإسراع في تقبل الأفكار:

هذا عائق كبير من عوائق الإبداع؛ حيث إن معظم الناس لا يميلون إلى بذل الجهد في استقصاء الإمكانيات أو اختبار البديائف؛ ومن ثم فإنهم يتخلصون من عناء التفكير بقبول أي طريقة يجدونها أو أول حل يعشرون عليه؛ مع أن من الثابت أن الأفكار العظيمة تأتي متأخرة عادة بعد أن تكون قد عصرنا أدمنتنا عصراً، إن الفكرة البدعة لا تكون في الغالب عبارة عن ومضة ذهنية خلابة، وإنما تكون أشبه بنتنة عزيزة تحتاج إلى سقاية ورعاية وحماية حتى تشتت ويكتمل نموها، وإذا رجع الواحد منا إلى القرارات الخاطئة في حياته، فسوف يجد أن كثيراً منها كان بسبب العجلة وعدم التروي وقلة الصبر على البحث عن بدائل أخرى.

كثيرون منا يس惰ون ما لديهم من عجلة بضميق الوقت وتسرع وتيرة الحياة، وهذا في الحقيقة ليس عذرًا؛ فالإنجازات الكبرى في تاريخ البشرية مدينة للعمل الدؤوب مدة طويلة من الزمان.

### ٣ - النّعية للآخرين:

الإبداع سلوك لطرق جديدة، والولوج من مداخل مبتكرة، والتفكير بعقلية حرة، وهذا كلّه يتطلّب درجة من الاستقلال الفكري والتّفسي عن المحيط الذي يعيش فيه الإنسان، ومن المعروف أنّ الثقافة الشعيبة لدينا تتمحور حول التلامس والتضامن الأهلي، ولهذا فإنّ معظم الناس يستوحشون من يبتعد بطروحاته ومرئياته عنهم، وربما سُفهوه، وإن شوّاهد التاريخ تدل على أنّ كثيراً من العباقرة والمبدعين كانوا في نظر الجماهير أشخاصاً غير طبيعين، وهذا تعبر مهذب، ومن هنا قالوا: إنّ بين العبرية والجنون شرعة رفيعة.

ليس هناك شيء من غير ثمن، وإن من جملة ثمن الإبداع والتجديد سلوك الطرق الموحشة، والإتيان بالأفكار التي قد لا تكون مستساغة أو موضع ترحيب من قبل معظم الناس. إن العاديين من الناس يسألون: من أين نبدأ؟ وأين الطريق؟ أما المبدعون والرواد، فإنهم يعلمون أنه ليس أمامهم طريق، فخطاهم هي التي ستشق الطريق!.

### ٤ - ضالة الحصول المعرفي:

مهما كانت قدراتنا الذهنية والتّنفسية عظيمة وممتازة، فإنها لن تغنينا عن أن نكتسب المزيد من العلم وأن نطلع على الأفكار والأراء ووجهات النظر التي تتصل بالقضية التي حاولنا، ونحاول أن نصل فيها إلى شيء غير مسبوق، وهذا واضح جداً في الأعمال العلمية والأدبية العظيمة، فكاتب الرواية الشهيرة جداً يقرأ حول محاورها وأشخاصها وأحداثها عشرات وأحياناً مئات الكتب المختلفة، وذلك من أجل تكوين خلفية ثقافية ثرية لما يريد الكتابة فيه، والذين يريدون اختراع شيء يطلعون على كل المحاولات السابقة التي تتصل به وبأشباهه، وحين سُئل المخترع الأميركي الشهير (أديسون) عن السر الذي يقف خلف مخترعاته التي تجاوزت الألف - قال: العبرية (١٪) موهبة، والباقي عرق جبين. أي: علم وبحث وتجربة وتفكير. إن المعرفة كما أشرت سابقاً - هي عتاد العقل، وإن الإنسان الذكي جداً يدو أشه بالألبه حين يفكّر في موضوع ليس لديه أي معلومات عنه، من هنا كان التعلم المستمر شيئاً يتطلبه الإبداع، وكان الإعراض عن العلم هو العدو الأول له.

## طريق الإبداع.

ما دام كل واحد من الناس يملك نوعاً من الذكاء، يمكنه من خلال الاستفادة منه أن يكون مبدعاً ومتذكراً، فلماذا نجد أن معظم الناس عاديون أو أقل من عاديين؟ الجواب يمكن في رغبة الناس في أن يكونوا متميزين ومبدعين، وفي تخلصهم من الأوهام التي تحول بينهم وبين رؤية ما يمكنهم إبداعه بجدارة واقتدار، ولا شك أن للبيئة التي ينشأ فيها الواحد منا أكبر الأثر في إعداده للسير في طريق الريادة والتفوق؛ ومن ثم كان علينا جميعاً أن نهتم بالنشطة، وأن ننحthem من الرعاية ما يساعدهم على ذلك. الآن عليه أن أوضح ما تتطلبه تنمية الإبداع، وما يقتضيه السير في طريقه؛ وذلك عبر المفردات الآتية:

### ١ - وجود الدافع:

طريق الإبداع هو طريق العمل والمجهد، وهو طريق طويل وغير ممهد؛ ولهذا فلا بد من وجود الرغبة في السير فيه، ولا بد من وجود الحافز والدافع على بذل المجهد، ولا شك في أن أرقى الدوافع هو ذلك الذي يتصل برضوان الله - تعالى - إنه يدفع المسلم إلى إضافة شيء جديد للحياة حتى يساعد الناس على أن يحيوا حياة أطيب وأكرم، وحتى يتمكنوا من التغلب على المشكلات التي تواجههم، وعلى مقدار ما تُخلص الله - تعالى - في مقاصدنا، نجد من توفيقه ومعونته...

الدافع متعددة، منها القوي، ومنها الضعيف، ونحن نحتاج إلى الدافع القوي... الذي يحرّكنا دائمًا نحو الأمام، وهذا الدافع يمكن لنا أن نولّه وندعمه باستمرار من خلال تذكر الثواب العظيم للعاملين المثابرين، ومن خلال تذكر المشاعر الجميلة والفوائد العظيمة التي تتمتع بها حين نكون في القيادة، وما يذكر في هذا السياق أن شاباً جاء إلى حكيم، وسأله: كيف يمكن أن أكون ناجحاً؟ فقال له: عليك أن تمتلك الدافع لذلك. قال الشاب: وكيف أمتلك ذلك؟ هنا قال الحكيم للشاب: اقترب، فاقترب منه، وكان إلى جوار الحكيم بحيرة صغيرة، فما كان منه إلا أن أخذ برأس الشاب وغمسه في الماء، وبعد ثوانٍ قليلة أخذ الشاب يتضاقق، ويشعر بنفاذ الهواء من رئتيه، وصار يحاول رفع رأسه والتخلص من ضغط يد الحكيم، وقد نجح في ذلك بعد

لأي، فقال له الحكيم: هذا هو الدافع، إنه الشعور بضرورة القيام بعمل ما للانتقال من الوضعية الراهنة إلى وضعية أفضل.

#### ٢ - التركيز والاهتمام:

إذا سئلت عن الجناحين اللذين يطير بهما الإنسان في آفاق الإبداع لقلت من غير تردد: إنهما الاهتمام والتركيز، إنهما فضيلتان متداخلتان؛ فالواحد منا إذا اهتم بشيء فإنه يركّز عليه، وإذا رکّز على شيء استنفر كل طاقاته للاهتمام بكل ما يتعلق به، السؤال هو: كيف يثبت الإنسان لنفسه ولغيره أنه فعلًا صاحب اهتمام بما يريد الإبداع فيه وصاحب تركيز عليه؟

الجواب هو الآتي:

- يقرأ ويطالع حوله، ويتابع الكتب والأفكار الجديدة، ويشترك في المجالات المتخصصة فيه.

- يسأل المتخصصين، ويناقشهم، ويحضر الدورات والندوات والمؤتمرات التي تُعقد حوله.

- يحدد ما يريد بالضبط، ولا يهمه ما إذا كان صغيراً أو كبيراً، المهم هو الجيء بشيء جديد نافع.

- يفكّر فيه ويتأمل، ويسجل كل المخاطر التي تخطر له حوله.

- يتخيّل باستمرار المكافأة العظيمة التي يحصل عليها إذا ما نجح في خطّته.

- يدخل إلى عالم أحد الناجحين المبدعين في مجال اهتمامه، ويحاول الاستفادة من أسلوبه في ممارسة الإبداع.

#### ٣ - المجال الرحب:

مجال الإبداع رحب للغاية وفسيح أكثر مما نتصور، وذلك لأننا إذا تأملنا في أسلوب عيشنا اليومي، وفي الأدوات التي نستخدمها وفي الأفكار والمفاهيم التي نمتلكها... وقارنا كل ذلك بما كان عليه الناس قبل مئة عام لوجدنا أن بين الزمانين مسافة واسعة في كل شيء، وهذه المسافة صنعتها في الحقيقة عشرات الملايين من المبدعين الصغار والكبار، ومن هنا فإن على من يريد أن يسير في طريق الإبداع أن

يعتقد أن معظم ما في حياتنا من أشياء وأعمال وعلاقات... يمكن أن يوجد ويؤدي بطريقة تقليدية عنيفة، ويمكن أن يؤدي بطريقة إبداعية مبتكرة، وإليك بعض الأمثلة على ما نقول:

- أنت مدرس لمادة الفيزياء، وتحاول ممارسة تدريسك لطلابك بطريقة إبداعية غير مسبوقة.

- جاءت والدتك لزيارتكم بعد انقطاع طويل، وأحبيت أن يكون استقبالك لها بشكل غير مسبوق فيما تعلم.

- كلفت برئاسة أحد الأقسام في شركتك، وعزمت على إدارته بطريقة إبداعية.

- ترید أن ترفع نسبة استغلالك لأوقات فراغك بنسبة (٤٠٪).

- وجدت نفسك مسؤولاً عن رعاية بيتيم، فأحبيت أن تتبع في رعايته أسلوبنا نموذجياً مدهشاً.

- ستذهب غداً إلى مكة المكرمة وتقيم فيها يومين، فأحبيت أن تستمر إقامتك فيها في طاعة الله على أفضل وجه ممكن، فكيف يكون ذلك؟

- أنت مستشار إداري، وقد طلب منك وضع خطة لتحويل شركة من الخسارة إلى الربح دون إنفاق أي مال إضافي.

- لديك سيارة قديمة، أحبيت أن تتمتع بشعور من يقود سيارة جديدة، فما الذي يمكن أن تفعله؟

- أنت مهندس مدنى في بلد فقير، كيف تستطيع تصميم منازل شعبية للفقراء بتكليف تقل (٣٠٪) عن التكاليف المعروفة الآن على هذا الصعيد؟

- أنت مستشار للإصلاح بين الزوجين، كيف ترفع نسبة نجاحك في الإصلاح بنسبة (٢٠٪)؟

إن في إمكاني أن أعدّ عشرات النماذج الشبيهة بما ذكرته، وذلك حتى أرسخ فيوعي القارئ شيئاً مهماً، هو أنه ما من شخص في أي مجال يعجز عن أن يمارس عمله أو شيئاً منه بطريقة إبداعية لو أحب.

#### ٤ - تعامل خاص مع المعرفة:

يُطّلع الطالب في الجامعة ومراحل التعليم التي قبلها على الكثير الكثير من المعلومات والنظريات والأفكار، ويكون هُدُو في الغالب هو النجاح في الاختبارات والحصول على درجات عالية، وهذا شيء جيد في المجمل، لكن هذا ليس هو طريق المبدعين، وليس هو الشيء الذي يستحوذ عليهم. إن معظم الناس عاديون لأسباب كثيرة، وإن تدهور مستوى التعليم في كل المراحل ووجود عدد قليل جدًا من المؤسسات التعليمية الممتازة، على علاقة وثيقة بضمور الإبداع والاختراع في أمتنا؛ فالمدرسة الديكتاتورية والجامعة المتأكّلة تخفّض سقف الطموحات لدى طلابها؛ بل تجعلهم في حالة من اليأس والإحباط والأسأم، كما أن الإرشاد النفسي والأكاديمي فيها يكون في الغالب ضعيفاً، وهي لذلك لا تستطيع الأخذ بيد الطالب في اتجاه كسر المأثور وفتح أفق جديد، ومن هنا فإنني أؤكد وأشدد على أن نختار لأنّياتنا أفضل المؤسسات التعليمية المتوفرة، وعلى أن نتفق على ذلك بسخاء بالغ، ونعطيه الأولوية على أي مشروعات أو استثمارات أخرى؛ فالاستثمار في الأبنية هو أعظم جدوى من أي استثمار آخر.

المدرسة الجيدة والجامعة الجيدة توفر لنسوبيها جوًّا نفسياً مريحاً، وتفتح أذهانهم على توظيف المعرفة التي يحصلون عليها من خلال كثرة التطبيقات والتجارب العلمية التي تتيحها لهم، وبذلك تدفعهم على استثمار المعرفة، وتدعهم على إمكانات توظيفها في خدمة الإنسان، ومن هنا أقول: إن الإبداع لا يحتاج إلى تحصيل علمي رفيع ومتقدّر حاجته إلى ارتفاع المرء من الاهتمام بالمذاكرة والحفظ والنجاح في الاختبارات إلى مرتبة الفهم والتحليل والاستنباط والتوظيف الجديد للمعرفة المتاحة؛ ولهذا فإننا نرى أن كلاً من المبدع والسائل في طريق الإبداع يتعامل مع المعرفة على السهو الآتي:

**أ -** كلما اطلع على معلومة جديدة سأل نفسه السؤال التالي: كيف يمكن أن أستفيد فائدة عملية من هذه المعلومة؟ وما متطلبات ذلك؟

- ب -** لا يكتفي بالدراسة المنهجية، وإنما يحاول الاطلاع على بعض المراجع والمصادر والمحاجات والتحقيقات الصحفية التي تناولت المسألة التي يهتم بها.
- ج -** يحضر الدورات والندوات والمؤتمرات التي تُعقد في مجال اهتمامه.

- د - يتبع أخبار الإبداعات والاختراعات ويفحص المعارض المعنية بذلك.
- هـ - يحاول الاختكاك بالأشخاص الذين غُرف عنهم الاهتمام أو الإبداع بما يحب أن يدع فيه.

تبعد هذه الأمور في نظر الإنسان مكلفة لأول وهلة، وهذا صحيح، ومن الذي يقول: إن طموح المرء لأن يكون مبدعاً يمكن أن يتحقق من غير أي جهد ومن دون دفع أي ثمن؟ طريق المعالي مفروش بالأشواك لكن نهايته سعيدة وعظيمة ومشرمة.

و - الانتباه للأفكار الصغيرة؛ حيث إن عصر الأفكار الكبرى وعصر القادة والعلماء العظام الذين يغيرون مجرى الحياة قد انتهى، وجاء عصر الأفكار والإبداعات الصغيرة التي تراكم، فتغير بيضاء معالم الحياة وملامحها، كما أنه جاء عصر الأبطال الصغار الذين يسدون الثغرات، ويحققون النجاحات المحلية.

المبدع إنسان ملأ يحاول التقاط الأفكار العابرة والإشارات السريعة التي تصدر من هنا وهناك، إن هناك مئات الملايين من الناس الذين شاهدوا الأشياء وهي تسقط من الأعلى إلى الأسفل دون أن يفكروا في القانون الذي يحكم تلك الظاهرة إلى أن جاء (إسحاق نيوتن) فاكتشف قانون الجاذبية، وعانت النساء قروناً كثيرة من كنس الأرض وظهورهن محنة بسبب كون المكانس قصيرة، إلى أن جاء إنسان مبدع فرأى إمكانية الخلاص من ذلك بإضافة عصا طويلة إلى المكنسة، فكتن المرأة وهي واقفة، إنها فكرة صغيرة جداً لكنها غيرت حياة الملايين! حين نسمع أن شركة صينية سجلت عام (٢٠٠٨م) ما يزيد على (١٧٠٠) براءة اختراع في مجال الاتصالات أدركنا أن تلك الاختراعات متاهية الصغر، وهي تجسيد لأنواع صغيرة جداً، والحقيقة أن المبدع يهتم بما ينظر إليه غيره نظرة استخفاف، ومن هذا الفارق بين هذا وذاك تخلق الأفكار والإبداعات الصغيرة، وبها تستمر مسيرة التطور.

## التفكير النبدي

رسخ في أذهان الناس أن التفكير الناقد عبارة عن نشاط ذهني يستهدف إبراز النقصان والعيوب والأزمات التي يشاهدها الناقد على مسرح الحياة، وهذا في الحقيقة غير صحيح، وربما كان سببه هو أن معظم ما يرونه من ملاحظات وتعليقات صادرة عن أطراف متعددة - يميل فعلاً إلى ذلك، ومن هنا فإن الناس ينظرون إلى النقد على أنه نوع من الشكوى والظلم والتعبر عن السخط تجاه قضايا لا يملكون تجاهها أي حيلة، وهذا يشكل في الحقيقة نوعاً من الصد عن ممارسة النقد والاهتمام به.

إن النقد في جوهره هو مجموعة من العمليات الذهنية التي تستهدف تقييم بعض الحقائق والمعلومات والأفكار والظواهر... وتميز ما فيها من خير وحق وصواب وجمال بما فيها من باطل وخطأ وقبح، إن المفكر وهو ينقد يستخدم ما لديه من قيم ومعايير وأفكار ومعلومات، وهذا الاستخدام كثيراً ما يكون عبارة عن تطبيق وتوظيف للمعارف والأفكار الجديدة في فهم الواقع وتحديد المشكلات الاجتماعية؛ بالإضافة إلى تفسير التناقضات التي يعيش فيها الناس. ومن هنا فإن التفكير النبدي عمل متوفّق جداً لأن الناقد يثبت أن وعيه متحرر من سلطان البيئة والنماذج الشائعة ومحترر من برجمة التيار الاجتماعي العام، والذي لا يكون في الغالب رشيداً ووعياً. الذي يمارس النقد يدرك أنه يعبر عن فهم مقارب لما ينبغي أن تكون عليه الأشياء وفهم مقارب لما هي عليه الآن، وعمله الأساسي هو توضيح ذلك الفارق وتشريحه وبيان خطورته، وحين يجد الناقد الاجتماعي صوراً متفوقة وخيرة، فإنه يعبر عنها ويشجعها، كي يرسخها، ويتمكن لها في الحياة العامة، وكى ينشر روح البشر والاستبشر في نفوس الناس.

### أهمية الممارسة النقدية:

إن القرآن الكريم هو الذي أسس لمارسة النقد في المجتمع الإسلامي؛ فقد كانت

الآيات تنزل على نبينا عليهما مكانته متابعة ومتبعة لتقلبات المجتمع وأنشطته وأحداثه العامة، ونجد - على سبيل المثال - أنه ما من غروة أو معركة كبيرة إلا كان هناك بيان قرآنى يتحدث عن منه الله - تعالى - على المسلمين بالنصر والتثبيت وعن سلوك الصحابة ﷺ خلال المعركة، وما يستلزمها من إرشاد وتوجيه ومعابة، ونحن نعرف أن القرآن الكريم عاتب النبي عليهما مكانته شخصياً على بعض اجتهاداتاته، كما هو الشأن في قبول فداء الأسرى والإعراض عن عبد الله بن أم مكتوم وغير ذلك...

المجتمع إذن في أمس الحاجة إلى النقد؛ وذلك لأن هناك عوامل كثيرة تؤدي إلى وجود مفارقات بين التنظير والتطبيق وبين الاعتقاد والسلوك العملي، وأنا أود هنا أن أؤكد على أهمية الممارسة النقدية بالنسبة إلى المفكر والداعين في طريقه، وبالنسبة إلى المجتمع أيضاً وذلك عبر المفردات التالية:

١ - الرؤية النقدية للمجتمع وأوضاعه بما فيها من إيجابيات وسلبيات، هي الشيء الجوهرى الذي يميز (المفكر) عن (العالم)، و (الداعية)، و (المتخصص)؛ لأن صناعة المفاهيم هي الشغل الشاغل للمفكر، والمفاهيم التي يصنعها تتحول على نحو أساسي حول الواقع الاجتماعي وحول إمكانية تطويره والارتقاء به، ومن هنا فإن في الإمكان القول: إن امتلاك المرء لعدد كبير من الأفكار واللاحظات حول واقع الأمة، والفرص التي أمامها، والتحديات التي تواجهها، وحول جذور كل ذلك، وحول العلاقات التي تربط بين المسارات الحضارية المختلفة... هو الذي يرشح العالم والمتخصص لنيل لقب (مفكر)؛ وذلك لأن العالم قد يصبح عالماً؛ لأنه يحمل في رأسه الكثير من المعلومات، ومع ذلك يكون مقلداً لغيره في تحليل الواقع الحضاري للمعيش، أما المفكر فهو مجتهد ذو نظرية مستقلة - نسبياً -، كما أنه يسعى باستمرار إلى تفحص مقولاته وإعادة النظر في طروحاته، كي يمنحها المزيد من التماسک والتضojج.

٢ - المفكر يقوم بدور (الجراح) وهو في هذا بحاجة إلى أمر مهم، هو برهنته على أنه يملك مساحة فاصلة بين وعيه ووعي مجتمعه، أي أن وعيه ليس مندمجاً في الوعي الجماعي، وبسبب ذلك يستطيع المفكر تقويم المجتمع ونقده وقادته فكريًا وثقافياً؛ وإن الذي يدعو إلى هذا الكلام ما نلمسه من حرص المجتمعات على أن تكون منسجمة مع ذاتها وعلى لملمة شؤونها، لتبدو وكأنها منطقية وصحيحة،

والدافع لذلك هو تحقيق العلاجم الأهلي ودفع شرور الفتن والانقسام الداخلي، والناس في سبيل ذلك يتسترون على كثير من المشكلات الهائلة، وعلى كثير من الأمراض والعلل الخلقية التي تفتكت بهم، إن أوضاعهم تكون فعلاً أشبه بالحرب الذي التأم على فساد، وهم يستخدمون في ذلك المجاملة والمداهنة والمداراة والتعاطف الاجتماعي... هنا يأتي دور الفكر (الجراح) لينكاً الجرح، وبخلصه من الجراثيم المجتمعية فيه، والتي قد تكون في مرحلة من المراحل خطيرة جداً وقاتلة.

لكل أن تنظر - على سبيل المثال - إلى ما ابْتَلَتْ به بعض المجتمعات المسلمة من التعصب للقبيلة؛ حيث التقى العذاب بـ«القبيلتين»؛ حيث التستر على كل العيوب والمشكلات التي تعاني منها، إن هذه الظاهرة تحتاج إلى نقد وعلاج مستمر من أجل التخفيف منها، وتعظيم الرؤية الموضوعية عند تلك القبائل قدر الإمكان.

٣ - تحتاج الأم دائئراً إلى من يفحص لها مساراتها، ويتحسس ملالات أعمالها، ومن يدّ لها قرون الاستشعار في جوف المستقبل؛ حتى تضبط إيقاع حركتها اليومية ببرؤيتها المستقبلية، وهذه المهمة العظيمة من المهام الجوهرية للمفكّر؛ بل إن المفكّر يكاد يكون هو المؤهل الوحيد للقيام بذلك، وللمزيد كثيراً ما يكتسب أهميته من أهمية الأشياء المكلفة بالإنجازها، كما هو الشأن هنا. وإن المفكّر بما يعرفه من طبائع الأشياء وسنن الله - تعالى - في الخلق، وبما يعرفه من طبيعة الأفكار السائدة وطبيعة القوى المؤثرة في الساحات المحلية والعالمية... يستطيع أن يحدّر الناس من كثير مما هو قادم من التحديات، كما يستطيع تصويرهم بالفرص والإمكانات المستقبلية، وقد قال سفيان الثوري رحمه الله: «الفتنة حين تدبر يعرفها كل الناس، لكن حين تقبل، فإنه لا يعرفها إلا العالم».

وكمّيراً ما حذر المفكّرون المسلمين الأمة من مغبة إعراضها عن القراءة ومحبة وهن مؤسّساتها التعليمية، كما حذروها من عواقب ضمور الجانب الروحي في شخصيات شبابها ومن انتشار الكذب والرشوة والفساد المالي والإداري؛ بوصف هذه الأوبئة عوامل نخر في وجودها المعنوي، كما أن المفكّرين المسلمين كثيراً ما شرحوا للأمة الفرص التي تلوح أمامهم، وذلك حين أكدوا على أهمية الالتزام بالمنهج الرباني الأقوم والاستفادة من العنصر البشري المتکاثر بقوة في ديار المسلمين، وذلك من خلال

تعليمه وتدربيه، كما أكدوا على أهمية الوحدة الإسلامية، والاهتمام بالتراثية الأسرية وتحديث الصحة وتحقيق العدالة الاجتماعية...

٤ - إن المجتمعات كثيراً ما تجد نفسها في حمأة الرتابة والجمود على الموروث، وكثيراً ما تجد نفسها غارقة في تقليد الآخرين، وتجد نفسها أيضاً مستكينة أمام التحديات ومستسلمة للمشكلات والأزمات، وهنا يأتي دور النقد الاجتماعي البناء ودور المفكرين العظام الذين يجددون المفاهيم وينقدون السلوكيات، وعلى سبيل المثال فإن المفكرين المسلمين يحثون الناس على الانفتاح على الآخر، وعلى محاولة الاستفادة مما لديه من رؤى وخطط وبرامج، كما أنهم يحاولون إحياء روح المبادرة في الأمة من خلال التأكيد على معنى جوهري، هو أن في إمكان الأمة أن تقدم ملايين القادة والمبدعين والعلماء المحليين الذين يقدمون نماذج صغيرة جيدة ويسجلون نجاحات محدودة، ومن خلال تراكم إنجازاتهم يتغير حال الأمة نحو الأحسن، كما نلاحظ أن المفكرين المسلمين يُشعرون في الأمة روح الاستبشار والأمل بعد مشرق واعد من خلال بث الثقة في نفوس الناس وبيان مكاسبهم خلال الخمسين سنة الماضية، وكيف أنهم اليوم في حالة أفضل مما مر على المسلمين عبر القرون السبعة السابقة على أقل تقدير...  
النقد هو الرئة التي تنفس بها الأمة، وهو المصباح الذي يضيء لها الطريق، وهو لا يؤدي إلا الحالات المريضة، ولا يتضائق منه إلا من لديهم نوع من الاعوجاج والتغريب!

### كيف نؤسس للعقلية النقدية؟

من الواضح أن النقد يعطي لصاحبه تفوقاً فورياً على جلسااته؛ حيث يستطيع من يمارسه خطف الأضواء بسرعة فائقة، على حين أن ثمار التفكير الإيجابي لا تظهر إلا ببطء شديد، ويظل الناس غير متأكدين من وجودها، لكن المشكل لدينا، هو ميل معظم الناس إلى إطلاق العبارات النقدية دون تدقيق ولا تحديد، ودون قدرة على البرهنة على ما يقولونه أو تعليله، مما جعل مجالتنا العامة عبارة عن محافل للتذمر والشكوى والاتهام والكثير من الكلام غير الدقيق وغير المسؤول، وكم سمعنا من يقول: المجتمع فاسد، الغزو الفكري حطم الناس، الأمة تتدحر، الشباب ضائع، ليس هناك أي أمل في الإصلاح، الغرب هو سبب بلائنا، الجامعة الفلانية فاشلة، العالم

الفلاني مداهن للحكومة... إن هذا النوع من النقد يزيد الطين بلة بسبب ما فيه من تعميم وعجلة، وبسبب افتقاره للبرهان والتفصيل، وهذا كله بسبب عدم وجود عقل نقدي عام راشد وحذير وخبرير، ومن هنا فإن على الواحد منا أن يبذل الكثير من الجهد حتى لا يقع في مصيدة (النقد المطلق)، ولعل من أهم ما ينبغي القيام به من أجل ذلك هو تأسيس العقلية النقدية وتنميتها بالأفكار الواضحة على نحو مستمر، وما يساعد على هذا الآتي:

#### ١ - الشعور بالمسؤولية:

حين يتفضل الله - تعالى - على عبده بدرجة حسنة من الوعي والفهم والإدراك، وحين يمكنه من محاكمة الأمور على نحو جيد، فإن عليه أن يقدم شكره على ذلك، وشكره يمكن في كشف الزغل والانحراف في الحياة العامة، سواء أكان ذلك في الأفكار والمفاهيم أو كان في المواقف والسلوكيات، المصلحون يعرفون أنهم إذا لم يتكلموا، فقد لا يتكلم غيرهم، وقد يتكلم من يهرب بما لا يعرف، ومن يسيء ويؤذى، ولهذا فإنهم يحملون على كواهلهم هموما لا يشعر بها الكثيرون من الناس... الشعور بالمسؤولية هو ذلك الشعور النبيل الذي يحول الصغير إلى كبير، والهامشي إلى محوري، إنه فرياء العظمة، وما أجمل قول (مارتن لوثر كينج): «لست فقط محاسبا على ما تقول، أنت محاسب أيضا على ما لم تقل، حيث كان لا بد لك أن تقول». نعم، إن الفرض الكفائي قد يتحول في لحظة ما إلى فرض على شخص بعينه، فأنت إذا رأيت شخصا يغرق، و كنت أقرب الناس إليه، فإن عليك أن تبذل كل ما تستطيع من أجل إنقاذه. نحن حتى نشعر بالمسؤولية نحتاج إلى صدق مع الله - تعالى - وصدق مع النفس وشيء من أصالة الشخصية والشعور بالاستقلال الذاتي التابع من عمق الإحساس بالكرامة.

#### ٢ - رؤية ما هو خارج المألوف:

العاديون من الناس يرون كل شيء عادياً؛ لأن بنائهم العقلية والمعرفية هشة وضحلة؛ ولهذا فإنهم لا يفرقون بين ما هو متزمن وما هو عادي، وبين ما هو طبيعي وما هو غير طبيعي، وهم لذلك محرومون من الشعور بالدهشة الذي يتمتع به المبدعون والملقون الكبار. في المجتمع صور رائعة من البذل والعطاء والتتفوق والسمو والإبداع،

يستحق أصحابها الإشادة والتشجيع والمؤازرة، وفي المجتمع صور من الانحراف والتقاعس والتخييب... تحتاج إلى من يسلط الضوء عليها، وينقدها حتى لا تستمر وتنتشر، والمفكرون أصحاب البصيرة الندية هم الذين يجب عليهم القيام بذلك.

المطلوب في نظري هو بذلك جهد واسع لإدراك حدود الأمور الطبيعية على المستويات الأخلاقية والعلمية والسلوكية، ويحتاج من يحاول ذلك إلى أن يستخدم المقارنة بين الأشخاص والأسر والمدارس والشعوب... إنها مقارنة بين أي شيء يريد فحصه والحكم عليه وبين نظرائه؛ بالإضافة إلى شيء من الدراسة الكمية، أي معرفة نسبة انتشار هذا الشيء؛ فالشيء الطبيعي - بمعيار من المعايير - كثيراً ما يكون منتشرًا ومتقدلاً من غير نكير، كما أن الشيء النادر جدًا يُدْهَش له كثير من الناس، وأعتقد أن معرفة الأشياء الشاذة والخارجية عن المألوف تحتاج إلى نوع من الدراسة ودرجة من الإبداع، ومع الدراسة والملاحظة والتدريب يحصل الإنسان على الكثير الكثير من الأشياء في هذا الحقل وفي غيره.

### ٣ - فن التساؤل:

إن طرح الأسئلة حول أي شيء نريد فهمه ونقده، يشكل أداة نقدية مهمة للغاية؛ لأننا من خلال الأسئلة ومحاولة الإجابة عليها نمتلك نوعاً من الإحاطة الشاملة بكل جوانب المسألة أو القضية أو النص الذي نود نقده، وأننا سأذكر نموذجاً توضيحيًا لذلك.

وهذا النموذج هو عبارة عن قول أحد الكتاب: «دلت إحدى الدراسات على أن متوسط ما يقرؤه العربي في اليوم هو (٦) دقائق يومياً، على حين أن الأوروبي يقرأ ما متوسطه (٣٨) دقيقة، والحقيقة أن العرب لا يقرؤون وإذا قرؤوا لا يفهمون... وهذه الوضعية بسبب انتشار الأمية والفقر، والذي يجعل قضاء الحاجات الأساسية في نظر الناس مقدماً على شراء الكتب، كما أن المدارس أخفقت في تحبيب الكتاب إلى الطالب».

ما موضوع هذا النص؟ وما الرسالة التي يود الكاتب إيصالها إلى القارئ؟

موضوع النص هو: إعراض العرب عن القراءة، والرسالة الخفية للكاتب عبارة عن حث للناس على تجاوز الأسباب التي منعت كثيراً منهم من القراءة؛ فالحصول على المعرفة يستحق التضحية.

### عن أي نوع من القراءة يتحدث الكاتب؟

من الواضح أنه لا يقصد ذلك النوع المعنّى من القراءة، والذي يتناول تحليل النص ومحاورة الكاتب ونقدّه، وإنما يقصد أساساً النوع البسيط من القراءة الذي يمارسه عامة الناس.

### كيف ننظر إلى الأرقام الواردة في النص؟

في النص رقمان يتحدايان عن متوسط مدة القراءة اليومية لدى العرب ولدى الأوروبيين، والرقمان واضحان، ولكن إلى أي مدى يمكن أن يكونا دقيقين؟ وهل يتناولان كل أنشطة القراءة لدى الفريقيين؟

هناك شيء نسميه (بلغة الرقم)؛ حيث إن التحديد الذي تمنحنا إياه الأرقام في إدراك الظواهر، لا يمنحنا إيه أي شيء آخر، لكن علينا أن نشير إلى شيئاً مهماً: الأول: هو أن وضوح دلالة الأرقام يجعل الطلب عليها شديداً، ويجعل تداولها واسعاً جدّاً، وهذا يؤدي إلى أمرين: الأول: تعرض الأرقام للتحريف الشديد، وعلى سبيل المثال فإن ما ذكر في النص من أن متوسط قراءة العربي في اليوم هو (٦) دقائق قد تم تحريفه في بعض الكتب أثناء التداول إلى (٦٦) دقائق في السنة، وهو تحريف خطير للغاية!. الأمر الثاني: هو المتاجرة بالأرقام؛ حيث إن كشف الكذب في الأرقام كثيراً ما يكون صعباً للغاية، ولهذا فإن بعض الجهات تحاول تحقيق أرباح ومكاسب ومصالح عن طريق تضخيم بعض الأرقام وتقليل أرقام أخرى؛ ولهذا فلا بد من الانتباه الشديد، وإلا كان وعياناً وادراكتنا هو الضحية القادمة.

الثاني: هو أن الرقمين الموجودين في النصين يشيران إلى ظاهرتين كبيرتين، لهما علاقة بـ (٧٠٠) مليون شخص، ودلالة الأرقام على الظواهر الكبرى دائمًا ظنية، ويشوبها الكثير من القصور؛ ولهذا فإننا ننظر إلى أرقام من هذا النوع على أنها مؤشرات مرنة أكثر من أي شيء آخر. وهذا كله على افتراض أن الدراسة علمية وجادة، وعلى افتراض أنها حديثة، فإذا احتل أحد هذين الأمرين كان من حقنا أن نتوقف أمامها أكثر وأكثر.

أما ما أوردناه من التساؤل عن شمول الدراسة لكل أنشطة القراءة، فجوابه هو: أن

الدراسة ركزت - على ما يبدو - على نشاط القراءة الحرة، فهي لا تشير إلى نشاط القراءة داخل المدارس والجامعات، كما أنها لا تشير إلى زمن القراءة الذي يضيئ الموظفون في أعمالهم، ولا لغيرت الأرقام.

هل الإعراض النسيي عن القراءة لدى العرب ذو علاقة بطبعية الإنسان العربي وتركيبه الجيني؟ وهل العربي وحده هو الذي يفقد الشهية للقراءة؟

من الواضح جداً أنه ليس هناك أي علاقة بين الموروث الجيني للإنسان وبين رغبته في التعلم والاطلاع، وإن في العرب من يقرؤون أكثر من اليابانيين والأوروبيين، وإن التفسير الملائم لظاهرة ضعف القراءة لدينا هو أن نعزّو ذلك إلى (التخلف الحضاري) الذي يحثم على صدورنا منذ ما يزيد على ثمانية قرون، التخلف يجعل الإنسان لا ينفع بميادنه ولا بتراثه لأنه يجعله يفقد الحس والحس التاريخي، ويجعله لا ينفع بمعطيات زمانه؛ لأنّه يُفقده روح المعاصرة والوعي بالفرص التي تتيحها، وحين يذهب الشاب العربي إلى الغرب، فإنّهم ينخرطون في الدراسة والتعلم كما ينخرط زملاؤهم الغربيون... ومن هنا نجد أن الشعوب المتخلفة في أفريقيا وأسيا وأمريكا الجنوبية، هي الأخرى تفقد الشهية للقراءة مع أنها ليست عربية ولا مسلمة، مما يعني أن التخلف الحضاري فعلاً هو أساس المشكلة.

- هل صحيح ما ذكره الكاتب من أن العرب إذا قرروا لا يفهمون ما قرؤوه؟  
هذا غير صحيح؛ فالعربي لا يقرأ لأنه يعاني من التخلف، لكنه حين يقرأ، فقد يفهم وقد لا يفهم، شأنه في ذلك شأن كل القراء من كل الأمم؛ حيث إن الفهم مرتب بالخلفية المعرفية للإنسان وبمستواه العلمي، كما أنه مرتب بمدى ما لديه من دربة في قراءة النصوص وبطريقته في القراءة، وبمدى نجاحه في اختيار الكتاب المناسب له.

- هل ما ذكره الكاتب من أسباب تفصيلية لإعراض العرب عن القراءة صحيح؟  
وهل هي الأسباب الوحيدة؟

إن ما ذكره الكاتب صحيح في الجملة، حيث إن (٣٠٪) من العرب هم حتى هذه اللحظة أميّون؛ فهم طبعاً لا يقرؤون، وكثير منهم لا يعرفون قيمة العلم ولا قيمة القراءة، ولا يحفزون أسرهم على المطالعة، ولا يساعدون أبناءهم في شراء الكتب، أي أنهم يوسعون دائرة الإعراض عن القراءة.

أما الفقر فإنه يشكل سبباً ثانوياً في الحقيقة؛ حيث إننا نجد كثيراً من الأثرياء لا يقرؤون، كما أن المكتبات العامة كثيرة ما تكون خاوية على عروشها، على الرغم من أن المطالعة فيها مجانية، كما أن كثيرة من الفقراء الذين لا يقرؤون ينفقون الأموال الطائلة على الأكل والشرب واللباس وأمور مظهرية كثيرة.

أما إخفاق المدارس في تحبيب الكتاب إلى الطلاب، فهذا ثابت وملموس، وهو يعود إلى تخلف البيئة التعليمية وإلى كون أساليب التعليم تقوم على التلقين وتهميشه دور الطالب في عمليات التعلم، كما أن قلة التطبيق والورش العملية وقلة المعامل والختيرات والتجهيزات المدرسية وضعفها من الأمور التي تورث السأم، وتجعل التعلم عيناً ثقيلاً.

وعندى أن هناك سبباً آخر للإعراض عن القراءة، وهو يتعلق هذه المرة بسياسات الحكومات في التنمية وتوفير فرص العمل؛ حيث إننا نجد أن معظم الوظائف لا يتصل بالمعرفة من قريب أو بعيد، ولا يتطلب من يشغلها الاستمرار في القراءة والبحث؛ وللهذا فإن الإنسان العربي لا يجد في وظيفته - غالباً - ما يدفعه إلى القراءة أثناء ممارسة الوظيفة في الصباح ولا بعد عودته إلى بيته في المساء، وقد أفاد بعض الدراسات أن (٤٠٪) من الوظائف في أوروبا على صلة بالمعرفة، وتحفز على التزود المستمر منها. العمل الذي لا يتصل بالعلم يتطلب - في كثير من الأحيان - جهداً عضلياً عالياً، مما يجعل المرء يأوي إلى بيته كي يرتاح بعد أن استنفذ كل طاقته في وظيفته. السؤال الأخير في مسألة الإعراض عن القراءة هو: إذا صرخ أن الناس يعرضون عن القراءة بسبب التخلف، وكان الإقبال على القراءة يساعد على التقدم. فإن النتيجة قد تكون: الناس يعرضون عن القراءة لأنهم متخلفون، وهم لا يتقدمون حتى يقرؤوا، وبهذا تكون قد وضعنا أنفسنا فيما يشبه الدائرة المغلقة؟

هذا في التنظير العام صحيح إلى حد ما، لكن إذا جئنا إلى التفاصيل، لا يكون صحيحاً؛ حيث يمكن للناشئة أن يحبوا الكتاب والمطالعة إذا ظفروا بأسرة مهتمة بالعلم أو درسوا في مدرسة جادة أو عملوا حين يكبرون في شركات (متعلمة) أو ذات صبغة بحثية أو تقنية عالية... إذن دائمًا هناك مخرج، وهناك إمكانية لعمل شيء جيد. لدينا مجال واسع لطرح المزيد من الأسئلة ومحاولة الإجابة عليها، ولكن لا أريد

الاستطراد في هذا؛ حيث اتضح أننا إذا تعلمنا كيف نسأل، فإننا سنجد في الأسئلة محفزاً قوياً للخيال كي يعثر على بعض الأجوبة، والمهم أن ندرك أن كل ما قلناه هو عبارة عن مقاربة ومحاولة اجتهادية مبدئية تحتمل النقد والمراجعة والتصحيح.

#### ٤ - السعي إلى الوضوح:

السعي إلى الوضوح والحرص عليه وسلوك كل السبل المؤدية إليه، هو دأب كل المفكرين؛ وذلك لأنهم يشعرون أن الفموض والانبهام متصلان بنقص المعرفة أو نقص الإدراك أو بهما معاً، ومن هنا لستنا نبالغ إذا قلنا: إن المفكر يعمل على امتداد حياته على مكافحة العماء و (اللأتكون) مع أنه يدرك تماماً أن الجلاء التام قد لا يكون متاحاً في كل الأحيان؛ ولهذا فالمطلوب أعلى درجة من الفهم والرؤية والإحاطة، ولعلي أشرح ما أريده عبر الآتي:

أ - حين نود أن نفكّر في شيء تفكيراً نقدياً صحيحاً، فإن هذا يتطلب أن نقوم بتحديد ذلك الشيء وتصور ماهيته بدقة؛ لأننا ما لم ننجز هذا، فإن كل الجهود اللاحقة قد تكون غير ذات معنى، ولهذا قال المناطقة: «الحكم على الشيء فرع عن تصوره». والمشكل أن الوصول إلى تعريف وتشخيص واضح ومتفق عليه للأشياء والأحداث التي نهتم بها، ليس بالأمر السهل، وكلما كان الشيء الذي نحاول تعريفه وتحديده ضخماً أو معقداً أو كثير التفاصيل - وجدنا أنفسنا منقسمين تجاهه على نحو يُعنِّي، وهكذا فقد قام بعض الشباب بقتل أشخاص من غير المسلمين من يعيشون في بلاد إسلامية، وحين قيل لهم: إن هؤلاء ذميون أو مستأمنون، ولا يصح قتلهم قالوا: هؤلاء ليسوا ذميين ولا مستأمنين، إنهم عبارة عن محظوظين ومستعمرين، أو هم عملاء وجواسيس يعملون ضد مصلحة البلد؛ ولهذا فإنهم يستحقون القتل، وكلنا نعرف الارتكاك الذي حصل بين أتباع معاوية حين تناقل الناس قول رسول الله ﷺ لعمار ابن ياسر: «ويح ابن سمية تقتله الفتنة الباغية»، وقد كان عمار في جملة من قُتّل من جيش علي - رضي الله عنهم جميعاً - وقد وجد معاوية مخرجاً لذلك حين قال: نحن لم نقتلهم، وإنما قتلهم من آخر جهه - يقصد عائلاً - وكان الرد عليه: إذا كان ما تقوله صحيحاً، فهذا يعني أن كل من قُتل مع النبي ﷺ ومع غيره من قادة الجيوش لم يقتلهم الكفار، وإنما قتلهم من كان أميراً عليهم!

اللغة بطبيعتها حمالة أوجه، وقابلة للكثير من الاستخدام غير النزيه، والشيء المهم هو أن ندرك أن (التعريفات) ستظل قابلة للتحيز والتعبير عن وجهات النظر الشخصية؛ ولهذا فإن علينا أن نتحدث عنها في بداية كل بحث وكل نقاش... وأن نسعى إلى أعلى درجة ممكنة من الوضوح والتحديد.

ب - حين يتحدث أمامنا شخص في قضية ما، فإن من المهم أن نعرف مدى قدرة ذلك الشخص على الفصل بين أفكاره وعواطفه؛ حيث إن من الثابت أن الأفكار تؤثر على العواطف؛ فتحن حين نسمع ثناءً عاطراً على شخص يتحسن موقفنا الشعوري تجاهه، وحين تعاطف مع شيء، فإن تعاطفنا يحرّض العقل على إنتاج الأفكار الإيجابية نحوه - كما أشرنا سابقاً - ومن الملحوظ أن سيطرة العاطفة على النساء أكبر من سيطرتها على الرجال، كما أن العاطفة تكون أشد كلما كان المستوى المعرفي للإنسان منخفضاً، والعكس صحيح؛ إن الإنسان حين يتحدث عن خطأ فادح وقع فيه أحد أبنائه يتحدث بلهجـة مختلفة عن اللهجة التي يتكلـم بها فيما لو كان الخطئ شخصاً غريـباً أو معادـياً، وهذا من جملـة الضعف المستولي على البشر.

ج - دائمـاً هناك تساؤل مشروع حول جوهر الكلام الذي يستخدمـه الكاتـب أو المتحدـث أو المخـاور... .

هل ما يقوله عبارة عن حقائق ثابتة متفقـ عليها؟ وهـل تلك الحقائق منقولـة عن أشخاص آخرين، أو أنه شاهـدها أو سمعـها بنفسـه؟ أو أنـ ما يقوله عبارة عن رأـي وتحليلـ شخصـي؟

كثيرـ من الناس لا يدرـكون الفروقات بين ما ذكرـناه، ولـهذا فإنـهم يـتحدثـون بطـريقـة مبـهمـة وغـامـضة، حين يـرى الإنسان وقـوع حدـث ما بـنفسـه، فإنـ إمكانـية تـصـديـقه تكون أـكـبرـ، لكنـ حينـ يقولـ: أنا لمـ أـشاهـدـهـ، لكنـ حدـثـيـ منـ شـاهـدـهـ، فإنـ القـضـيـة تـصـبـحـ مـخـتـلـفةـ؛ فقدـ يـكـونـ الذـيـ شـاهـدـ غـيرـ قادرـ عـلـى تـفسـيرـ ماـ شـاهـدـهـ عـلـى نـحـوـ صـحـيـعـ، وقدـ يـكـونـ غـيرـ صـادـقـ فـيـماـ يـقـولـهـ، وكـلـماـ طـالـتـ سـلـسلـةـ الإـسـنـادـ صـارـتـ إـمـكـانـاتـ الوـهـمـ والـخـطاـءـ والـخلـيلـ أـكـبـرـ، وـمـنـ هـنـاـ بـرـزـتـ قـيـمةـ الـأـسـانـيدـ الـعـالـيـةـ لـدـىـ عـلـمـاءـ الـحـدـيثـ. أماـ حينـ يـكـونـ ماـ يـطـرـحـهـ الكـاتـبـ أوـ المـتـحدـثـ عـبـارـةـ عـنـ رـأـيـ شـخصـيـ، فإنـ التـأـكـدـ منـ صـحـتـهـ يـصـبـحـ غـيرـ مـمـكـنـ؛ فالـذـيـ تـأـكـدـ مـنـ صـحـتـهـ هـوـ الـحـقـائـقـ الـمـشـاهـدـةـ مـنـ قـبـلـ شـخـصـ

والمنقوله عن أشخاص آخرين، أما التحليل الشخصي فإنه يحتاج إلى محاكمة عقلية منطقية؛ لأنه قد يكون مبنياً على أساس صحيحة، وقد يكون مبنياً على أساس غير صحيحة، وقد وضع علماؤنا قاعدة جميلة تشير إلى ما ذكرناه حين قالوا: «إن كنت ناقلاً فالصحة، وإن كنت مدعياً فالدليل».

د - من المهم ونحن نسعى إلى الوضوح أن نبحث عن العلاقة التي تربط راوي الحديث أو صاحب الرأي بما يرويه ويطرحه، وأنا دائمًا أقول: إن تجرد الناس من أهوائهم وغضّ طرفهم عن مصالحهم ليس بالأمر البسيط، إننا لو نظرنا إلى ما تنشره الصحف اليومية تجاه الأحداث المختلفة، فإننا سوف نصاب بالفرغ؛ لأن تفسير الصحف الموالية للحكومات للأحداث متباين إلى حد بعيد لتفسير صحف المعارضة، ومن المؤسف أن ما يقال اليوم سوف يصبح جزءاً من تاريخ هذه الأمة، وسوف يأتي من يتخذ منه مادة يوظفها في فهم أوضاعنا وأحوالنا، مع أنها نعرف أن موضوعة معظم الصحف ليست مُرضية بالقدر الكافي؛ ومن هنا فإن نقد أي شيء مسموع أو مكتوب ينبغي أن يهتم بهم مصلحة صاحب الكلام في الطرح الذي يطرحه، ولأننا لن نفهم الأمور على الوجه الصحيح.

#### عقبات أمام الممارسة النقدية:

لا تحدث الأشياء المهمة والمطلوبة في حياة الناس يسر وسهولة؛ فالوعي الناقد مع أنه هو الذي يوقظ حس المجتمع على مشكلاته وقضاياها وأشكال قصوره... إلا أن ممارسة النقد ليست بالأمر السهل.

النقد نقدان: ذاتي وغيري؛ النقد الذاتي يشمل نقد الذات - بما هي شأن شخصي، ويشمل نقد الذات بما هي جزء من أمة وجزء من ثقافة وتاريخ وحضارة؛ أما النقد الغيري فهو موجه إلى ( الآخر ) القريب، والذي قد يكون أخاً أو ابنًا أو صديقاً أو واحداً من ينتهي إلى ثقافة الناقد، كما أنه قد يكون بعيداً ينتهي إلى حضارة مختلفة أو منافسة... ولا أود هنا أن أخوض في تفاصيل هذا الموضوع، لكن لعلي أتحدث عن أهم ثلاثة عقبات تواجه الممارسة النقدية:

- ١ - المحيط الثقافي الذي يغلّف عقولنا ومشاعرنا، ويمدها بالأفكار والرموز

والمفاهيم... يشكل أكبر عائق أمام نضج الوعي وممارسة النقد. الناس يميلون دائمًا إلى التفكير في إطار الثقافة التي تشعروا بها منذ الصغر، وهم يجدون أنفسهم - من غير وعي منهم - منخرطين في دفاع مستميت عن صواب تلك الثقافة وجمالها؛ بل تفردها بين الثقافات وتتفوقها عليها... من هو الشخص الذي يستطيع استعراض كل مفردات ثقافة قومه ليغرنها، ويبين بين غثها وسمينها؟ ومن أين يأتي بالأمس والأدوات التي يحتاجها في كل ذلك؟ هذه هي المشكلة. في بعض البلدان الإسلامية أفكار خاطئة بل مميتة تغير نكهة العيش وأسلوب الحياة على نحو كامل، وعلى سبيل المثال فإن جزءاً من مواطني إحدى الدول العربية الواقعة على الحيط يعتقدون أن (السمك) طعام العبيد، ولا يليق بالأحرار وبما أنهم ليسوا عبيداً، فهم لا يأكلون السمك، ويُظهرون استعداداً قوياً لمعاناة الجوع والمسغبة! وفي بعض البلدان لا يُطلب من المرأة حسن التبعل لزوجها فحسب؛ بل عليها إلى جانب ذلك أن تعامل أبو زوج وأخواته كما تعامل الأمة سيدها، وعليها أن تحمل كل ما لديهم من انحراف في المزاج وكل ما يعانونه من عقد نفسية، وهذا جزء من واجباتها اليومية مع أنا نعيش في القرن الحادي والعشرين!

في بعض البلدان الإسلامية يعامل الخدم في المنازل من رجال ونساء معاملة لا تراعي فيها حقوق الإنسان؛ بل يعاملون معاملة أدنى من المعاملة التي يحظى بها الحيوان في بلدان أخرى؛ فليس هناك ساعات محددة للعمل ولا للراحة، وليس هناك أي تقدير للمشارع، مع أن أولئك الخدم مسلمون موحدون. والمجتمع يغض النظر عن كل ذلك، ويعامل معه على أنه شيء عادي، وقد لا يخلو من مصلحة!

أمثلة كثيرة تفوق الحصر تدل على أن الوعي النقدي مهما كان عظيماً ويقظاً إلا أنه في النهاية محدود بحدود البيئة والمجتمع والثقافة؛ ومن هنا فإن المفكر يكون مفكراً حقيقياً بقدر تحرره من وطأة الثقافة الشعبية التي يتغذى عليها، ويكون مفكراً على مقدار مده نظره إلى خارج الصندوق الذي ولد فيه، وعلى مقدار تحكيمه الأصول الشرعية والمبادئ الأخلاقية وتحكيم المنطق السليم في المفاهيم والتقاليد السائدة.

٢ - الخوف عقبة أساسية أمام ممارسة النقد؛ وذلك لأن كثيراً من الناس - كما أشرنا سابقاً - يعودون أنفسهم حراساً على الثقافة السائدة ومدافعين عنها، وهم في

حمة الحماسة؛ لذلك لا يميزون بين الجيد من مفردات تلك الثقافة وبين رديتها؛ ومن ثم فإنهم يُظهرون نوعاً من الهلع تجاه من يوجه سهام النقد إلى ما يعدون أنفسهم مسؤولين عن حمايتها، وأذكر أنني كنت أتحاور مع بعض الزملاء والأصدقاء حول بعض الانكسارات في تاريخنا الإسلامي، وإذا بي أفاجأ أن هناك مثقفين يفتقرن إلى الحد الأدنى من الموضوعية، فهم إذا وجدوا نصاً يشير إلى موقف مجيد أو نصر مؤزر أو براعة لقائد من القادة أو نجاح لتجربة... قلبوه دون أي تردد أو مناقشة، وإذا ذكر أمامهم نص يفيد ما هو مغاير لهذا، قالوا: وما أدراك أن هذا النص صحيح؟! وأذكر أنني قلت وقتها: إذا كان تاريخنا عبارة عن أمجاد وانتصارات، فإن علينا أن نحيي عن الأسئلة حول أسباب تراجع أمّة الإسلام من مقدمة الأمم، لبحث عن مكان في المؤخرة!. نحن مع الحميمية للثقافة والتاريخ، لكن الحمية من غير نقد ومن غير مراجعة قد تنضي بالثقافة وأهلها إلى مزيد من الانحطاط!

هناك خوف من قبل الأشخاص المؤهلين لممارسة النقد؛ فالمتاحرون عن استمرار ما هو سائد أشكال وأنواع، فمنهم اختيار طيبون، ونواباً لهم حسنة. لكنهم مبتلون بشيء من عدم الاطلاع وشيء من ضيق الأفق، وهؤلاء يهاجمون على نحو شرس كل من يوجه سهام النقد إلى أي شيء سائد الآن، أو كان سائداً في يوم من الأيام، وأقل ما يمارسونه هو عزل الناقد والتحذير منه واتهامه بشتى أنواع التهم، وقد منحت شبكة (الإنترنت) هؤلاء أدوات إضافية لذلك؛ وإلى جانب هؤلاء هناك أشخاص مستفيدين من كل أزمات الواقع ومشكلاته، إنهم ما بين ظالم ومستبد ومتاجر بعقل الناس وأرذافهم. إن هذه الفئات من الناس تتضاد من النقد كما تتضاد بعض المخلوقات من الروائح الطيبة؛ ولهذا فإنهم يحاولون إبقاء كل شيء على حاله، ويمارسون في سبيل ذلك نوعاً من الإرهاب والتخويف لكل من يحاول فتح وعي الناس على الظلم الذي يتعرضون إليه. المؤسف حقاً أن هذه الفئات التي تتحطط أحياناً إلى درجة (عصابات المافيا) موجودة في شتى أنحاء العالم، ولإمكاناتهم في الضغط كبيرة جداً، وتجاهلهم صعب ومكلف؛ ولهذا فإن على المجتمع كله أن يسعى إلى أن يكون لديه قضاء نزيه وسريع في حسم القضايا، وأن تكون لديه صحافة تمنع بالصدق والحرية والمسؤولية، حتى يشعر الناس بالأمن والطمأنينة.

٣ - هذا العائق يتعلق بالقصور الذاتي للمفكر / الناقد؛ حيث إن المرء قد يدرك تماماً ما الذي عليه أن يقوله، لكن يمنعه من ذلك ليس الخوف من العزلة أو الأذى، ولكن الخوف على المكاسب التي حصل عليها أو الخوف من عدم تحقيق الطموحات المادية التي يتطلع إليها.

إن هناك حقيقة ساطعة، هي أنه حين تشتت رغباتنا، وتسع دائرة مصالحتنا يختفت صورت عقولنا، فيتحول الصوت الجهوري إلى همس خفي لا يكاد يسمعه أحد غير صاحبه، لا أحد يطالب المفكر بالتخلص عن همومه الشخصية والمعيشية من أجل هموم الأمة، لكن الجميع يطالبونه بأن لا يزيد في طموحاته إلى درجة يصبح تحقيقها رهناً بتخليه عن مبادئه ورسالته ودوره المرتقب. نحن لا نستطيع أن نحصل على كل شيء، ولا بد من التضحية بعض الأشياء حتى نحصل على بعضها الآخر، والمهم في كل الأحوال أن يسعى المفكر لأن يكون في وضعية لا تحمله على قول الباطل إن لم يستطع قول الحق.

\* \* \*

## كيف فهم الواقع؟



أشرت فيما مضى إلى أن املاك العالم والتخصص لرؤية نقدية للواقع والمجتمع هو الذي يرتفع به إلى درجة (مفكر) ومن الواضح أن القدرة على نقد الواقع تعني توفر درجة حسنة من فهمه والوعي به لدى الذي يقوم بالنقد، وإنما كان فهم الواقع على هذه الدرجة من الأهمية والخطورة؛ لأن المفكر والعالم والداعية والمصلح والباحث جمیعاً يستهدفون في نهاية المطاف شيئاً واحداً، هو تطوير الواقع وإصلاحه والارتقاء به وتجاوز عقباته وحل مشكلاته، وعلى مقدار تمكناً من تشخيص الواقع وتحديد ملامحه يكون نجاحنا في كل ذلك. ومن الملحوظ أن كثیراً من المصلحين والدعاة باتوا بركزون على نحو واسع على مسألة (فقه الواقع) وهذا منهم مؤشر إلى النضج والوعي بمتطلبات المرحلة.

### بداية الفهم:

أخبرنا الله - تعالى - بأننا نولد ونحن جاهلون بكل شيء حيث قال - سبحانه -:

**﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَيْكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ شَكُورُونَ﴾** [الحل: ٧٨]، لكنه - سبحانه - زودنا بالأدوات التي في إمكانها التقاط الكثير من صور الواقع ومعطياته والكثير من المعرف والخبرات والتجارب التي تراكمت لدى البشرية، وتلك الأدوات هي الحواس الخمس: السمع والبصر والشم والذوق واللمس، وقد كانت العرب تسميتها (المدارك الخمس)؛ لأننا بواسطتها ندرك الوجود، وكل ما يحيط بنا. إن الأذن ليست هي التي تسمع، كما أن العين ليست هي التي تبصر، وإنما الذي يقوم بهذا وذاك هو الدماغ، والحس الخمس عبارة عن وسائل أو قنوات لتمرير الإشارات والمعطيات والصور إلى الدماغ، ومن الواضح أن قدرة هذه الحواس على التقاط الواقع وتمريره محدودة، وهي جمیعاً تعمل في ظل شروط محددة، كما أن هناك أشياء كثيرة لا تقع في مجال عمل أي حاسة من الحواس الخمس، لكننا

نؤمن بوجودها ولنلمس آثارها بل إننا نستخدمها ونستفيد منها، أضف إلى كل هذا أننا لا نرى سوى جزء صغير جدًا من الأحداث الجارية، ولا ندرك سوى جزء محدود من الأوضاع السائدة، فإذا كنت تسكن في مدينة كبرى - مثلاً - فإنك لا ترى ولا تسمع إلا القليل جدًا من الأحداث والواقع والتطورات الجارية فيها مهما بذلت من جهد، ومهمما امتلكت من وسائل.

### ما الذي يعني هذا؟

إن هذا يعني شيئاً مهيناً، هو أننا سنجاول فهم بعض ما يجري في الواقع وبعض ما هو سائد فيه، وسنحاول فهم نماذج عنه، أما الإحاطة به، فهي فوق طاقة أي بشر. وهذا يقودنا إلى شيء آخر، هو أن كثيرين منا يطّلعون على أشياء لا يطلع عليها غيرهم، ويجهلون أشياء كثيرة يعرفها غيرهم، مما يعني أننا لن نحصل أبداً على رؤية واحدة وموحدة للواقع، وهذا من جملة القصور البشري.

### الخريطة الإدراكية:

حين تستقبل حواسنا البيانات والمعلومات والمشاهدات والسموعات عن ظاهرة من الطواهر أو حدث من الأحداث... فإنها تنقل ذلك إلى الدماغ، وهنا يقوم الدماغ في النظر فيها من خلال ما لديه من مبادئ ومفاهيم وانطباعات سابقة، ويحاول وبالتالي إصدار حكم عليها أو تحديد موقف منها أو تنظيم رد فعل معين تجاهها، ومن الواضح أن الإنسان مع الأيام تصبّع لديه قناعات و المسلمات وأفكار راسخة حول عدد كبير من القضايا المترابطة، ومن هذه المسلمات... يتشكل لدى الإنسان ما يمكن تسميته (الخريطة الإدراكية)؛ الخريطة الإدراكية يتخذ منها صاحبها مرجعاً وإطاراً لفهم ما يراه ويسمعه، ويشعر به ومرجعاً وإطاراً لتفسير الأحداث الجارية... بل يمكن القول إن الخريطة الإدراكية التي يتلکها الواحد منا هي نموذجه الشخصي الذي يجعله يرتكز على بعض التفاصيل التي يطلع عليها، ويهمل تفاصيل أخرى لأنها تافهة أو غير مهمة، ولا شك في أن الجهات الأساسية التي تساهم في رسم الخريطة الإدراكية لدى الشعوب والأفراد، ثلاثة: الأسرة والمدرسة ووسائل الإعلام. ولنضرب بعض الأمثلة الشارحة لمسألة الخريطة الإدراكية:

أ - يذكرون أن (ماري أنطوانيت) ملكة فرنسا قبل الثورة كانت تحيا حياة مترفّة ومرفهة ومعزولة تماماً عن العالم الخارجي، وقد حدث أن وجد بعض الحراس فلاخاً مغمى عليه من شدة الجوع، فأتوا به إليها، فأشفقت عليه، وقالت: لا يصح لك أن تتبع هذا (الريجيم) القاسي! وفي رواية أخرى أن بعض حاشيتها أخبروها أن بعض الفلاحين مضى عليهم أسبوع دون أن يتناولوا شيئاً من الخبز، فقالت: لماذا لا يأكلون (الجاتو)؟

إن الجوع والفقر ليسا موجودين في خريطة الإدراكية؛ ولهذا فإنها استبعدتهما في تفسير ظاهرة إغماء الفلاح وفي ظاهرة عدم عثور الفلاحين على الخبز.

ب - لدى كثير من الجماعات الصوفية ارتباط قوي بين المريد وشيخه؛ فهو يحدُّثه عن كل شيء، ويسمع منه عن كل شيء، وإن الخريطة الإدراكية لدى كثير من المربيدين تقوم على اعتقاد قوي بمعرفة الشيخ وحكمته وصلاحه وحسن تدبيره لأمور طلابه ومربيده... وهذه المسَّلِمات جعلت المريد يلتسم كل الأدلة والبراهين التي تؤيد صواب ما يسمعه من شيخه، كما جعلته يعرض إعراضاً شبه تام عن كل نقد يوجه إلى الشيخ؛ لأن وقوع الشيخ في الخطأ، وقيامه بشيء غير لائق أو مجاف للحكمة ليس داخلاً في خريطة الإدراكية، وقد عبروا عن هذا المعنى بعدد من المقولات، منها: من قال لشيخه: (لم) لم يفلح أبداً. ومرادهم: أن من سأله شيخه - في الطريق والسلوك - عن سبب تصرف من تصرفاته على وجه الاعتراض لم يستند منه، ولم يرتفق في مراتب السالكين! ومنها قولهم: على المريد أن يكون بين يدي الشيخ كلمات بين يدي المغلل. أي أن يستسلم لتوجيهاته استسلاماً كاملاً كاستسلام فاقد الإرادة! ومنها قولهم: المريد بين شيخين كالرجل بين سيفين، وهذا كناية عن الضرر العظيم الذي يلحق المريد إذا ما تلقى التوجيهات من شيخين؛ حيث إن الأصل أن لا يكون له سوى شيخ واحد حتى لا يمزقه التشتت والتجادب بينهما. وقد اعترض كثير من المربيدين على بعض شيوخهم حين طلبو العلم الشرعي مما أدى إلى تغيير في خرائطهم الإدراكية، وصاروا يرون الأخطاء الشنيعة التي كانت لدى بعض أولئك الشيوخ.

ج - لدى القبائل المعزولة في الصحراء خرائط إدراكية متشابهة، فقلة احتلالها

بالأغرب وضعف اتصالها بالمدينة جعلها تنظر إلى العالم بأسره عبر عدد من المفاهيم القليلة القائمة على التعصب للقبيلة وعلى اعتقادها بحيازة كل الفضائل؛ حيث يعتقد أفراد القبيلة أن هواهم هو أنقى الهواء وطعامهم أصح الطعام، وعاداتهم وتقاليدهم واجبة الاحترام، كما أن حياة الbadia هي الحياة الطبيعية الصحيحة... وحين يأتي من يشكك في شيء من هذه الأمور فإنه قد يُنظر إليه على أنه عدو أو جاهل... لكن حين يذهب أبناء تلك القبائل إلى المدن، ويدرسون في الجامعات يرون أنها جيدة وفاضلة مغايرة لما أُلفوه، وحيثند تبدأ خرائطهم الذهنية في التغير. ما هو موجود عند القبائل المعزولة موجود أيضاً عند الصهاينة وموجود لدى المذاهب والتنظيمات السرية، والذي يجمع بينها جميعاً هو العزلة والتخيّل والشعور بالفرادة.

د - اعتقاد المسلم الحق يسهم في رسم خريطة الإدراكية على نحو واضح؛ فإنمانا بالقضاء والقدر، وإنما برحمة الله وحكمته البالغة إلى جانب إيماناً بأن هذه الدنيا دار ابتلاء، وأن الابلاء تارة يكون بالخير وتارة يكون بالشر... إن كل هذا يجعل الواحد منا ينظر إلى كثير من الأحداث نظرة مختلفة عن نظرة الآخرين من لا يعتقدون مثل عقيدتنا، ويكتفي في هذا المقام أن نستحضر دلالات قوله عليه السلام: «عجبنا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»<sup>(١)</sup>.

إن المسلم حين يفقد ماله أو ولده، أو يصاب بمرض من الأمراض فيحمد الله على ما أصابه، ويشتري عليه، ويتحصن بالصبر، ويبيت همه إلى ربه - سبحانه - وهو حين يفعل ذلك يتنتظر من مثوبة الله - تعالى - وتعويضه أفضل وأبقى مما فقد، وحين ينعم الله - تعالى - على عبده بنعمة من نعمه التي لا تُنْحَصِّي فإنه يشعر بفضل الله عليه وتوفيقه له؛ ومن ثم فإنه يسعى إلى شكره وحمده واستخدام نعمه فيما يرضيه، وهذا التصور يولد لدى المسلم حالة من التوازن الشخصي في حالة النعمة وحالة النعمة، ومن هنا وجدت تلك الظاهرة العالمية، ظاهرة أن المسلم لا يتحرر...

ما الذي يعنيه كل هذا؟

إنه يعني الآتي:

- ١ - الخريطة الإدراكية التي يملكونها كل واحد منا ينسجها عقله، لكنها فيما بعد تصبح أشبه بالسياج الذي يحول دون عمل العقل بطلقة وحرية.
  - ٢ - يظل العقل قادرًا على تغيير خريطته بشرط أن يفهم القصور الذي تسببه له تلك الخريطة.
  - ٣ - تغيير الخريطة الإدراكية يكون بقيام الواحد منا بدراسات موسعة حول آرائه وأفكاره العامة في الحياة، وإن للمقارنة نصيب الأسد في تطوير الخريطة الإدراكية؛ بل في امتلاك أعلى درجات الوعي بأنفسنا وبالعالم من حولنا.
- الواقع طبقات:

حين نزيد دراسة الواقع وفهمه على نحو جيد، فإن من الصار الاستهانة بهذا الأمر؛ لأن اعتقادنا بأن فهم الواقع سهل ميسور، سوف يحول دون بذل جهد جيد في سبيل فهم ما نزيد فهمه، وحين تنظر إلى مداولاتنا في واقع الأمة على الصعيد الشعبي - وأحياناً على الصعيد الأكاديمي والتخبوى - تجد أننا نتكلّم كلام الوائق العارف بدقة الأمور، لكن نفاجأ بعد نقاش طويل أننا لم نملأ أكفنا من أي شيء، وأننا بدأنا مختلفين في رسم حدود الظاهرة موضع البحث، وانتهينا كذلك مختلفين، مما يدل على أن تبسيط الأمور هو الطريق إلى الإخفاق في فهمها!

لا بد من التسليم من أن محاولة اجترار الواقع وامتلاك صورة واضحة وموثقة عنه تشبه محاولة رجل يزيد حفر بئر لاستخراج الماء منه، وقد وجد ذلك الرجل أنه كلما تعمق في الحفر أكثر، جاءته طبقة صخرية أصلب وأعنى من ساقتها، والفارق بين الحالتين هو أن بحثنا في الواقع سوف يوصلنا في نهاية المطاف إلى حزمة من الأسئلة التي لا نملك أي إجابة عليها؛ حيث إن من الثابت أن في كل ظاهرة من الظواهر عنصراً غيبياً استثار الله - تعالى - بعلمه، وحجبه عن جميع الناس، كما أن في كل ظاهرة كبيرة عناصر يعرفها بعض الباحثين ويجهلها آخرون، وأنا هنا لن أشرح ما أريد توضيحه من خلال الحديث عن الوضع الأخلاقي لدولة أو مدينة أو قرية،

ولأننا أود أن أطرح بعض الأسئلة حول واقع أسرة من الأسر المسلمة: أسئلة حول مدى صلاحها وترتبطها في الحياة لنعرف مدى صعوبة معرفة الواقع...

أسرة زيد مكونة من سبعة أشخاص: الأبوان وثلاث بنات وابنان، وهذه معلومة يقينية.

السؤال: هل يمكن وصف هذه الأسرة بأنها صالحة ومتربطة؟ وهل يمكن وصفها بأنها ناجحة في مهامها المختلفة؟

الجواب: علينا أولاً أن نعرف المقصود بـ(الصلاح)، وهنا سندخل في منطقة اجتهادية، فأنما شخصياً أعتقد أن الشخص الصالح هو الذي يؤدي الفرائض والواجبات، ويبتعد عن الكبائر والموبقات، وإذا قصر في واجب، أو وقع في كبيرة، سارع إلى التوبة النصوح. هذا رأيي، وهناك من قد يخالفني فيه، لكن لو فرضنا الاتفاق على هذا، فسوف يثور في وجهنا موضوع تعريف الكبائر؛ حيث إن من أهل العلم من يقول: إنها إلى السبعين أقرب منها إلى السبع الواردة في الحديث، ومن هنا فإننا إذا عرفنا أحوال تلك الأسرة على نحو حسن، فسوف يبرز لنا الخلاف في تعريف الكبائر، وبناء على ذلك الخلاف فقد يحكم عليها بعض الناس بالصلاح، وبعضهم سيقولون: إن صلاحها منقوص...

سؤال: إذا قلنا: إننا لا نعرف عن وضع أسرة زيد إلى الخير فيما يedo لنا، لكن ما العمل إذا كنا نرى اثنين من أبنائها يسافرون مع أصدقائهم (العزاب) إلى بلاد موبوءة بالجرائم الجنسية ومعروفة بالتحلل الأخلاقي؟ أليس في هذا ما يثير الشكوك حول صلاحها؟ طبعاً سيكون الجواب: إن هذا مؤشر غير جيد، لكن لا يصلح للاحتجاج، فإذا جاء من يقول: إن للشايدين هناك مصالح تجارية، فإن الموقف سيختلف اختلافاً كبيراً، وسنجد أن نقاش مثل هذا الموضوع يدخل في حيز سوء الظن وتتبع عورات المسلمين، لكن هذا لا يعني أن الشكوك قد انقطعت على نحو نهائي...

أما السؤال عن ترابط تلك الأسرة ونجاحها فإن الجواب عليه سيكون أصعب؛ لأن مسألة الصلاح مسألة شرعية، ولها حدود شبه واضحة، أما الترابط والنجاح فهما من الأمور الفامضة التي سنلاقي الكثير من العنت في تعريفها؛ ولهذا فإن أي جواب على هذا التساؤل سيكون ظبيطاً، وكل ما سيذكر في هذا الشأن سيكون عبارة عن شيء

نسبي يختلف باختلاف الناظرين. نستطيع أن نطرح الكثير من تلك الأسئلة حول وضع تلك الأسرة، دون أن نجد عليها أي جواب بسبب غموض التعريفات للأمور التي نسأل عنها أو بسبب عدم توفر المعلومات الكافية، وهكذا سنجد أننا كلما طرحنا سؤالاً جديداً وجدنا أنفسنا أمام طبقة أعمق من طبقات واقع تلك الأسرة، مما يجعلنا نقلب في الظنون والأوهام.

ما الذي يعنيه هذا الكلام؟

إنه يعني الآتي:

١ - لدينا دائماً معرفة سطحية بما يجري، والإحاطة الجيدة تحتاج إلى المزيد من التعمق.

٢ - إذا كان الواقع كل ظاهرة من الظواهر طبقات، بعضها فرق بعض، فإن المهم أن ندرك أن احتراق أي طبقة من طبقاته يحتاج إلى وسائل جديدة، وأحياناً إلى منهج جديد، وهكذا يكون التعمق في فهم الواقع مشرطاً بوفرة ما لدينا من مناهج ووسائل تسعفنا في ذلك.

٣ - مهما كانت قدرتنا على فهم الواقع عظيمة، ومهما كانت مناهجنا وأدواتنا فعالة، فإن كثيراً من النتائج التي سنحصل عليها سيكون غير حاسم؛ ولهذا فإن علينا أن تكون حذرين في إطلاق الأحكام المتعلقة بها، ولا كنا مجازفين وغير موضوعين.

٤ - الواقع يتحمل دائماً اتجهات مختلفة ووجهات نظر متباعدة؛ فلنعدر المخالف في ذلك، ولبعذرنا أيضاً من يخالفنا.

**مفاهيم تساعد على مقاربة الواقع.**

تدرك عقولنا الواقع، وتخلل أحداث الماضي، وتستشرف أحداث المستقبل عبر ما في حوزتها من تعريفات ومصطلحات وأفكار ومفاهيم ومعلومات، وطبيعة إدراكيها لكل ذلك تسجم إلى حد كبير مع طبيعة المفاهيم... من حيث الصحة والوثاقة والدقة... وبما أن الواقع عبارة عن بحر متلاطم الأمواج، كما أنه ذو طبيعة زئبقية، فإن من المهم أن نمتلك أكبر قدر من المفاهيم التي تساعدنا على الاقتراب منه وملامسته قدر الإمكان، ولعل من أهم هذه المفاهيم الآتي:

## ١ - الواقع ليس انعكاساً للقيم:

يعتقد الناس في كل مجتمع من المجتمعات عدداً من المبادئ والقيم، وإن الذي يتبادر للذهن في أول الأمر أن الذي يرى أن الصدق فضيلة من أمهات الفضائل، يصر على أن يكون صادقاً، كما أن الذي يعتقد أن التبسم في وجوه الناس محبوب من محظيات الله - تعالى - يحرص على أن يكون ب تماماً دائمًا، كما أن الذي يرى حرمة شرب الخمر، يمتنع عنه على نحو قطعي وهكذا... وهذا الذي يتبادر هو الشيء المنطقي، وهو المأمول، لكنه ليس واقعياً، والسبب أن وضوح هذه القيم ورسوخها في عقول الناس ونفوسهم لا يكون دائمًا على الدرجة المطلوبة، ومع أن الناس يحاولون تحقيق مصالحهم في إطار المبادئ والقيم التي يحترمونها، لكن بما أن مطامع الناس ومخاوفهم ورغباتهم كثيرة ما تكون غير محدودة بحدود، فإن معظم الناس قد تعودوا تجاوز القيم التي يؤمنون بها، أو الضغط عليها أو تأويلاً لها وإيجاد نوع من التكيف معها...

ومسألة التأويل هذه مهمة في هذا الشأن؛ حيث إن من السهل على أي إنسان أن يقول: أنا رب أسرة كبيرة ومرتبى قليل؛ ومن ثم فإن من حفي أن أقبل (الرسوة) حتى أطعم أولادي وأعلمهم... كما أن في إمكان أي إنسان أن يقول: أنا كنت لأنني إذا صدقت فسوف تنزل بي عقوبة ظالمة، لا أستحقها، ولهذا فإن الكذب بالنسبة إلى مشروع، أو هو ارتكاب لأخف الضررين، وقد كان بعض السلف يقولون: إنما لعجب طالب علم لا يقوم الليل! وذلك لأن طالب العلم هو أعرف الناس بفضل هذه العبادة، لكن الواقع يدل على أن كثيراً من العامة الطاعنين في السن يحرصون على قيام الليل أكثر من طلاب العلم. إن الظروف المعيشية الصعبة التي يمر بها الناس يجعل وعيهم يتجه إلى البحث عن وسيلة للبقاء أحياء، ولتأمين الحد الأدنى من حاجاتهم الضرورية، وهذا يجعل قيمهم توارى، وتبتعد عن سطح الوعي؛ ومن ثم يكتثر خروجهم عليها، وهكذا فقد ذكرت بعض الدراسات أن في إحدى العواصم الإسلامية ما يزيد على مئتي ألف فتاة يكسن رزقهن من وراء احتراف الرذيلة مع إيمانهن بحرمة الزنا ومع رفض المرأة بطبيعتها لعاشرة الرجال على هذا النحو البهيمي، لكن الفقر الأسود يجعل الناس على ارتكاب المحظورات واستساغة ما لا يُستسامغ! هذا كله يعني شيئاً واحداً هو أن لا نفتر الواقع على أساس القيم المعلنة لدى

الذين يعيشون فيه مع أننا نسلم بتأثير القيم - ولو على نحو جزئي - في سلوك الناس، لكن لا بد مع ذلك من قراءة الواقع على نحو مباشر.

## ٢ - التغيير سمة كل واقع:

الناس لا يحبون التغيير لأنّه موحش ومكلف، إنهم يريدون لكل شيء أن يظل على حاله، وحين يصل المرء إلى الثلاثين يبدأ في التحديق في المرأة مراقباً صفاء بشرته وسوداد شعره، يريد لكل شيء أن يظل في القمة، لكن هيبات فقد مضت سنة الله تعالى - في العالمين أن يتقلّوا من حال إلى حال في مضمار الابلاء الطويل، ومن هنا فإن ما نتمناه، ونظنه ثابتاً تخترقه تحولات داخلية عميقة، لكنها بطيئة ومتدرجة، حين ننظر في المرأة قد لا نجد أي فرق بين ما تعكسه من ملامح وجوهنا اليوم وبين ما عكسته من خمسة أيام، لكن سنجد فرقاً واضحاً إذا كانت المدة الفاصلة عشر سنوات. هكذا الواقع يتغير على نحو بطيء، وحين تود معرفة حجم التغيير الذي حدث، فحاول مراقبة التغيرات عبر عشرين سنة: كيف كان حال التعليم في البلد - مثلاً - قبل عشرين سنة، وكيف أصبح الآن؟ وستجد قطعاً تغيرات بعضها جيد وإنجاعي، وبعضها سلبي ومحزن... حين تغيب عن بلدك عشرين سنة، وترغب في العودة إليه فإنك تتخيّل بشوق بالغ لحظة وقوع عينك على موقع الصبا ومعاهد الطفولة، وتتخيل بشوق أشد لحظة عناقك مع أهلك وأقربائك وأصدقائك، لكن حين يتحقق الحلم وتجلس مع الناس يوماً أو يومين، تجد أن كل شيء قد تغير، وأن ما كان يجمعك بالأصدقاء من حميمية وقيم ومفاهيم مشتركة لم يبق على حاله؛ بل أنت عليه يد الزمان، فغيرت فيه ما شاء الله أن يتغير، وبعض الناس عادوا إلى أوطانهم بعد ثلاثين سنة من الغربة، وندموا على العودة؛ لأنّهم وجدوا واقعاً اجتماعياً لا يسر، فسموا أنفسهم لم يعودوا حتى يظلو محتفظين بالذكريات الجميلة عن تلك الأوطان لتنظر معاً إلى العربية الفصحى؛ فهذه اللغة العظيمة والجميلة مقعدة على نحو دقيق على مستوى النحو والصرف، فتحن حين تنطق بجملة فصيحة نرفع وننصب ونجز... على النحو الذي فعله الأجداد قبل ألف وخمسمائة عام، لكن هل كثرة القواعد وشمولها استطاعت حماية العربية من التغير والتتحول؟ تستطيع معرفة الجواب من خلال مقارنة الأسلوب الذي تلمسه وأنت تقرأ هذا الكتاب مع أسلوب كتاب

(الرسالة) للشافعي، أو كتاب من كتب الحافظ أو ابن رشيق... كما تستطيع معرفة الجواب من خلال مقارنة أسلوب قصيدة لعمر أبي ريشة مع قصيدة لحسان بن ثابت أو الفرزدق... لا شك أنك ستلحظ فروقاً كبيرة، وستجد صعوبة بالغة في فهم نثر السابقين وشعرهم حتى لو وضعت بين يديك معجماً كبيراً مثل (لسان العرب) لابن منظور. نعم الواقع يتغير لأن التقنية التي نستخدمها تتغير وتغييرنا معها وعلى مدار التاريخ كانت التقنية ذات اليد الطولى في تغيير الناس والواقع. رؤيتنا للأشياء تتغير وطموحاتنا، أيضاً تتغير، ومع تغير هذه وتلك يتغير العالم أيضاً.

ما الذي يعنيه هذا؟ إنه يعني:

- ١ - كل واقع يتغير، لكن بوتيرة مختلفة بحسب العوامل المؤثرة فيه.
  - ٢ - البحث عن أمور تظل ثابتة غير منطقية ولا واقعية.
  - ٣ - إذا أردنا فهم اتجاهات تغير أي واقع، فلننظر إلى طبيعة القوى المحرّكة له.
  - ٤ - تغيير الواقع قد يكون نحو التحسن وقد يكون نحو التدهور.
  - ٥ - حتى لو رأينا الشكل ثابتاً فإن المضمون يتعرض للتتطور.
- ٦ - من ظروفهم تعرفونهم:

أنا لا أسلم بوجود الخاتمية في القضايا الإنسانية والاجتماعية؛ فالحالات ~~تحل~~ فطر الإنسان على الشعور بكرامته وعلى المقاومة للمكاره، كما أنه متى بعنة الإرادة الحرة؛ ولهذا فإنه يحاول دائمًا أن يعيش وفق اختياره وقناعته كما أن الوتيرة الروحية حين ترفع لدى الإنسان، فإنه يجد نفسه قادرًا على التضحية بكل شيء - حتى حياته - من أجل هدف نبيل أو سلامة شخص عزيز - كما يفعل الشهيد - هذا كله صحيح وثابت وملموس، لكن علينا أن نقول أيضًا: إن الناس يخضعون في معظم الأحيان للظروف التي يعيشون فيها والمعطيات التي تطأ على حياتهم الشخصية، هذا ما أود توضيحه هنا. إن اهتمامنا بفهم الواقع هو في الأساس من أجل فهم الواقع الناس حتى نتمكن من مساعدتهم والتعامل معهم وتوجيههم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم، وهذه بعض المؤشرات في هذه القضية:

أ - للمكان الذي يسكن فيه الإنسان تأثير في نفسيته وأخلاقه وعلاقاته ومدى

تنظيمه لشئونه، كما أنه يؤثر في طموحاته وتطلعاته... في الأحياء الراقية من المدن الكبرى تلاحظ الآتي:

- يشعر الناس أكثر بالرفاهية.
- طموحاتهم واسعة؛ لأن ما هم فيه من رخاء يغريهم بطلب المزيد.
- يميلون إلى العزلة عن المحيط، وتمتد عزائمهم أحياناً إلى التقصير في التواصل مع الأرحام وأداء الصلاة جماعة في المساجد.
- يتحدثون في الكماليات وفي الصفقات الكبيرة.
- لا يميلون إلى سماع أخبار الكوارث وحالات الفقر الشديد، وكل ما يعكر المزاج.
- لا يتدخلون كثيراً في شؤون الآخرين.
- يبحرون الدقة في المواعيد ويميلون إلى اللقاءات القصيرة.
- أما في الأحياء الشعبية المزدحمة فيختلف الكثير مما ذكرناه، ومن ذلك:
- يعرف الناس الكثير عن بعضهم بعضاً، وترتبط بين الكثير منهم قربات وصلات نسب.
- كثيراً ما يشتعل السكان هنا بالحديث عن أسعار المواد الاستهلاكية، وكثيراً ما يتحدثون عن النقص في الخدمات الأساسية.
- يتدخل الناس في شؤون بعضهم كثيراً، ويكثر بينهم التحاسد.
- ينفتح الناس على بعضهم في الأحياء الشعبية أكثر، كما أن تعاونهم وتلامهم في السراء والضراء أشد.
- يكون للعرف قوة ضاغطة ومؤجّهة للسلوك، ويخشى الناس كثيراً على سمعتهم من أن تلحقها أي شائبة.
- المستوى المعرفي والثقافي يكون في العادة أقل، ونسبة البطالة تكون أعلى.
- المشاعر الدينية أقوى ولا سيما تلك المتعلقة بأحوال المسلمين وقضاياهم الكبرى.
- كثيراً ما تكون الطموحات محدودة بسبب صعوبة الظروف المعيشية وبسبب قلة النماذج الناجحة.

- يستمدون كثيراً من سعادتهم من بساطة عيشهم وافتاحهم على بعضهم، ويبلون إلى أن تكون أفراحهم جماعية، ويبحثون عن أسباب للاجتماع التكرر وال التواصل.
- ب - للغنى والفقر تأثير كبير في حياة الناس، ومع أن الله - سبحانه وتعالى - ابتلانا بالرخاء والشدة والعطاء والمنع، إلا أن كل واحد منها يترك تأثيراً مختلفاً عن تأثير الآخر في حياة البشر، وهذه بعض الإشارات السريعة في هذا:
- من المهم أن نفرق في نظرتنا لل الفقر والغنى بين الثراء الفاحش وبين الغنى المعتدل، كما أن علينا أن نفرق بين الفقر المدقع وبين الفقر الح悱 الذي يكون الفقير معه قادرًا على اقتناه بعض الكماليات وعاجزًا عن اقتناه بعضها الآخر، وفي هذا الإطار يمكن أن نقول: إن المجتمع حين يشتعل على كتلة صغيرة من الأثرياء الكبار وكتلة كبيرة من الفقراء المدقعين يكون مجتمعاً مريضًا، والمجتمع الجيد هو الذي تشكل الكتلة الكبرى فيه تلك الفئة التي تجد كل حاجاتها الضرورية من مطعم وملبس ومسكن وتعليم وعلاج؛ بالإضافة إلى شعورها بالقدرة على الحصول على بعض الكماليات والمرفهات، وهذه الكتلة هي الطبقة الوسطى، وتنذر (البيان) بوصفها نموذجاً للدولة التي تقل فيها الفروق في الدخل بين كبار الموظفين وصغارهم، وهذا ما على مجتمعاتنا السعي إليه. إذن نحن ستحدث هنا عن تأثير الثراء الفاحش والفقر المدقع بوصفهما مصدرًا لتشكيل بيئة متكاملة للأثرياء والفقرا، وهذه مقاربة سريعة في هذا الشأن:
  - لا بد أن نفرق بين الآباء الذين صنعوا الثروة وبين الأبناء والأحفاد الذين يستمتعون بها، الذين صنعوا الثروة يتمتعون بروح عصامية، ويكونون أكثر توازنًا في الإنفاق، وقد يبلون إلى الإمساك، أما الذين يستمتعون بالثروة فلهم شأن آخر؛ حيث إن الثروة تصبح مصدر إفساد لكثير منهم، ولهم في بعض الأحيان أخلاق المتكلمين عديي الأهداف.

- إذا نظرنا في تفاصيل الحياة الأسرية للأثرياء جدًا، فإننا نجد أنهم لا يعرفون الكثير عن أطفالهم؛ حيث إن الكبار مشغولون في تسيير الأموال تارة والاستمتاع بها تارة أخرى، وكثير من شؤون الصغار موكل للخدم والسائلين والمساعدين والمساعدات... ولهذا فإن الرابط الأسري بينهم أقل، وإن كانت هناك درجة عالية من احترام الصغار للكبار، ودرجة عالية من تدليل الكبار للصغار، وحين تحدث مشكلة كبرى لأحد

الأبناء يدركون أنهم قد فرطوا وغفلوا عن أسرهم أكثر مما هو مألف.

أما في الأسر الفقيرة جدًا، فإن الترابط الداخلي يكون على أشدّه، وبسبب الحيرة في تدبير الشأن اليومي وبسبب البطالة الجزئية أو الكلية الضاربة أطنابها لدى الأسرة، فإن الكبار يعرفون كل شيء عن الصغار، ويتدخلون في كل تفاصيل حياتهم، كما أن رقابتهم عليهم تكون صارمة، مما يجعل الفرصة أمام نمو الرازق الداخلي لدى الأطفال ضعيفة.

- الحساسية نحو الإهانة واستخفاف الآخرين لدى الأثرياء تكون أعظم، وهذا الشيء طبيعي؛ لأن الثروة تصونهم عن الحاجة إلى الناس، وتدفع الآخرين إلى أن يكونوا في خدمتهم، كما أن طبيعة الأعمال التي يمارسونها تمنحهم التعيز في المجتمع والكثير من النفوذ، أما الفقير فقرًا مدقعاً، فإنه يشعر بأنه في أمس الحاجة إلى مساعدة الآخرين واحسانهم، كما أنه قد يجد نفسه وقد افترش الرصيف، أو سكن في خيمة في أحد مخيימות اللاجئين، كما أنه كثيرون ما يجد نفسه في عمل طفل أو عمل بسيط يخدم من خلاله الموظفين وغيرهم على نحو مباشر، وهذه الأوضاع كلها تجعله في وضع مهين، وتجعل إحساسه بالكرامة التي يشعر بها الأثرياء أقل، ولذلك حتى تعرف صواب ما أقول أن تأمل في التاريخ والواقع؛ إذ إن الإنسان لا يشعر بالكرامة، ولا يصون نفسه من إهانة الآخرين له بمجرد تقديره لذلك أو بمجرد حثنا له على أن يكون كذلك؛ فالروح مهما كانت عظيمة ومتينة تظل محدودة بحدود الجسد، والمشاعر لا تعيش في فراغ؛ بل لا بد لها من معطيات تغذيها، وتمدها بأسباب البقاء، ومن هنا نجد أنه - عليه الصلاة والسلام - سأل الله - تعالى - التقي والغني، واستعاد به من الكفر والفقر وعداب القبر. إن الفقر ظل ينهش في كرامة كثير من المسلمين في كثير من بقاع الأرض قرؤنا مطالوة، مما رسم للديهم فكرة الاستسلام للظروف الصعبة والرضوخ للظالمين من كل الأشكال والألوان!

- لدى الأثرياء وعي صحي أفضل، وهم يجدون العلاج الممتاز، كما أن هناك مؤشرات تدل على أن اهتمامهم بالطعام الصحي أكبر، وأحياناً يأكلون أقل، ومن هنا نجد أن الناس في البلدان الغنية والمتقدمة يعيشون أكثر، وهذا من الأخذ بأسباب الصحة. أما الفقراء فوعيهم الصحي أقل، وكثير منهم يدخنون بشراهة، كما أنهم في

أحياناً كثيرة لا يجدون ثمن الدواء، كما لا يجدون الطبيب الجيد، ولهذا تقشو فيهم الأمراض، ويعيشون أقل<sup>(١)</sup>.

- الشراء يعطي الشعور بالقوة والتفوذ، وهذا هو الذي يجعل كثيراً من الناس - على ما يبدو - يسعون من غير ملل ولا كلل إلى تكديس أموال لا يعرفون كيف ينفقونها، ويقرنون أنهم لا يحتاجون إلى كثير منها، والغريب العجيب أنه من أجل هذا الشعور يُدْيِ عدد كبير من أثرياء المسلمين الاستعداد للخروج عن الطرق المشروعة في جمع الثروة، ويدخلون في منطقة المحظوظ غير آبهين بالعواقب الوخيمة لذلك!

الثروة توسيع الخيارات أمام أصحابها في كل مجالات الحياة، وامتلاك الخيارات الكثيرة يجعل الإنسان يشعر بأنه حر، لأن الحرية في جوهرها ليست شيئاً غير القدرة على الاختيار؛ ولهذا فإن الشري يستطيع أن يُبدِع ويستثمر، ويتناقل من مشروع إلى مشروع، كما أن كثرة الخيارات هي اختيار جدّي للواحد منا؛ حيث يكون عليه الابتعاد عن الخيارات السيئة والمعترفة، كما يكون عليه محاولة اختيار أفضل الخيارات، وقد رسب كثير من الناس في اختبار السراء وفتنة الرخاء، أما الفقير فإنه يجد نفسه دائماً في عالم الضرورة؛ فقلة المال في عصر يُعدَ المال محوره الأساسي، جعلت الفقراء يشعرون بالعجز عن تأمين حاجاتهم الضرورية، وإن من المخزن أن نقول: إن لدينا مئات الملايين من المسلمين الذين يكافحون من أجل الحصول على دولار واحد في اليوم! العجز عن تأمين الأساسيات جعل معظم الفقراء يشعرون بالحرمان والدونية وهياهم لاستغلال الأثرياء والأقوياء أسوأ استغلال؛ والعاقبة الأشد ضراوة لل الفقر الشديد تكمن في شعور الفقير بأنه محاصر، وأنه لا يجد الفرصة للقيام بأي عمل عظيم؛ ولهذا فإنك حين تحدّث أحد هم عن النجاح الباهر والتفوق العظيم والسعى لنيل أعلى الشهادات... فإنه يضحك في سره مما تقول، ويتهكم بجهل الوضعية المأساوية التي يعيش فيها!

إذا كانت الثروة الطائلة تملّك صاحبها أسباب القوة والمكنته، وتنخر الشعور بالتفوق والتفوذ، فإنها في الوقت نفسه تهدده بالبغى والطغيان والعدوان، وهذا واضح

(١) هذا الكلام لا يتعلّق بالأفراد وإنما بالشعب والبلدان؛ فقد يكتب الله - تعالى - طول العمر لفقر مدّع؛ فيعيش مئة سنة، وقد يموت أثري الأثرياء في الخمسين من عمره.

جُدًا في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَنَ لَكُفُونٌ﴾ [آل عمران: ٦٧]، قوله: ﴿وَلَوْ سَطَّ اللَّهُ الْأَرْزَقَ لِعَبَادِهِ، لَغَنَّا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُتَرَكُ يَقْدُرُ مَا يَنْهَا إِلَّا هُمْ يَعِدُونَ، حَيْثُ بَيْهُ﴾ [الشورى: ٢٧]، والحقيقة أنه بمجرد أن تخف الرقابة على طرق جمع الثروة، وبمجرد أن يضعف القضاء في تأمين حقوق الناس والدفاع عن المظلومين تتعاظم الثروات غير المشروعة، وتزيد سطوة البغي والعدوان على الضعفاء والمساكين، وليس لهذه القاعدة أي ظاهرة استثنائية. أما الفقر، فإن الفقر المدقع الذي يعاني منه يهدده بشئين خطيرين: العيش على هامش الحياة من غير تأثير يذكر في مساراتها، وأنى له أن يؤثر في غيره وهو يبحث عما يسد رمقه!! الثاني: قبول المهانة والذلة؛ لأن الحاجات الأساسية تلح عليه بأن يقبل بأي شيء في سبيل تلبيتها؛ إذ إن بقاء المرء منوط بذلك، الواقع في كل مكان من العالم يشهد بهذا وذاك.

- الثراء العريض كثيراً ما يسبّب لأصحابه نوعاً من الشعور بالأسأم والملل ما لم يكن بالإيمان قد ملا العقول والقلوب، كما أن الثري يشعر بنوع من الهشاشة والضعف في مواجهة الشدائـد والمحن. الشعور بالأسأم والملل سيهـد أن المال بمفرده لا يستطيع تلبية الأشواق الروحية للإنسان، فيمضي للتعريض عن ذلك خلف المزيد من متع الجسد، والتي من طبيعتها التكرار والتتشابه. أما الهشاشة في وجه المحن، فسيهـد أن المترف يتذوق طعم الرفاهية والدعة ونعومة الحياة، كما أنه يعـد كل ما يحصل عليه من أنواع المتع حـقاً مكتسبـاً، ومع الأيام يتحول إلى ما يشبه الضرورة، ثم إن الثراء الكبير يوشـع طموحات المرء، ويجعله يطلب المزيد من كل شيء، وكل خسارة تثير الأسى، ومن هنا فإن في الدول الشـريرة والمتقدمة أكبر نسبة من المـتحـرـرين، على حين أن نسبة الانتحار في الدول المتخلـفة، حتى لو كانت غير إسلامية تـعد متـدنـية.

أما الفقر فإنه أصلـب عـدواً في مواجهـة الأزمـات والشـدائـد؛ وذلك لأنـه يرضـي بالقليل في الأحوال العـاديـة، وعـند حـصـول مشـكلـات كـبرـى يـجد أنه ليس لـديـه الكـثـير ما يـمـكـن أن يـخـسـرـه، كما أنـ الفقر قد تـعودـ الشـدائـد؛ ولـهـذا فإـنه لا يـرى فيها شـيـئـاً جـديـداً. الشـيءـ الذي سـاعـيدـ التـأـكـيدـ عـلـيـه هو أـنـا نـتـحدـثـ هنا عـنـ ظـاهـرـ عـامـةـ، لها اـسـتـثنـاءـاتـ كـثـيرـةـ، لكنـ معـ كـثـرةـ الـاسـتـثنـاءـاتـ، فإنـ منـ المـهمـ أنـ نـعـيـ ماـ يـحـدـثـهـ المـالـ وـالـحرـمانـ مـنـهـ فيـ حـيـاةـ مـعـظـمـ النـاسـ.

#### ٤ - الامثال للنظم والقوانين:

أرسل الله - تعالى - الرسل، وأنزل الكتب ليوضح للناس المنهج الذي ينبغي أن يسيروا عليه، والقواعد التي يجب أن يتزموا بها في تعاملهم مع خالقهم وفيما بينهم، وجعل العدل وصون الدماء والأموال والأعراض وتكافؤ الفرص من الأمور الجوهرية التي لا يصح المساس بها، ولو نظرنا في دساتير الدول والنظم المدونة لديها، فستجد أنها في الجملة منطقية ومعقولة، ويمكن شرحها والدفاع عنها من وجهة نظر كبير من الناس، إذن لماذا نشاهد شعوبًا تغلب على حياتها ومعاملاتها الاستقامة والتراحم، وشعوبًا ينهش الفساد في كل جوانب حياتها؟ المشكلة لا تكمن في عدم صلاحية القوانين، ولكن في عدم تطبيقها والتحايل عليها أو تطبيقها على أناس دون آخرين بشكل انتقائي. النبي ﷺ شدد على مسألة شمولية التطبيق للأحكام والعقوبات في كثير من المواقف، ومن أوضاعها ما روي في الصحيح من أن قريشاً أهمّهم شأن المرأة الخنزورية التي سرقت، فكلّمها أسامة بن زيد رضي الله عنهما ليفشع عند رسول الله ﷺ فكلّمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: «أتشفع في حد من حدود الله؟» ثم قام فخطب، فقال: «إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطمت يدها» <sup>(١)</sup>. الآن كيف يمكن أن يؤثر تطبيق النظم والقوانين، وكيف يمكن أن تؤثر عدالة القضاء في أخلاق الناس وأوضاعهم وعلاقتهم...؟ وكيف يمكن أن يؤثر الفساد الإداري والمالي والظلم والجور في كل ذلك..؟

أ - حين تُطبق النظم والقوانين بعدل وشمولية وأمانة، فإن الناس يمتلكون جرأة عالية في قول الحق، إنهم يعرفون أنهم لن يؤذوا بسبب نصائحهم لهذا أو ذاك من العباد، كما يعرفون أنهم لن يُهُمَّشوا، ولن تضيع مصالحهم إذا نقدوا الأوضاع السيئة؛ ولهذا فإنهم يعلون عن آرائهم دون حرف أو وجع، وهذه سنة مطردة؛ حيث إن من الواضح أن الخوف من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو ناجٍ من نوافع الظلم والفساد؛ وذلك لأن الفاسدين يملكون التفوذ والقدرة على إسكات خصومهم من

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

الأشراف وأهل الاستقامة. الناس في حالة الخوف لا يسكنون، لكنهم يتحدثون بكل شيء في السر وفي المجالس الخاصة والمحدودة، أما في العلن فيكون نقدهم غامضاً وملفوقاً، ومشوياً بكثير من الاعتذار ومبسوقاً بكثير من المقابلات والمسوغات، وإذا أردت أن تعرف ظروف الناس في بلد في الشأن الذي نشير إليه، فيكفي أن تطالع صفحة واحدة في جريدة لفهم كل شيء.

ب - في حالات الاستقامة الإدارية يتحسن وضع الاقتصاد، وتنشط حركة الاستثمار؛ وذلك لأن من طبع الناس أنهم لا يدخلون ما لديهم من مال في الدورة الاقتصادية إلا إذا كانوا مطمئنين على سلامته من النهب والاستيلاء من قبل الآخرين، وهذا واضح في كل الدول التي نجحت في النهوض باقتصادها على نحو قوي، كما أنه واضح لدى الدول التي نجحت في استدراج استثمارات أجنبية ضخمة، كما هو الشأن في ماليزيا والصين وتايلاند وسنغافورة وغيرها... أما حين ينتشر الفساد المالي والإداري، وتضيق القوانين والنظم عbara عن هياكل مجوقة، فإن الناس يعزفون عن الاستثمار في المشروعات الضخمة، وأحياناً يهاجر رأس المال الوطني، ليعمل في دول أخرى.

ج - حين يشعر الناس بأن حقوقهم مصونة، وأن قضاءهم عادل ونزيه، ويشعرون أن الفرص أمامهم متكافلة... تترعرع فيهم مشاعر الوطنية والاتساع للبلد، وليست الوطنية في الحقيقة سوى الشعور بشرف الاتساع للوطن والمكان. أما حين ينتشر الفساد... فإن الأوطان تفقد قدرتها على جذب مشاعر المواطنين إليها، أي إن الشعب يفقد آنذاك الناظم الشعوري الموحد، وتلاحظ حينئذ بروز الطائفية والقبلية والعائلية بوصفها محاور صغيرة تستقطب كل أولئك الذين فقدوا القواسم العظمى التي تشكل الأرضية العامة لمشاعرهم ومصالحهم.

د - يشعر الناس في حال سيادة القانون بشعورين عظيمين ومهمين، هما: الشعور بالتفاؤل، والشعور بالكرامة.

الشعور بالتفاؤل، مصدره إحساس الناس بأن بلدتهم يسير في الطريق الصحيح، وشعورهم بوجود فرص للعمل وآفاق للنمو والازدهار؛ وذلك بسبب قوة النشاط الاستثماري، أما الشعور بالكرامة فهو الشعور الذي يبحث عنه الناس فطرياً ودون الحاجة إلى أي تحريض من أحد، ومن أعظم الدلالات عليه ندرة المديح الكاذب

واضحاً حال النساء بلا رقيب ولا حسيب. أما في حالات الفساد فإن اختلاط الفضائل وال الحديث عن الإنجازات الوجهية يصبح بائعاً من أبواب الارتزاق لكثير من الناس. أؤكد مرة أخرى أن كل ما ذكرناه على مستوى تأثير الظروف في الناس لا يشمل كل الناس؛ حيث إن هناك دائماً من يملك إرادة المقاومة لكل الرذائل الاجتماعية، ولكن من يقوم بذلك لا يمثلون في العادة سوى شريحة صغيرة قد لا تتتجاوز في أحسن الأحوال نسبة الـ (٢٠٪).

وإذا أردنا أن نعرف واقع العالم الإسلامي بالنسبة إلى الاستقامة الإدارية والمالية لدى موظفي الدول، فإن في إمكاننا العودة إلى تقرير منظمة الشفافية الدولية لعام (٢٠٠٨م)، حيث إننا نجد أن التقرير تحدث عن الأوضاع في (١٨٠) دولة، ونجد أنه ليس بين الدول العشر الأولى الأكثر نزاهة أي دولة عربية، أو إسلامية، ونجد أن أفضل دولة عربية في الشفافية تحل المرتبة الثامنة والعشرين عالمياً، على حين أننا نجد أن أربعاء من الدول العربية والإسلامية موجودة في القائمة التي تضم ثمانين دول، هي الأكثر فساداً في العالم!!.. ومهما قلنا في نزاهة تلك المنظمة ودقة عملها، فإنها تظل منظمة غير حكومية، ويكتفى أن ننظر إلى ما تنشره على أنه مؤشرات، وليس محدّدات، وليس لدينا دراسات أو مؤشرات مناقضة لها.

#### ٥ - العيش على هامش الحياة مصدر للتعجل الذاتي:

أوجَدَنا الحالُ تَجَلٍ على هذه الأرض، لتعمل ونأخذ ونعطي، ونؤثر ونتأثر... وجعل استقامة معاشنا وحياتنا كلها رهناً بذلك؛ ومن ثم فإن تعطيل هذه الفعاليات يُخل بتوازننا العام، و يؤثر سلبياً في كل شيء لدينا. أود أن أُشرح هنا ما أقصده من العيش على هامش الحياة وعلى مستوى الأفراد وعلى مستوى الشعوب عبر النقاط الآتية:

أ - لا أعتقد أننا نختلف في أن الدول الصناعية الكبرى هي التي تشكل اليوم روح العصر وعقله، وهي التي تضع شروط الحياة المصرية، وسواء أكان ذلك صحيحاً أو غير صحيح، وسواء أكان مما يعجبنا، أو لا يعجبنا، فإن هذه هي الحقيقة الساطعة، وقد كنا أيام ازدهار الحضارة الإسلامية نشكّل روح مصر لمن حولنا، وكنا نضع لهم مواصفات التقدّم وشروطه.

ب - في عصرنا محاور بارزة تشكل مصدرًا عظيماً لكثير من المعاير والأنشطة والمعطيات الفرعية، وهذه المحاور هي: المؤسسات التعليمية الجيدة، الجودة العالية في المنتجات، الاستقرار والأمن، الاقتصاد القوي، التزاهة والشفافية في الحكم، الانفتاح على ما لدى الآخرين، التواصل العالمي، الإبداع التقني، أكبر قدر ممكن من الرعاية لحقوق الإنسان، أعلى درجة ممكنة من الوعي بمتطلبات العيش الكريم والتلقي في الأعمال، أداء الأعمال بجدية ومثابرة.

ج - العيش على هامش العصر يعني في إطار ما أشرت إليه في الفقرة السابقة أموراً عديدة محددة من أهمها:

- انحراف خلقي وسلوكي يجعل المرء صغيراً في عين نفسه، وفي عين الجهات التي يمكن أن يعمل لديها.

- التشبع بمفاهيم متخللة تحجب عقله عن رؤية الواقع، ويتجزع عنها وبالتالي التخطيط في التعامل معه.

- جهل مطبق أو درجة متدنية من التعلم.

- الانشغال بالماضي، وعدم النظر إلى المستقبل باهتمام.

- عدم التمكن من تحقيق إنجازات محسومة يشعر بها المرء، ويمكن أن يتحدث عنها بوضوح.

- الخضوع للظروف الصعبة واليأس من التقدم، وجلد الذات.

هذه الأمور وأخرى قريبة منها تؤدي إلى عزلة الإنسان عن التواصل مع عناصر القوة في هذا الزمان، وتخربه وبالتالي من أن يحتل موقعاً مؤثراً في قطاع الإنتاج والأعمال.

السؤال: كيف يؤدي عيش الإنسان على هامش العصر إلى التحلل الذاتي؟

في مقاربة أولية أقول:

إن العيش على هامش العصر بالمعنى الذي أشرت إليه يحرم الإنسان من التعرف على طاقاته وإمكاناته الكامنة؛ وذلك لأن الإمكانيات لا تظهر إلا من خلال ممارسة الأعمال الراقية والمقددة، وهذا يجعل المرء يشعر بالدونية والضعف، كما أن ضعف التأهيل الشخصي يعرض الإنسان لأن يجد نفسه عاطلاً عن العمل في أحيان كثيرة،

وقد ثبت أن البطالة تغير في نظرة الإنسان لنفسه، وفي نظرة أسرته له، وكم من شخص خيم عليه اليأس، ووجد نفسه غير جدير بسلوك طريق المعالي بسبب عجزه عن كسب رزقه؟ وكم من أسرة تفككت، وانفرط عقدها بسبب عدم قدرة الزوج على الإنفاق؟! ولعل أسوأ ما في العيش على هامش العصر، فقد الشعور بالمسؤولية نتيجة عدم القيام بأعمال كبيرة، ولا ننسى الفراغ المدمر الذي يحتاج كثيراً من الناس بسبب عدم امتلاكهم أهدافاً جيدة وواضحة، وبسبب عدم وجود ما يكفي من الهمات لاستثمار طاقتهم على وجه جيد... إن عدم التمكن من استثار الذات للقيام بالأعمال الجليلة يعرضها لمخاطر الانحدار نحو المعاني البهيمية الكامنة في النفوس، كما يعرضها لفقد اللياقة واللباقة الاجتماعية، وإذا نظرت إلى (المشردين) في الدول المتقدمة فسوف تحصل على نموذج واضح جداً للإنسان الذي خسر نفسه وخسرته بلاده وأمته.

د - بالنسبة إلى الشعوب والدول فإن العيش على هامش العصر يكون بضعف الخطط التنموية وعدم ملاءمتها لزيادة السكانية، كما يكون بخلاف الأعمال والمهن التي يعمل فيها معظم السكان، ولا ننسى إلى جانب هذا انتشار الفساد والرشوة والاستبداد والظلم وعدم نزاهة القضاء واحتلال الحياة الخنزيرية، فإن هذه العلل تجعل الشعب وجماهيره العريضة يعيشون في زمان غير زماننا، وإذا نظرت إلى بعض الدول الأفريقية المختلفة جداً، فإنك سترى إلى جانب كل ما ذكرناه تخلف النظم وأدوات الاتصال والمؤسسات التعليمية والوعي الصحي بالإضافة إلى الفقر المدقع طبعاً، ومع هذه المشكلات الاجتماعية سترى التحلل الذاتي في أوضاع صوره حيث انتشار الرذيلة على أوسع نطاق، وانتشار الإدمان والأمراض الجنسية الفتاك إلى جانب الحروب الأهلية المهلكة، ويتجزئ ذلك كله تكيل الوعي بأفكار ومفاهيم بالية وقاتلة، والنتيجة لكل ذلك هي أن يصبح البلد مختلف مجالاً رحباً لمارسة النفوذ من قبل الدول التي تقود الحضارة، وتضع شروط المعاصرة والتقدم.

إن المؤشرات التي ذكرناها ت ملي علينا أن نمتلك درجة عالية من اليقظة لمقاومة التهميش والعيش على حافة التيار الحضاري العام، وإن من سوء الفهم ظن أن العزلة التامة عن العالم ممكناً أو نافعة، كما أن من سوء الفهم الظن بأن الخمول والكسل

والعطالة والبطالة يمكن أن تساعد أي أحد على النجاة من التأثيرات الضارة للحضارة الحديثة.

#### ٦ - طابع الحياة الحضارية الأنثوي:

لا شك في أن فهم ما يُحدثه التقدم الثقافي والمعمراني من آثار في الحياة الاجتماعية، من الأمور التي تساعد على فهم الواقع وقراءة اتجاهاته، والحقيقة التي نود أن نجعل منها مدخلًا لمزيد من الوعي بالأوضاع الجديدة، هي أن الناس كلما درجوا في سُلُم الحضارة علت الحياة العامة مسحة أُثنوية، وهذا يعني بالطبع أن الطابع العام للحياة البدوية وما يقترب منها من الحياة الريفية هو طابع ذكوري يميل إلى الحشونة والصلابة وشيء من الجفاء. السؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا يحدث هذا؟

يدو لي أن الجواب يتلخص في أمرين:

الأول: هو أن الإنسان المتحضر يكون أفضل علينا بصالحه، وما يجلب له السعادة والاستقرار، ولا أحد يشك في أن الوئام بين الزوجين وفهم أحدهما للأخر على نحو جيد، يصب في مصلحة كل منهما، وكما نعرف فإن الانسجام هو أحد نواتج التكيف، والذي يعني دائمًا الضغط على النفس والمراوغة وملاحظة مرغوبات ومتطلبات الطرف الآخر، وهذا يرفع من قيمة المرأة، ويتيح لها فرصة أفضل لإثبات وجودها والتأثير في محيطها...

الثاني: هو أن الناس حين يسكنون المدن، ويستخدمون الأدوات الحديثة، يشعرون بالاستقرار، ويذوقون طعم الرفاهية، ويتحول مع الأيام العديد من المرفهات إلى أشياء ضرورية أو شبه ضرورية، وإن المرأة في نظر الرجل من الأمور التي يترفه بها – والرجل طبعاً مصدر رفاهية للمرأة – وقد مضت سنة الله في أن الرجال لا يستطيعون الترف بالنساء إلا إذا رفوهن، وإن جزءاً من ترفيههن يكمن في الإصغاء إليهن، وإيجابة طلباتهن، وموافقة الكثير من أهواهن.. وهذا كله يتبع للمرأة درجة من النفوذ لا تظفر بها المرأة في البدية وفي البيئات الشديدة التخلف.

( مظاهر الطابع الأنثوي ) :

لا شك في أن مكونات المسحة الأنثوية مشتقة من طبيعة المرأة وذوقها ومشاعرها

وتفضيلاتها ومصالحها و حاجاتها ...

ولعل من مظاهرها الآتى:

- ١ - مع المزيد من التحضر يتوقع الناس من بعضهم لطفاً ورقة أكبر في التعامل، إنهم يصبحون حساسين أكثر للجفاف والغلظة وعدم الاهتمام، وهذا يشتمل على العديد من الأمور، منها مخاطبتهم بلطف، وتقدير مشاعرهم وعدم مفاجأتهم بأمور يكرهونها، كما أنهم يميلون للنقد غير المباشر وإلى التلميح عوضاً عن التصرير، وهذا كله متصل بالطبيعة الأنثوية والأسلوب الأنثوي في التعامل والمخاطبة.
- ٢ - المرأة بطبيعتها ميالة إلى الاستهلاك، فما تنفقه النساء على الملابس وأدوات الرزينة والحلبي والاستعداد للتحفلات والمناسبات، يساوي خمسة أو عشرة أو عشرين ضعفاً مما ينفقه الرجال على هذه الأمور، والحقيقة أن الميل إلى الاستهلاك لدى المرأة مرتبط بشيء آخر هو (الشكلية)؛ فالنساء هنّ منبع الألوان وهنّ معلمات الاهتمام بالكمال الشكلي في كل شيء، ونحن نلاحظ اليوم أن الميل إلى الاستهلاك، وأن مراعاة الأشكال والشكليات والاهتمام بالخرافة صار من سمات المجتمعات الحديثة، وأنا هنا لا أؤدّي أن أمتده بهذه الأمور، كما لا أريد أن أذمها؛ لأن هذه المسائل تشتمل على تفاصيل كثيرة ودقيقة، ولا يصح إطلاق الأحكام فيها جزافاً.
- ٣ - إن من نتائج التفوّز المتزايد للمرأة، وكل ما يتصل بها ما نشاهده، وما سنشهده من إبراز لمعاني المساواة بين الرجال والنساء، ولعل قول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ يُشَلْ أَذْى عَيْنَيْنِ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وقوله عليه السلام: «النساء شفاق الرجال»<sup>(١)</sup> - من النصوص التي يستشهد بها اليوم على نحو لم يسبق له مثيل عبر التاريخ الإسلامي.
- ٤ - موضوع قوامة الرجل على المرأة ومسألة قيادته للأسرة، ومدى ما يتمتع به من صلاحيات في كل ذلك، من الأمور التي سيتم بحثها بتوسيع، وسيكون الميل فيها إلى ترجيح الأقوال التي تخفف من سلطة الرجال على النساء إلى أدنى حد؛ بل إن من لا يعرفون أصول الشريعة ووجه الاستدلال بالنصوص سوف يرفضون المبدأ ( مبدأ القوامة ) جملة وتفصيلاً، وكل هذا من آثار التقدم الحضاري وطابعه الأنثوي.

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد وغيره.

٥ - في ظل التقدم الحضاري والمعماري تقوم دعوات كثيرة إلى تقليل اعتماد المرأة على الرجل، وإلى توسيع دائرة استقلالها، وذلك من خلال نيلها أكبر حظ من العلم والمعرفة ومن خلال التأهل لشغل الوظائف المختلفة، وقد لقيت هذه الدعوة استجابة واسعة، وترتب على ذلك ارتفاع مستوى الشروط التي تشرطها الفتيات لمن يتقدم إليهن من الخطاب، وكثير الرفض، وترتب عليه الارتفاع في نسب العنوسة.

٦ - اللغة اليومية وأسلوب الخطاب المتداول بين الناس صار اليوم يميل إلى اللطف والرقابة والجمال أكثر من أي وقت مضى، وصارت كلمات مثل ( رائع، جميل، مدخل، ممتع، ناعم، بهيء ...) تستخدم بكثرة لافقة، كما أن الكلمات التي فيها ( تاء التأنيث ) صارت أيضاً واسعة الانتشار، ولذلك أن تراقب استخدام كلمات مثل ( معرفة وملوومة ) في مقابل ما كان شائعاً من ( العلم والعلوم والمعارف ) وهناك أمور أخرى من هذا القبيل... في بلدان غير إسلامية وفي بعض البلدان الإسلامية بلغ تأثير الحياة طوراً خطيراً، أفضى بعض الشباب إلى تقليد النساء في كل شيء، مما ينذر بتحلل أخلاقي واسع المدى!

#### ٧ - تعايش النظم المتباينة:

إن كل حضارة من الحضارات تتكون من مجموعات من النظم والأنساق الثقافية المختلفة، وقد اعتدنا بإصدار الأحكام الإجمالية، فنقول: هذه دولة متقدمة، وهذه دولة متخلفة، مما يعطي انطباعاً بأن كل ما في هذه الدولة متقدم، وكل ما لدى تلك الدولة مختلف، وإذا ألقينا نظرة على التاريخ وأخرى على الواقع وجدنا شيئاً لافقاً، هو أن الأم هي في قمة ازدهارها تشهد نوعاً من التعايش بين نظم متقدمة وجيدة وبين نظم مختلفة وردية، وهذا مع أن النظم الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية والتربوية.... تتبادل فيما بينها على نحو فعال التأثير والتأثير، لكن يبدو أن كلاً منها قادر في النهاية على الاحتفاظ بالكثير من مقوماته، وهذا الفهم يدفعنا إلى التفتيش في الواقع لنرى ما فيه من جوانب مشرقة، فنزكيها، وما فيه من جوانب باهنة ومختلفة، فعمل على إصلاحها؛ وهذه بعض الأمثلة الشارحة لهذا:

أ - المجتمع مكون من أفراد، وكما أن الحضارات والمجتمعات قادرة على الاشتغال على نظم مختلفة ومتقدمة في آن واحد، فإن الأشخاص قادرون على مثل ذلك؛

حيث إن هناك أعداداً كبيرة من المسلمين - وغيرهم - يؤدون الشعائر بتمامها، لكنهم يقعون في كبار مثل أكل الربا وشرب الخمر والزنا وأكل حقوق الناس...، ولا أريد أن أتحدث عن فلسفتهم الداخلية في هذا الشأن، لكن أريد أن أقول: إنهم يستطيعون في الغالب إيجاد درجة من المصالحة مع أنفسهم، ودرجة من إقناع الذات في جمعهم للمناقضات.. والمشكل أن كثيراً من الناس، لا يعرفون هذا المعنى؛ فيتقرضون مبالغ كبيرة لشخص رأوه يصلی ظنّاً منهم أن كل من يصلی يكون صادقاً وأميناً، والمطلوب هو الحذر والانتباه.

ب - كانت العلوم وفنون الصناعة والعمان لدى المسلمين مزدهرة جداً في القرن الرابع الهجري، لكن الوضع السياسي كان يسير في اتجاه التدهور، وربما كان ذلك يعود إلى أن دور الدولة في النهوض العماني والعلمي لم يكن جوهرياً وشاملاً كما هو الشأن اليوم، كما أن التأثير الذي تبادله المنظومات المختلفة داخل الحضارة الواحدة ليس فوريّاً؛ فهناك دائماً فترة سماحات قد تطول، وقد تقصر، وهذا يعود إلى أن المنظومة التعليمية - مثلاً - تملك مقوماتها الذاتية، وتملك ما تدافع به عن نفسها في وجه الانحطاط الذي قد يحدث في منظومة أخرى، لكن على المدى البعيد، قد يؤدي الانهيار في المنظومة السياسية أو الأخلاقية أو الاقتصادية إلى تراجع الحضارة برمتها. وهذا ما حدث بالنسبة إلينا فعلاً؛ حيث إن تفكك الدولة العباسية وتحولها إلى دوليات غير منسجمة، بل متحاربة، هو السبب الأظهر للنفق المظلم الذي دخلت فيه الحضارة الإسلامية فيما بعد.

ج - إن الولايات المتحدة الأمريكية قد خسرت الكثير من ملامح صورتها البراقة بوصفها دولة عظمى، وهي بدورها في ( أفغانستان والعراق ) صارت في موقف حرج للغاية إلى درجة أنها تستجده بعض من تصفهم بأنهم أشرار من أجل مساعداتها على الخروج من المستنقعات التي صنعتها بنفسها، لكن مع هذا فأناأشعر أن الثقافة والأدبيات الأمريكية - والغربية عامة - تكسب كل يوم أرضًا جديدة بفضل عمليات العولمة التي تجتاح العالم اليوم من أدناه إلى أقصاه. وهكذا نجد أمريكا القوة والبطش تخسر، لكن أسلوب الحياة الأمريكية ينتشر، ويندفع في أماكن كثيرة من العالم.

د - في الغرب نشاهد تفككًا اجتماعيًّا واسع النطاق، وقد صار الأطفال الذين يعيشون في منزل ليس فيه إلا الأب أو الأم يشكلون نسبة عالية جدًا من مجموع أطفالهم، كما أن الصلات بين الأقرباء والأرحام تمضي أيضًا في طريق التدهور، لكن مع هذا نجد أن القوم هناك يجمعون أموالًا ضخمة للعمل الخيري، ويكتفي القول: إن أمريكا صارت تجمع سنويًّا ما يزيد على مئتي مليار دولار لإنفاقها في وجه الإحسان، كما أن أعداد المتطوعين هناك تشكل (٣٠٪) من السكان، وهذا شيء كبير بكل المقاييس، وهو يدل على الإحساس بالآخرين والتعاطف معهم، مع أن المظنون أن تفكك الأسر هو ناتج - جزئيًّا - عن نمو مشاعر العزلة والأنانية والانكفاء على الذات. كل هذا يؤكد شيئاً واحداً هو أن الواقع في تركيباته المختلفة، لا يخضع للمنطق ولا للترابط أو التداعي الحتمي، ولا بد حتى فهمه على نحو جيد من سعة الأفق والمرونة والتسامح مع المعايير والمؤشرات.

### الحكم على الواقع:

لا أبالغ إذا قلت: إننا نسعى في الأصل إلى فهم الواقع على نحو جيد حتى نتمكن بعد ذلك من محاكمة الحكم عليه، وإذا تأملنا في علاقتنا مع الواقع المعيش، فإننا نجد أننا فعلاً متخرطون فيه بوعي وغير وعي، وهذا يعود إلى أن تنظيم ردود أفعالنا على الواقع يتطلب إصدار حكم عليه، وعلى سبيل المثال فإن الطالب حين يشرع في التحضير للامتحان في مادة من المواد، فإنه يحاول تكوين انطباع أولي عنها، ويكون الحكم على مدى صعوبتها وسهولتها، أبرز ما في ذلك الانطباع، وما هذا إلا مقدمة لحلسه بما يتطلبه النجاح في تلك المادة من جهد ووقت:

ولعل مما يساعدنا على إصدار حكم راشد على الواقع الآتي:

### ١ - الحكم على الواقع اجتهادي:

لا مطبع لنا في أن نصدر حكمًا قطعياً ودقيقًا على نحو مطلق على أي ظاهرة من الظواهر، حتى لو كانت تلك الظاهرة أميل إلى البساطة مثل واقع فلان من الناس ومدى ما هو فيه من صلاح وانحراف وغنى وفقر، أو واقع المدرسة الفلاحية، وما فيها من جودة ورداءة في التعليم وحزم وترابخ في التعامل مع الطلاب... وهذا يعود إلى

شيء جوهرى، هو أننا ننظر إلى الواقع عبر تعريفات ومفاهيم، كما أن كل واحد منا يرى الواقع من زاويته الخاصة؛ ولهذا فإن ما أراه من الواقع هو حكم اجتهادي، يحتمل الصواب والخطأ، كما يحتمل الاقتراب من أحدهما بنسبة معينة.

## ٢ - رؤيتنا للواقع تعتمد على المعلومات:

كلما حصل تقدم حضاري وتكنى أكبر وجدنا أنفسنا نتعامل مع معطيات غير محسوسة ولا ملموسة، وعلى سبيل المثال فإن الطبيب حين يريد أن يعرف ما في دم مريضه من دهون، فإنه لا ينظر إلى الدم، وإنما ينظر في أرقام يبعث بها مختبر الدم إليه، وحين تذهب إلى ورشة مجهزة بتجهيزات تقنية حديثة، فإن عامل الورشة لا ينظر بعينه الحمراء إلى القطع التي حان وقت استبدالها في سيارتك، وإنما ينظر إلى المعلومات التي تقدمها له الأجهزة الإلكترونية التي استخدمناها في فحص السيارة، وهكذا الشأن في الأمور المعنية، فتحن حين نجتمع في ندوة لبحث مشكلات التعليم لا نطوف على المدارس حتى نتحدث عن واقعها، وإنما نعود إلى الدراسات والإحصاءات والاستطلاعات المتعلقة بما نود التحاور حوله وهكذا... ما الذي يعني هذه؟

إنه يعني شيئاً مهماً، هو أننا إذا كنا اليوم ندرك الواقع بواسطة معلومات وأرقام ومفردات ومفاهيم، فإن من المهمتأكد من جودة هذه الوسائل ووثاقتها، فإذا قيل لنا: إن (٤٠٪) من طلاب المدارس المتوسطة في البلاد لا يستطيعون كتابة ثلاثة أسطر دون الوقوع في خطأ إملائي ما، فإن علينا التأكد من صحة الأسس التي قام عليها هذا المسح، وإلا فإن أحکامنا ستكون هشة جداً بسبب هشاشة المعطيات التي استندت إليها، وكم من طبيب يطلب اليوم من مرضاه إجراء تحاليل طبية جديدة؛ لأنه لا يثق بالمخبرات التي أجرت التعاليل السابقة؟

## ٣ - لكل حكم اعتباراته:

الواقع خليط من الصلاح والفساد والرشد والضلال والنجاح والإخفاق... ومن هنا فإن المهم هو فهم نسبة ما في الواقع من كل ذلك. كبير من الناس لا يدركون هذا المعنى فيسترون بين كثير الحير وقليله وكثير الشر وقليله، كما يسترون بين ما هو مطرد وشاذ؛ لأنهم يفقدون حس (النسبية). في زمانه عليه من زنى وسرق وكذب وأكل حقوق الناس واغتاب غيره.. وفي زماننا من يفعل ذلك، ومع هذا فإننا نقول:

إن الصحابة والتابعين وتابعيهم هم أهل القرون المفضلة، وما ذلك إلا لأننا ندرك أن الخير فيهم أعظم من الخير الذي فينا، والشر الذي فيهم أقل بكثير من الشر الذي فينا، وهذا واضح جدًا، إذن، المطلوب هو إصدار الحكم على النسبة، وليس على أصل الوجود. شيء آخر يتصل بمسألة النسبة وإصدار الحكم، هو أن الشاء على إنجاز ما والتقليل من قيمته مرتبط على نحو جوهري بالإمكانات المتاحة لصاحب الإنجاز؛ فالطالب المكفي مؤونة تحصيل الرزق والإنفاق على دراسته، مطالب بإنجاز أعلى بكثير من الطالب الذي يعمل كل يوم ست ساعات من أجل مساعدة أسرته، والمجزاح الذي توفرت له كل متطلبات العملية الجراحية الناجحة، مطالب بنسبة نجاح في عمله أعلى بكثير من جراح يتوفر له الحد الأدنى من تلك المتطلبات وهكذا...

#### ٤ - وقع الأحداث على الناس متفاوت:

دائماً هناك أحداث طارئة وغير عادية تحل بالأفراد والأسر والمجتمعات، وإن أي شيء طارئ يترك تأثيراً ما في حياة الناس، لكن من المهم - ونحن نقرأ الواقع، ونحكم عليه - أن ندرك أن تأثير الأحداث الكبرى في الناس ليس واحداً، والسبب أن كل شخص وكل مجتمع يتلقى الحدث من زاوية نظرته إليه وعبر منظومته القيمية الأخلاقية، حين قطعت الكهرباء في إحدى المدن الأمريكية الكبرى نشط كثير من الناس في السلب والنهب إلى حدود غريبة جدًا، على حين أن الكهرباء تنقطع في بلدان كثيرة على نحو شبه يومي، ولا يترك ذلك خللاً يذكر في الأمن، ونحن نعرف أن هناك من الرجال والنساء من يُدلي ازعاجًا شديداً إذا تم التعرض لأحد أبويه بأي شيء غير لائق، وهناك أيضاً من تراهم يسبون آباء أصدقائهم وأمهاتهم بأقذع الشتائم، وهم جمِيعاً في مرح وهرج ومرج! بين صالحٍ هذه الأمة من يقولون لأبنائهم إذا وقعوا في ضائقة مالية: أكثروا من الصدقة، فإن الله يخلف عليكم ما تتفقونه أضعافاً كثيرة، ويُوسع عليكم، وهناك من إذا وقع أبناؤهم في أزمة مالية حثوهم على أن يدبروا المال لتجاوز الأزمة عن أي طريق ممكن، وبغض النظر عن القيود الشرعية والقانونية على طريقة الكسب.

ما الذي يعنيه هذا؟

إنه يعني أن لا نصدر الأحكام على أي شخص أو بلد أو مجتمع بسبب الظروف الطارئة التي يمر بها؛ وذلك لأن ردود الناس على الأحداث متفاوتة تفاوتاً شديداً.

#### ٥ - لا ارتباط بين الحكم بالخطأ وتجهيه اللوم:

من المهم أن ندرك أن اللوم لا يرتبط بالحكم بالخطأ؛ إذ إن من يقع في خطأ ما قد يلام على خطئه، وقد يكون معذوراً فيه ومحظياً وإنما نقول هذا لأن العالم والمحدث والمصلح والمخترع... يعملون في ظل المعطيات التي تتوفر في زمانهم؛ ولهذا فإننا لا نلوم مثلاً الأطباء المسلمين في القرن الخامس إذا شُخصوا كثيراً من الأمراض تشخيصاً خاطئاً وإذا وصفوا لها علاجات غير ناجحة...

نحن نحكم أنهم أخطئوا، لكن لا نلومهم؛ لأن ما كان متراكماً ومنظماً من المعرفة الطبية آنذاك لم يكن يسمح بأكثر من ذلك، ولا ننسى أنهم كانوا أفضل، أو من أفضل أطباء عصرهم، نعم يلام الإنسان في إحدى حالتين:

**الأولى:** إذا لم يستفد من معارف وخبرات عصره كما لو أن طبيعاً نصح اليوم بدواء أجريت حوله دراسات كثيرة، تدل على عدم جواز وصفه للمرضى.

**الثانية:** إذا تكلم أو اجتهد الإنسان في علم أو مجال ليس من أهله، ولا يحسن، كما لو أن مهندساً تحدث في أمور شرعية أو طبية أو حقوقية... وقد أدى عدم إدراك عدم ارتباط توجيه اللوم بالحكم بالخطأ بكثير من الناس إلى أن لا يُدلوا برأيهم في كثير من الأحداث، وأن لا يسلطوا الضوء على كثير من الأخطاء الكبرى، مع أنها تقول: إن من حق الأجيال الجديدة أن تمتلك أفضل درجة من البصيرة بالواقع والأوضاع التي نسجت تاريخهم وتحرك واقعهم.

#### ٦ - في وجه التعميم:

نؤهت في مواضع عدة إلى صعوبة فهم الواقع، وصعوبة إصدار أحكام واضحة عليه، والشيء الذي أود أن أؤكد عليه الآن، هو أن الحكم سيكون صحيحاً وغير دقيق كلما كانت الواقعة أو الظاهرة أو الوضعية التي نود الحكم عليها أكبر؛ وذلك لأنها تكون حيثنة متعددة الجوانب وكثيرة التفاصيل. الحل يمكن في تفتيت الظاهرة، لتصدر على كل جانب من جوانبها الحكم الخاص بها، وعلى سبيل المثال، فإننا إذا

أرجونا أن نحكم على وضعية مدرسة من المدارس الأهلية، فإن علينا أن تتحدث عن أسلوب التدريس فيها وعن علاقة الإدارة بالمعلمين وعلاقة المعلمين بالطلاب، كما أن علينا أن تتحدث عن المناهج التي تدرس فيها وعن البرامج الإضافية والأنشطة الالاصفية، كما أن علينا أن نشير إلى مدى ملاءمة المال الذي يدفعه آباء الطلاب لجودة التعليم الذي تقدمه... وحين نفعل ذلك، فإننا سنجد أننا ستصدر عدداً من الأحكام، وليس حكماً واحداً، وهذا مطلوب من أجل الوصول إلى أعلى درجة من الدقة، وقد فعل شيئاً من هذا علماؤنا الأقدمون، وكان لعلماء الجرح والتعديل خصوصاً وعلماء الحديث عموماً القدح المعلى في هذه؛ حيث إنهم يفرقون أحياناً بين الحكم على الحديث والحكم على الإسناد، وذلك إذا لم تطمئن نفوسهم لإصدار حكم واحد عليهما معاً، فيقولون: حديث صحيح الإسناد، وكأنهم بهذا التعبير يبحثون على النظر في شأن (المن) فقد يكون فيه علة قادحة أو شيء من الاضطراب، كما أنهم حين نظروا في أحوال الرواية ففصلوا القول فيهم تفصيلاً مدهشاً، وعلى نحو عام فرقوا بين أمرين أساسيين: عدالة الراوي، وضبطه وإنقانه لما يرويه، ولا بد لقبول روایته من أن يجمع بينهما معاً. إن من الواضح أن التعميم هو أكبر خطأ نقع فيه أثناء الحكم على الواقع والتاريخ، وعلى الدول والأفراد وعلى كل شيء، وإن من العدل والقيام لله تعالى - بالقسط أن ترثي قبل إصدار الأحكام، وأن ندرك ما في الشيء الواحد من وجوه التفاوت.

\*\*\*

تعانق المطلق والنسيبي

نحن في حاجة ملحة إلى فهم الحيثيات المتعلقة بالمطلق والنسيبي؛ لأنها تساعدنا على بناء قاعدة فكرية جيدة، وتساعدنا على تنقية تصوراتنا من كثير من الأوهام، لكن

علينا قبل كل شيء أن نوضح المقصود بكل منها، إن المطلق هو النام والكامل المتعري من كل قيد، والمتجاوز للزمان والمكان، والمطلق كذلك المبدأ المفرد والمركز، أما النسي، فهو ما يناسب إلى غيره، ويتوقف وجوده عليه، وهو مقيد وناقص ومحدود، ومرتبط بالزمان والمكان ويتغير بتغيرهما؛ ولهذا فإن النسي ليس بعامي، ولا ينطبق على كل البشر.

إن وجود المطلق الثابت والمتبقي في حياتنا شيء جوهري، وإن جميع الرسل - عليهم الصلاة والسلام - قرروا الكثير من الحقائق الكبرى، منها وجود الله - تعالى - وأنه الواحد الأحد الصمد القادر الكريم الرحيم المتقم الجبار... وقرروا وجود بعث ونشور بعد الموت وجود حساب وجزاء ونعم وعذاب، ودعوا إلى الصدق والأمانة والترابط والعدل وكف الأذى ونفع العباد... هذه كلها أمور مطلقة في نظر المؤمنين بالأديان السماوية. وهناك مطلقات كثيرة أخرى؛ فحاصل جمع واحد مع واحد هو إثنان، والكأس الصغير لا يتسع لماء الكأس الكبير، والغير في أجسامنا بين الشباب والشيخوخة، وكون الإنسان ذا حاجات ورغبات.. كل هذا من المطلقات، وهل يستطيع القائلون بالنسبة المطلقة أن يرونا رجلاً حافظاً وهو في التسعين على القوة والنشاط والحيوية التي كان عليها وهو في الثلاثين، إنهم عاجزون لأن هذه الحقيقة من جملة المطلقات.

الأمور النسبية كثيرة جداً، بل هي أضعاف الأمور المطلقة، ويكتفي لمعرفة شيء من ذلك أن تخيل أنك جالس في قاعة محكمة تنتظر سماح الحكم في جناءة قتل، ولك حينئذ أن تتأمل في وجوه أهل القاتل وأهل المقتول: كيف تكون ملامحها عند صدور الحكم بالإعدام على القاتل؟ إن الحكم واحد لكنه سيكون على أهل القاتل بمثابة الصاعقة، وسيكون على أهل المقتول برداً وسلاماً، وسيجدون فيه بعض العزاء في فقيدهم. وقل مثل هذا في قصيدة عظيمة سمعها عدد من النقاد الكبار؛ حيث ستتجدد من يشي عليها، ومن يتقدّها وهكذا وهكذا... لو أردنا أن نلتمس بعض الأدلة والشواهد المأثورة على النسبية، فإننا سنجد منها الكثير الكبير، ولكن أن تتأمل في قول الله - تعالى -: ﴿إِنَّمَا يَرُونَهُ بَيْدًا وَرَبِّهُ فَيَبَا﴾ [المارج: ٧، ٨] حيث إن المكذبين والمستهزئين يرون عذاب يوم القيمة بعيد الواقع، فهو أشبه بالمستحيل، وإن صح أنه

سيقع فإنه لن يكون إلى بعد زمن بعيد، أما الخالق - سبحانه - بশمول علمه، فإنه يراه قريباً. وقال عليه السلام: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»<sup>(١)</sup>، قال بعض أهل العلم في تفسيره: إن المؤمن في هذه الدنيا مقيد بإيمانه عن الوقوع في المحظورات، أما الكافر فإنه مطلق التصرف، وأما الذي أرجحه فهو أن المؤمن مهما أصاب من نعيم ورفاهية في هذه الحياة، فإنه بالنسبة إلى ما أعد الله له من خير ورفاهية في الآخرة، هو الآن في سجن، أما الكافر فإنه مهما لاقى في الدنيا من الشقاء بالنسبة إلى ما يتنتظره في الآخرة من العذاب، فهو الآن في جنة، وهذا لا يحتاج إلى شرح.

### النقطي مدخل لتحسين الرفوية:

نحن نؤمن أن في حياتنا ما هو مطلق، وما هو نسبي، كما أن في حياتنا ما هو ثابت، وما هو متغير، ومن الواضح أننا نستطيع أن نتخدّل من معرفة الثواب والمطبات أدوات لفهم التغيرات والنسبيات، كما نستطيع أن نستدلّ بالمتغيرات والنسبيات على فهم الثواب والمطبات، لكنّ هناك شيئاً آخر، وهو الارتباك في فهم ما هو نسبي وما هو متغير؛ لأنّ من السهل على عقولنا أن لا تدخل في التفاصيل والشرح، ولهذا فهناك ميل عميق إلى إدراك الثواب والمطبات وعدم التوقف عند كلّ ما هو نسبي ومتغير، وهذه الوضعية تجعل عقولنا تجحد وتتحجر، وتختلف عن فهم المطبات الجديدة. إنّ حديثنا عما هو نسبي لا يكتمل إذا لم تتحدث عن بعض السنن والقوانين التي بثها الله - تعالى - في الوجود؛ إذ إن عدم صرامة سن الأنس والمجتمعات يجعلها تتبع بالنسبي؛ ومن هنا كان لا بد من العمل على تشكيل درجة حسنة من الوعي بهذه المسائل، حتى تؤسس لـ(التفكير السنّي) المرن والمفتاح على التغيير والتحول، وما هو شخصي وخاص، والحقيقة أن تجلّيات ذلك كثيرة جداً، وسأقتصر هنا على ما أظنه مهمّاً، ومنه الآتي:

### ١ - الكليات مكمن المطلق:

إن من سن الله - تعالى - في الخلق أن القضايا والمسائل الكلية تسمّ في معظم الأحيان بسمة الإطلاق، كما أن القضايا الجزئية والفرعية تسمّ بسمة (النسبية)

(١) أخرجه مسلم والترمذى وغيرهما.

وهذا يعني شيئاً مهماً، هو أن الظاهرة الواحدة تكون مطلقة على مستوى من المستويات، وتكون نسبية على مستوى آخر، ولدينا ما لا يحصى من الأمثلة على تقرير هذه الحقيقة الناصعة، وسأكتفي هنا منها بمثالين:

أ - التقدم في السن يترك وطأته السلبية على كل أجزاء البدن، ويؤدي إلى إضعاف كل القرى والحواس لدى الإنسان - والحيوان طبعاً - فنحن لا نعرف أي شخص صار بصره وهو في التسعين أو قرابة التسعين من بصره وهو في العشرين، كما لا نعرف نحوًا من ذلك في السمع والذاكرة والقدرة على التحمل ومقاومة الأمراض والتوازن ونضارة الوجه... وهذا لا يشمل بالطبع الأشخاص الذين كانوا يعانون من أمراض حخامية، وهم في سن الشباب، ثم عُوفوا منها في سن الكهولة أو الشيخوخة؛ فنحن هنا نتكلم عن الأوضاع الطبيعية، إذن ما أشرنا إليه هو حقيقة كلية، لكن تأثير تقدم السن في الناس لا يكون على درجة واحدة؛ فنحن نعرف أشخاصاً كثيرين في السبعين أفضل صحة وقوة وحيوية من أشخاص في الستين، والوضع في هذه الحالة شيء جدًا بأوضاع الناس تجاه الأمراض؛ حيث إن من الثابت أن تناول المواد المسرطنة لا يجعل كل من يتناولها يُتّلِى بالسرطان، فالمسألة نسبية تختلف من شخص إلى آخر بحسب استعداد الجسم ومدى قابلية تأثير تلك المادة، ونحن نشاهد فعلًا من يدخن بشرامة، ويموت وهو في الثمانين دون أن يصاب بالسرطان، وهناك من يصاب به وهو في الأربعين مع أنه يدخن مع شيء من التحفظ وهكذا...

ب - أنا لا أبالغ إذا قلت: إن ما لا يقل عن (٨٠٪) من القيم مشتركة بين جميع الأمم؛ حيث لا تجد شخصاً سوياً يرى في أمور مثل الكذب وعقوق الوالدين والحياة والقدارة والذل فضيلة، يمكن للمرء أن يشي عليها، ويفتخرون باتصاف بها، وعلى سبيل المثال فإن بر الوالدين شيء فطري لدى الناس، شيء يقضى به القلب ولا ينافقه العقل، هذا في الجمل. لكن إذا جئنا إلى التفاصيل، فسنجد أن بر الناس لأبائهم وأمهاتهم نسي، وبكاد أن يكون شخصياً في أحيان كثيرة: هذا شاب قسا عليه والده في صغره، وكان يُكثر من ضربه عند أي هفوة، على حين أن معاملته لأخيه غير الشقيق لينة ومتسامحة؛ فصار ينظر إلى أخيه على أنه قاسي وغير عادل في التعامل مع أبنائه؛ ولهذا فإنه لا يشعر بأنه يمكن لأبيه قدرًا كبيرًا من الاحترام، وهذا يدفعه إلى

عدم المسارعة إلى بُرئه ومساعدته؛ بل إنه ينفُذ طلباته بثاقل، وبطء، وإذا وجد فرصة للإفلال من زيارته استغلها... في المقابل هناك شاب يتمنى إلى أسرة فقيرة، وقد تمكّن من إنعام تعليمه الجامعي في جامعة جيدة، ودفعته له أسرته مبالغ طائلة من أجل ذلك، وقد كان يرى بأم عينه كيف كان والده يعمل عملاً إضافياً من أجل توفير تكاليف الدراسة، كما رأى أمه وهي تحرم نفسها من كثير من المرفاهات للغرض نفسه، إن هذا الشاب يشعر بالكثير من الامتنان والولاء لأسرته، ويتضرر اليوم الذي يبرهن فيه على حبه لها واعتراضه بها. هكذا نرى أن الإطلاق صفة لما هو كلي وعام، ونرى النسبة كامنة في الجزئيات والتفاصيل، والذي يساعدنا على فهم الأوضاع والأحوال الخاصة ليس ما هو عام، وإنما ما هو خاص وتفصيلي.

## ٢ - الحرمان من الضروريات يدمر الاهتمامات الثقافية العليا:

خلق الله بني البشر مسربيلاً بالضعف والعجز، مقهورين بالعجز إلى تلبية الحاجات والضروريات؛ فبقوانا على هذه الأرض مشروط بتناولنا للطعام والشراب والدواء، وتكتنا من الحصول على الملبس والملوي، كما أن استمرار النوع الإنساني مرهون بالتزاوج والتكاثر، ونحن مع هذا كله في حاجة إلى الشعور بالأمن؛ لأن الخطر الداهم المباشر يجعل كل انتباها واهتمامنا موجهاً إلى حماية أنفسنا منه. الإنسان بفطرته وخبرته يرتّب حاجاته الأساسية، ويصرف ما يتاسب مع أهميتها من جهده ووقته من أجل تلبيتها وقضائها، وقد أمعنَ الله في ذلك على قريش بنعمتي الشبع والأمن حين قال: ﴿ لِإِلَيْفَ قُرَيْشٌ ① إِلَيْنِهِمْ رِحْلَةُ الْشَّتَاءِ وَالصَّيفِ ② فَلَيَسْبِدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ③ الَّذِي أَعْمَمَهُمْ بَنْ جُوعٍ وَأَمَّنَهُمْ بَنْ خَوْفٍ ④﴾ [قرآن: ١ - ٤]. وما ذلك إلا لأن الجوع هو طريق الهلاك وطريق الذل والانكسار... والخوف يشل قدرات الإنسان ويجعله حسيراً حائراً في أمره، ومع هذا وذلك لا يكون هناك مجال للاهتمام بمعالي الأمور. حين يمضي على الإنسان يومان لم يتذوق فيما أي شيء من الطعام، ويجد نفسه على وشك الانهيار، فإنه لن يجد الطاقة، ولا الشهية، لنظم قضيدة، أو التأمل في لوحة فنية، ولن يجد أي توجه لديه للتفكير في أمر إخوان له يتعرضون للعنف والظلم، كما أنه لن يجلس مع مجموعة من الطيبين للتفكير في تأسيس مشروع لمساعدة الشباب على الزواج... وحين يكون الإنسان مجهدًا بعد يوم من العمل

الشاق والمضني، فإنه لن يجد الطاقة الروحية للخشوع في صلاته والإطالة فيها، ولن يجد لديه الطاقة الروحية للجلوس على المكتب للمطالعة في كتاب مهم مدة ساعتين، وحين يكون الإنسان خائفاً من خطر كبير يدهمه أو حدوث خسارة كبيرة في شيء عزيز عليه، فإنه لن يشارك في جلسة للعصف الذهني حول أسباب تخلف العالم الإسلامي... هذه سنة من سنن الله في الخلق، ويتجلّى فيها العديد من الظواهر المطلقة، لكن علينا أن لا ننسى أيضاً أن حرمان الإنسان من غرائزه الأساسية نبغي التأثير في سلوكه واهتماماته، فنحن نعرف في تراجم أهل العلم من كان يكابد الجوع في كثير من أيامه، ومع هذا فقد كان له إنتاج علمي عزيز، كما أنها نعرف كذلك أن التوتر الروحي العظيم الذي يجده المستغرق في ذكر الله - تعالى - والفارق في أحاسيس العبودية له والقرب منه... يجعل المرء يتحمل الكثير من الصعوبات والآلام دون أن تلين له قتامة، ودون أن تنكسر له شوكة، ونحن نعرف أيضاً أن الزاهد في الدنيا عن قناعة شديدة وإيمان عميق بأهمية التقليل من متاعها، يعيش عيش الفقراء، وقد يعاني من الجوع المنهن لكن حالته الروحية تكون متفجرة، كما تكون همته في توثب دائم... نعم هذا كله موجود، وهو الذي يجيز لنا أن نقول: إن عدم تلبية الحاجات الأساسية يترك آثاراً متباعدة ونسبة في نفوس الناس وسلوكياتهم، لكن الحالات التي أشرنا إليها تشكل استثناء من الشنة التي تحدثنا عنها، ونحن نعرف أن الاستثناء يؤكّد القاعدة، ولا يلغيها. الهيجان العاطفي العاصف شديد الوطأة على النفس وعلى الجملة العصبية؛ ولهذا فإنه لا يستمر طويلاً لدى الإنسان، وحين تخمد الشعلة في داخلنا، فإننا نخضع لسلطان حاجاتنا المحسدية، ولهذا فإن الإسلام اهتم على نحو استثنائي بالطرق والوسائل التي تمكننا من تلبية رغباتنا وقضاء حاجاتنا على النحو الصحيح، وإن فهم المفكر لهذا المعنى وإدراكه لتداعياته يدفعه إلى التأكيد على أهمية النهضة وتوفير الحاجات الأساسية، وتحقيق درجة من الرفاهية حتى تستقيم حياة الناس.

### ٣ - الكم لا يكون إلا على حساب الكيف:

لكل الأشياء التي تعامل معها خصائص ذاتية، وهذه الخصائص منحها الحال العظيم للمخلوقات، كي تحافظ من خلالها على وجودها واستمرارها، وهذا بالنسبة إلينا معاشر المتفعين بالأشياء، يشكّل تحدياً كبيراً؛ إذ إن ما نزيد الانتفاع به يُؤدي

دائماً نوعاً من التأيي والممانعة، و يجعلنا بالتالي أمام خيارات محددة ومحدودة، وهذا يعني أن الإنسان منخرط في نوع من الصراع مع الزمان والمكان والأشياء، وقد نجم عن ذلك الصراع خبرة واسعة توضح بعض ما يحكمه، وكان من جملة مفردات تلك الخبرة مفردتان جوهريتان:

الأولى هي: أن الصراع يجب أن يفضي إلى نوع من التعاون؛ ولهذا فنحن حين نريد الاستفادة من حيوان؛ فإننا نطعمه ونسقيه ونطبيه وأحياناً نتيح له أن يمارس الرياضة، كما أننا نبحث عن الأمور التي تجعله يشعر أكثر بالارتياح...

الثانية هي: أننا لا نستطيع أن نحصل على (الكم) بأقصى حجم نريده مع حصولنا على (الكيف) بأقصى ما نرغبه من كماله، وهذه الخلاصة التي وصل الإنسان إليها قائمة على أن قدراتنا والزمن المتاح لنا ومواهبنا وأنجليتنا... كلها محدودة، والمحدود لا يفضي بك إلى شيء غير محدود. إذن المطلق هنا هو عدم تمكننا من الحصول على كم مطلق مع الحصول على كيف مطلق في آن واحد، وعلى سبيل المثال؛ فإن الأم في المنزل إذا كانت تملك ثلاثة ساعات من الوقت يومياً للجلوس مع أبنائها والتحدث إليهم ومساعدتهم في حل واجباتهم، فإنها لا تستطيع أن تجلس مع أولادها السبعة كما تجلس أم لديها اهتمام مماثل للأولى، لكن لديها طفلان، والسبب واضح وهو أن ساعات الفراغ سوف تقسم على الأطفال، وسيكون نصيب الواحد من السبعة أقل من ثلث نصيب أي واحد من الطفلين، و قريب من هذا ما نحصل عليه من تجوييد الأداء؛ فالواحد منا لا يستطيع أن يكتب في الساعة الواحدة عشر صفحات بخط يده، وتكون جودة وأناقة ما يكتبه مثل ما إذا كتب ثلاثة صفحات في تلك الساعة، وقد صرخ أحد مشاهير كتبة المصحف الشريف أن كتابة المصحف تستغرق منه نحواً من عامين ونصف، وذلك بسبب ما يتطلبه عمله المبارك من إتقان وتدقيق.

بناء على هذا نجد أن من البلاد من اختارت لمنتجاتها الكيف، فهي تنتج القليل من السلع لكن بجودة وتكلفة عالية إيماناً للكيف والتوعية، كما هو الشأن في اليابان وأوروبا الغربية، ومن الدول من اختارت الكم، فأغرت الأسواق بالبضائع منخفضة الجودة والثمن، كما تفعل الصين وغيرها، وسيظل الوصول إلى أكبر (كم) مع أعظم (كيف) حلمًا يراود الناس، وربما حدثت اختراقات في هذا الشأن عن طريق تصنيع

مواد جديدة مبتكرة أو الوصول إلى طرق جديدة وخارقة في معالجة المواد، وتَعَد تقنية (النانو) بشيء من هذا، لكن لن يتم كسر معادلة (الكيف والكم) على نحو كامل. المشكل أن بعض الناس لا يؤمنون بما ذكرناه من كون الكم لا يكون إلا على حساب الكيف وكون الكيف لا يكون إلا على حساب الكم، ويستشهدون على صحة معتقدهم بأمثلة شاذة، وقد سمعت كثيراً من الناس يقولون: إن فلانة لديها عشرة أولاد، وقد ربّتهم تربة أفضل بكثير من فلانة التي ليس لديها إلا ثلاثة أولاد... وهذا خطأ في التصور يتبعه فساد في الحكم؛ إذ إننا نتحدث هنا عن امرأتين متماثلتين في قدرتهما واهتمامهما ب التربية الصغار، لكن لديهما عدد مختلف من الأولاد. أيضًا هناك اليوم من يتحدث عن القراءة السريعة والقراءة الضوئية، ويزعم أن الإنسان إذا تمرن على هذين النوعين من القراءة، واكتسب المهارة اللازمـة، فإنه يستطيع أن يقرأ في عشر دقائق قراءة مستوعبة وواعية... ما يقرؤه شخص غير مدرب في ساعة! وهذا لا يخلو من المبالغة؛ فالنصوص الفلسفية الصعبة والعميقة لا يستطيع الشخص متوسط الثقافة أن يقرأها، ويستوعبها بسرعة؛ لأن فيها تعريفات ومصطلحات ومفاهيم، هي خارج متناوله، مهما بذل من جهد في تعلم القراءة السريعة.

**السؤال هو: ( ما النسيبي في معادلة الكم والكيف؟ ) :**

النسيبي هنا واسع الأُمَدَاء، صحيح أننا نتعامل مع أشياء محدودة وصماء ومعاندة، لكن الناس مختلفون: اليوم هو أربع وعشرون ساعة بالنسبة إلى كل البشر، لكن هناك من يستغل يومه أفضل استغلال، ويحقق إنجازات متتابعة، وهناك من يبدُّد أوقاته سدى؛ حيث ينهكه فراغ الروح وفراغ العقل... الحديد مادة معروفة، وذات صفات محددة، قيمة الكيلو غرام منها ما يقارب نصف دولار، وهو قبل أن تستفيد منه عبارة عن (كم) أو مادة خام، وعلينا أن نحواله إلى (كيف)، الحداد يأخذ الكيلو من الحديد، فيصنع منه منجلًا، يبيعه بأربعة دولارات، ويشترى به شخص أفضل مهارة، فيصنع منه مسدسًا، ويعده بمitti دولار، ويشترى به شخص ثالث ماهر جدًا، فيصنع منه (عقارب للساعات) فيبيعه بعشرين ألف دولار... هكذا يكون الحديد عبارة عن مادة مقاومة، لكن بالمهارة الفائقة يطوعه الناس، ويستفيدون منه بحسب مهاراتهم، ونحن نشاهد أن تحديات الحديد لنا تختلف باختلاف الناس واختلاف معارفهم

ومهاراتهم، أي أن ممانعته نسبية، وهذه النسبية لا تبني أصل الفكر، وهي أن الكم لا يكون إلا على حساب الكيف... وإنما تؤكدها مع إضافة معنى التسوع.

#### ٤ - التفكير النسبي مدخل لتحسين الوعي:

نحن نعتقد أن الخير الحاضر نادر، كما أن الشر الحالص نادر؛ ومن ثم فإننا مع إيماناً بخطأ من يقول: إن كل شيء نسيبي، وخطأً نفي المطلقات، إلا أننا مع هذا نلمس في (النسبية الثقافية) ما يساعد الوعي على أن يكون أعظم نضجاً وفتحاً؛ وذلك لأن الاعتقاد بأن فهمنا للأشياء ليس موحداً، والاعتقاد بأن الزوايا التي ننظر منها مختلفة... يجعلنا مستعدين للإعذار ببعضنا في حالة الاختلاف، ومستعدين لمراجعة أوضاعنا والانفتاح على أولئك الذين مختلفون معهم في الكثير من الأمور، والاستفادة مما لديهم، وهذه بعض الأمثلة الشارحة لهذه الفكرة:

أ - قال الشافعي رحمه الله: « مذهبنا صواب يتحمل الخطأ، ومذهب غيرنا خطأ يتحمل الصواب »، هذا القول من ذلك الإمام العظيم يرسّخ المنهج الاحتمالي في مقابل التوجه القطعي الجازم والمطلق الذي نلمسه لدى كثير من أنصاف المتعلمين، إن الفقيه يستغل في الحقيقة على مسائل جزئية، والأمور الجزئية دائمًا هي مناط للاختلاف والتباب، والاتفاق فيها كثيراً ما يكون قليلاً أو نادراً. وحين نفكر في المجال الحضاري، وذلك كأن نبحث في أسباب وجود ظاهرة ما، أو نبحث في إصلاح وضعية من الوضعيات، فإن مجال الاختلاف يصبح أوسع مما هو متاح للفقيه؛ ولهذا فإننا حين نؤمن بنسبية اقترابنا من الحق والحقيقة، فإن ذلك يحفزنا على رفع شعار: « الصواب يكتشفه الجميع »؛ فقد نشر على عشرة أسباب أساسية لتفشي الانحلال الخلقي في أحد البلدان، ويكون الذين يعيشون عليها مفكرين وعلماء اجتماع يتمون إلى خمسة أو عشرة بلدان، وقد يأتي من يزيد سبباً أو سببين، وقد يأتي من يقول لك: إن الأسباب الجوهرية للانحلال في ذلك تنحصر في ثلاثة، وقد يكون هذا الاختلاف بسبب التفاوت في فهم تاريخ الانحلال، وقد يكون بسبب الاختلاف في تعريف معنى الأساسي والجوهرى... هذا التظليل يجعلنا نتمتع بعقل منفتحة ومرنة، وهذا ما يحتاج إليه في كل زمان ومكان...

ب - من النادر أن يتحدث الناس لدينا عن حالتنا الحضارية وعن أوضاعنا الثقافية

دون أن يذكروا ما لدى الغرب من أمور يمتدحونها، وأخرى يذمونها، ويفعلون ذلك وهم شبه مكرهين؛ لأنهم يشعرون أن الوعي بالذات كثيراً ما يكون فرغاً عن الوعي بالأخر، وأعتقد أن الجدل يعتمد لدينا في كثير من ذلك بسبب اعتقادنا بالصواب المطلق لكل ما لدينا من أفكار وتقاليد، واعتقادنا بضرورة أن يكون الآخرون مطابقين لنا، وإنما كانوا على خطأ. لن يكون من الصواب أن نتشكّل في صحة ما هو قطعي لدينا، ولكن في الوقت نفسه علينا أن نفرق بين ما هو من قبل العادات وما هو من قبل العقائد والأحكام، علينا في كل حين أن نفهم نظرة الآخرين لأوضاعهم، وأن نفهم جذورها ومدلولاتها، وهذه بعض الأمثلة:

- نحن نعتقد أن من الرجل لامرأة لا تحل له أمر غير جائز، وقد بايع رسول الله ﷺ النساء دون مصافحة لأي منهن، أما في الغرب، فإنهم ينظرون إلى مصافحة المرأة على أنه مثل مصافحة الرجل، ويتجاوزون ذلك إلى التقبيل؛ فتقبيل الرجل للمرأة على الخد لا يعبر في نظرهم عن شهوة أو ريبة؛ بل يعبر عن المودة المشفوعة بالاحترام، وهو عندهم معاير تماماً لتقبيل الفم، كما هو معروف، وبعض المسلمين اليوم - مع الأسف - يفعلون ما يفعله الغربيون، ويررون أنه مثل المصافحة تماماً.

- نحن نعرف أن نبينا ﷺ لم يغال في أي مهر دفعه لأي من زوجاته، كما أنه لم يغال في مهر أي من بناته، ونعرف أنه قال: «خير النكاح أيسره»<sup>(١)</sup>، ونعرف أنه ليس للمهر حد أعلى، ومن هنا فإن بعض المسلمين كانوا يغالون في مهر بناتهم متتجاوزين هدي نبيهم ﷺ لكنهم يعتذرون لذلك بأنهم يريدون أن يعلم الخطاب وأهله أن ابنتهم كريمة وعزيزة على أهلها، أو حتى يجعلوا من المهر الكبير شيئاً احتياطياً تستفيد منه المرأة في أيام الشدائـد، وبعض الأولياء يعتقد أن الحصول على أعلى مهر ممكن هو من مسؤولياته تجاه موليته ومن نصيحته لها... وبعض المسلمين اليوم يطلب لابنته مهراً رمزاً جداً اتباعاً للسنة، وبعضاً يفعلون ذلك من أجل إعطاء الانطباع بالاستغفاء عن مال الخطاب، وأنهم قادرون على تحهيز ابنتهم وتحليتها - إلباسها الحلي - وبعضاً يجعل من الرضا بالمهر القليل يداً عند الزوج ومتة في عنقه، ولدى بعض الشعوب الإسلامية وغيرها أعراف عجيبة غريبة في مسائل المهر، ومن المهم أن ندرك أن كل

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود.

شعب يحاول أن يضفي المنطقية على أعرافه وتقاليده، ويحاول الوصول إلى أهداف مشروعة بطرق مشروعة وغير مشروعة...

- لا شك في أن الترابط الأسري لدينا - على ما أصحابه من وهن - لا يزال أفضل مما هو موجود لدى الشعوب الغربية، وإن من المأثور جداً أن ينفق الرجل على أولاده وهم يتعلمون حتى لو بلغ الواحد منهم الثلاثين، أما البنت فهي جزء عزيز من الأسرة مدى الحياة إذا لم تتزوج... ونحن تعودنا في مجالسنا أن ننقد الغربيين نقداً لاذعاً بسبب انفصال الأبناء والبنات لديهم عن أسرهم في وقت مبكر جداً، وقد يكون من المهم أن نفهم حياثات هذه الوضعية لدى القوم، إنهم لا يجدون مشكلة في أن تتم البنت خارج منزل الأسرة؛ لأن نظرتهم للعرض والشرف بعيدة عن نظرتنا، كما أنهم قد رروا أولادهم - كما رياهم آباءهم - على الاستقلالية والاعتماد على النفس، ولهذا فإن على الواحد منهم أن يخطط حياته على أساس أنه بعد سن الثامنة عشرة قد لا يتلقى أي معونة من والديه، وقد أوجدوا النظم والجمعيات، وهبوا الظروف التي تساعد الشباب على إكمال دراستهم الجامعية من غير مساعدة الأهل...

وإذا كان أسلوبنا في التعامل مع الأبناء هو الأسلوب الأفضل، فإن ما فيه من فضل هو شيء نسبي؛ حيث إن كثيراً من الشباب تعلموا التواكل، وأنقلوا كراهيل آبائهم بكثير من المتطلبات، كما أن تربية الأبناء على الاستقلال والاعتماد على أنفسهم مع ما فيها من إيجابية، لكنها قد تعرضهم للدخول في مداخل مهلكة، وقد تجعلهم يسيئون اختيار طريقهم، وإن الفائدة المرتجحة من هذا الوعي هي الوصول إلى صيغة تجمع بين ما لدينا ولدى الآخرين من محاسن، وتستبعد ما لدينا ولديهم من ناقص.

ج - نحن بفطرتنا نميل إلى إصدار الأحكام التعميمية والمطلقة؛ لأن مؤونتها أقل، ولأنها تعبّ عن ثقافة وتقاسم في الرؤية، أما الأحكام والأفكار ذات المسحة النسبية والتفصيلية، فإنها تحتاج إلى علم أكثر وجهد أكبر، ويدو صاحبها وكأنه متعدد أو متشكك، لكن نظل ملاحظة النسبية في كثير من الأمور أقرب إلى الموضوعية وأقرب إلى القيام لله - تعالى - بالعدل والقسط، إن الخير والكمال والسمو والتلألق أمور لا تبلغ منها أبداً، وليس لها سقف محدد يمكن أن نرممها؛ وذلك بسبب عدم ملاءمة البيئة ومداومة الأشرار وحضور القصور الذاتي... كما أنه ليس للانحطاط

والتدھور والقبح فعمر ينتهي إليه؛ وذلك بسبب قصور الأدوات ومدافعة الأخبار، وحضور شيء من القيم والمثل على نحو دائم، وهذا كله يعني أنه لا مناص من التخلص من الأحكام المطلقة على الشعوب والأشخاص والأوضاع والأحداث، وسأسوق هنا نموذجين لأحكام شتى، أحدهما مطلق، والآخر نسبي؛ لترى أن كل نموذج يمثل موقفاً فكرياً وشعورياً مختلفاً عن النموذج الآخر:

### النموذج الأول:

- ١ - التاريخ الإسلامي تاريخ حروب داخلية وثورات وفن واستبداد.
- ٢ - الشعب الفلاني كسول، والكسيل جزء من طبيعته، ولا فائدة من تحفيزه أو محاولة تشسيطه.
- ٣ - رجل يقول عن زوجته: إنه يختلف معها في كل شيء، ولهذا فإن الحياة معها مستحبة.
- ٤ - أب يقول عن ابنه: إنه غبي وفاشل، وليس لديه أي طموح، ومستقبله سيكون سيئاً جداً.
- ٥ - واقع الأمة الإسلامية متدهور، وهي من سُوء إلى أسوأ، والهوة بينها وبين الغرب تتسع يوماً بعد يوم.
- ٦ - من أراد لنفسه مستقبلاً زاهراً فليدرس الطب أو الهندسة أو إدارة الأعمال.
- ٧ - اللون الأخضر هو أجمل الألوان، ولا يلبس الثياب الخضراء إلا أصحاب الذوق الرفيع.

السؤال الآن: ما الذي يترب على هذه الأحكام على المستوى الفكري والشعوري؟ وما وجه الحلول فيها؟  
الجواب يمكن في الآتي:

- ١ - اليأس من الإصلاح والتقدم والاندفاع في طريق الاستسلام أو طريق الفوضى.
- ٢ - عدم الصدق والافتقار إلى الإنفاق؛ فالنarrative الإسلامي لم يكن كله استبداًّا وحروباً، وليس هناك شعب كل أفراده كسالي، كما أنه ليس هناك رجل يختلف مع زوجته في كل شيء.

- ٣ - التسرع في إصدار الأحكام، وكم من شخص حكم عليه أستاذته وأهله بالفشل، وكان بعد ذلك في عداد المتبذلين والمبدعين.
- ٤ - المستقبل الظاهر لا يكون في دراسة أي تخصص، وإنما يكون بعد توفيق الله تعالى - في تقدم الإنسان في تخصصه، وكونه من الحجاج والمرجعيات فيه.
- ٥ - التعسف ومحاولة تعميم ما هو ذيقي وخاص، فإذا كان فلان يفضل اللون الأخضر، فإن هناك كثيرين يفضلون عليه ألوااناً عديدة.

#### النموذج الثاني:

سنحاول الآن إعادة صياغة الأحكام السابقة من منظور النسبة الثقافية:

- ١ - التاريخ السياسي لأمة الإسلام كان مملوءاً بالأضطرابات والفن، على حين أن التاريخ العلمي والتكنولوجي والاجتماعي كان فيه الكثير من الملامح المشرقة التي تدعو إلى الفخر والاعتزاز.
- ٢ - معظم أبناء الشعب الفلاني كسالى، وذلك بسبب الحرارة الشديدة مع الرطوبة وعدم وجود تنظيم جيد للبيئة، ويمكن لكتير منهم أن يصبحوا أكثر نشاطاً إذا تغيرت الظروف.
- ٣ - أنا أختلف مع زوجتي في أمور كثيرة، وأعتقد أنها لو تجاورنا وتواصلنا أكثر، فإن كثيراً من خلافاتنا سيزول.
- ٤ - يبدو أنني عجزت عن اكتشاف نقاط القوة لدى ابني، كما أنني لم أهتم بتنمية رغبته في العلم، وأنا خائف على مستقبله، ولا بد من التحرك لعمل شيء ما.
- ٥ - على الرغم من أن وضع أمة الإسلام اليوم أفضل - على العموم - من وضعها قبل مئتي سنة، لكن التقدم لدى معظم دولها ما زال ضعيفاً، كما أنها تفتقر إلى السياسات النهوضية الصحيحة، مما يجعل الهوة بيننا وبين الغرب تتسع في كثير من الحالات.

- ٦ - معظم الدارسين للطب والهندسة وإدارة الأعمال يحصلون على وظائف جيدة، والحقيقة أن أي إنسان يبرع في أي تخصص، ويصبح من الأولئك فيه، فإنه يحصل على وظيفة جيدة، كما أن هناك من درس الطب... وعاش حياته كلها فقيراً

ومغموراً؛ لأنه لم يكن أكثر من طبيب عام وعادى جداً.

٧ - أنا شخصياً أفضّل اللون الأخضر؛ لأنه يرمي إلى النمو، وهناك من يفضل الأبيض، ومن يفضل الأسود...

السؤال الآن: ما الانطباعات التي تتركها هذه الصياغة؟ وما وجه ما فيها من صواب و موضوعية؟

الجواب:

١ - الأحكام في هذه الصياغة معللة، على حين كانت في التموزج الأول صلبة ومغلقة وقطعية؛ ومن ثم فإن من يقرأ الصياغة الثانية، يتفاعل معها أكثر، وهي قادرة على إثارة التساؤل لديه.

٢ - هناك إجماع على أن المسلمين قد شيدوا حضارة عظيمة، ولا يتعارض هذا مع كون بعض جوانب تاريخها كانت رمادية أو مزعجة...

٣ - هذه الصياغة أكثر موضوعية وصدقأً؛ فالكلسل عند بعض الشعوب ليس عاملاً، وهو ليس جزءاً من طبيعة أبنائهما، وإنما هو ولد المناخ والتخلّف وضعف درجة التصنيع...

٤ - نقدم هذه الصياغة الأمل في الإصلاح ووجود مخرج من التأزم على نحو ما نشاهد في تشخيص خلاف الرجل مع زوجته في البند الثالث، وعلى نحو ما نجد في توصيف أحد الآباء حالة ابنه في البند الرابع.

٥ - وضع اليد على مكمن الداء كما هو الشأن في البند الخامس؛ حيث وضحتنا أن القصور في السياسات، وليس النقص في الإمكانيات، هو السبب الجوهرى في اتساع الهوة بيننا وبين الغرب.

٦ - منحت هذه الصياغة حق الاختلاف في الأذواق، وهذا يؤسس للتنوعية الثقافية، ويجعل الأرضية الثقافية المشتركة أعظم رحابة.

هكذا نجد أن النسبة الثقافية تساعده فعلاً على رؤية كثير من الأمور بطريقة جيدة، كما تساعده على أن تكون أقوم لله بالعدل، وأن تكون أشد موضوعية وصدقأً.

## ٥ - النسبة تسهل تجاوز القيم:

نحن نحاول هنا النظر إلى النسبي والمطلق بوصفهما وجهين لعملة واحدة؛ حيث لا معنى للنسبي من غير وجود المطلق، ولا معنى للمطلق من غير وجود النسبي، تماماً كما أنه لا معنى للخير من غير وجود الشر، ولا معنى للشر من غير وجود الخير، وكما أنه لا معنى للجمال من غير وجود القبح، ولا معنى للقبح من غير وجود الجمال... نحن المسلمين ننظر إلى القيم الكبرى على أنها ثابتة وراسخة، والمحافظة عليها تستحق التضحية، أما النسبة فإنها الشيء المتصل بالقيم لكنه غير عام وغير ثابت، أو هي الشيء الذي يحد من إطلاقيّة القيم إلى درجة متحقّقها بالكلية!

يقول أحد الباحثين شارحاً صورة من صور المأسى التي تركتها النسبة في الغرب: كت مرأة أجلس أمام التليفزيون البريطاني، وشاهدت برنامجاً من برامج الأحاديث (توك شو) وكان يجلس على المنصة رجل وزوجته وأطفالهما مع إضافة بسيطة للغاية، وهو عشيق الرجل (نعم عشيقه لا عشيقته) الذي يعيش معهم تحت سقف المنزل، ولكن بموافقة الزوجة والأطفال، وقد واجه الجمهور إشكالية حقيقة، هي أن جميع أعضاء الأسرة موافقون على هذا الوضع الشاذ، فمن ناحية توجد الموافقة، وهي الشرط الأساسي والوحيد لأي علاقة جنسية في العالم الغربي، ومن ناحية أخرى يوجد الشذوذ الذي يتسم به هذا الوضع، ومصدر المشكلة يكمن في عدم وجود مرجعية دينية أو أخلاقية أو إنسانية يؤمن بها الجميع، ويستمدون منها معيارية ما، لهذا كلما كان أحد الحاضرين يحتاج على شيء، كان الزوج والذي أحضر عشيقه ليعيش معه يرد بكل ثقة بأن زوجته موافقة وسعيدة، وأن أولاده أيضاً موافقون وسعداء، وإن أي تدخل في شؤونهم سيكون إهدازاً لحرি�تهم وحقهم في الاختيار<sup>(١)</sup>، هكذا حين أعرض الغرب عن الوحي الذي يمنح المطلقات والثوابت صارت النسبة هي سيدة الموقف، وصار من الممكن لأمر شبيع جداً أن يكون سائغاً إذا تم برضاء أصحاب العلاقة! ولعلنا نلاحظ أن من أكثر العبارات تداولًا في خطابنا اليومي: «لكل واحد مثلاً طرفة الخاصة»، «تمارس علينا ضغوط كبيرة، ولا بد من المرونة»، «البيئة التي نعيش فيها لا تساعد على الصدق ولا على الاستقامة»... هذه التعبيرات وأشباهها

(١) رحلتي الفكرية (١٩٩٠، ١٩٩١) بتصريف يسبر.

مع أنها تعبر عن جانب من الحقيقة إلا أن الرسالة البلاغية التي تنطوي عليها، هي: التمسوا لنا العذر، ولا تُصدروا علينا حكماً واحداً، وهذا في الحقيقة هو جوهر التفكير النسبي، ونحن في حاجة إلى نوع من اليقظة العقلية حول هذه المسألة حتى لا نصاب بالترهل الأخلاقي، وأنا أعتقد أن الارتفاع بمستوى الالتزام بالأحكام والأداب الشرعية يحتاج إلى ثلاثة أمور: نسبة جيدة من الأشخاص الأخلاقيين، ونظم تحرس الفضيلة، وأعراف وتقالييد صارمة تجاه التحلل الأخلاقي والانحراف السلوكي.

#### ٦ - المطلق أساس في تفسير الماضي:

إذا كان فهم الواقع معقداً وعسيراً، فإن فهم الماضي والوقوف على أسباب وقائمه وأحداثه أشد عسراً وتعقيداً؛ وذلك لأننا نحاول استيعابه وتفسيره من خلال روايات كثيرة يشوبها التناقض والنقص، وبعضها يعاني من التزوير المتمم، وكثير منها يعاني من نقص كفاءة المؤرخ في الإحاطة بالحدث وفي فهمه... وإذا رجعنا إلى كتب التاريخ الإسلامي وجدنا أن مؤلفيها اتبعوا - في الغالب - أسلوب السرد وسوق الأحداث دون تأمل في مضامينها ودون تعليل لها ودون ترجيح لرواية على أخرى، وهذا جعل القائدة من قراءاتها قليلة، بل إن بعض المعلومات الموجودة فيها مضللة وصارفة عن رؤية الحقيقة، ومن هنا فإن اعتماد (المطلق) - وهو هنا السنن الربانية في الأنفس والمجتمعات - أساساً في فهم التاريخ - سوف يكون عملاً مثيراً وموثوقاً إلى حد بعيد، وسوف أشرح ما أراه في هذا الشأن عبر الأمثلة الآتية:

#### أ - لماذا حدثت الردة؟

حين توفي رسول الله ﷺ ارتدى معظم العرب، ومن المؤرخين من يقول: إن الذين ثبتوا على الإسلام هم أهل مكة والمدينة والطائف، وتفسير هذا واضح، وهو أن الذين ثبتوا على الإسلام هم الذين أتيح لهم التضليل من هديه ﷺ وأتيح لهم الاحتكاك به، ثم إن دخول أهل مكة والمدينة في الإسلام استغرق وقتاً طويلاً نسبياً؛ فنحن نعرف أن ثمار ثلاث عشرة سنة من العمل الدعوي الشاق في مكة المكرمة كانت عبارة عن إسلام بضع مئات من الرجال والنساء، وهذا العدد قليل جداً بالنسبة إلى الأعداد التي دخلت فيما بعد؛ حيث يذكر علماء السيرة أنه بعد فتح مكة وانتهاء غزوة تبوك حدث يقين عند قبائل العرب بأن الإسلام قوة لا تُغلب، فما كان منها إلا أن أخذت

في التوافد على النبي ﷺ حتى إن العام التاسع من الهجرة صار يسمى عام الوفود، كما قال جل شأنه: ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفَوْجًا ﴾ [النصر: ٢] وقد ذكر بعض المؤرخين أن ذلك العام شهد قدوم قرابة ستين وفداً على النبي ﷺ من سائر أنحاء الجزيرة العربية، وقد كانت القبيلة كلها تسلم إذا أسلم رئيسها وأهل زعامتها، وإذا تذكينا أن نبينا ﷺ قد توفي في الربع الأول من السنة الحادية عشرة عرفاً أن ما أتيح له من الوقت من أجل تمكين العقيدة والدين الحنيف في قلوب المسلمين الجدد كان في حدود سنتين، وهذه مدة قصيرة جدًا في عالم التربية والتنشئة الأخلاقية.

المطلق في هذا الموضوع هو: أن ما يتكون بطريقة سهلة وسريعة يمكن أن يتৎصر أيضًا بطريقة سهلة وسريعة، ولهذا المطلق من الاستثناء ما لغيره من المطلقات، ولكن العبرة بالغالب والنادر لا حكم له. وأنا أعتقد أن على الشباب الماضي في طريق المفكرين أن يحاول توسيع مدلول مثل هذا المطلق من خلال استخدامه في تفسير كثير من الأحداث الماضية والحاضرة.

### ب - الجهل مصدر شرور:

كثيراً ما نتعامل مع ( العلم ) على أنه الأصل؛ ولهذا فإننا نستغرب من جهة الجهلاء، لكن الحقيقة الراسخة هي أن الأصل في الناس الجهل إلا إذا تعلموا، وقد ثبت بأن الحرافة والشمعة والأباطيل والأوهام موجودة ومقيمة على نحو دائم كما يقيم الظلام في كهف عظيم، أغلق بابه بإحكام، وكما أن النور هو الذي يبدد الظلام، فإن العلم هو الذي يبدد الحرافة، ورحم الله ابن القاسم حين قال: « الجهل شجرة تنبت فيها كل الشرور »

لو تأملنا في حالنا اليوم لوجدنا أن لدينا عدداً هائلاً من المدارس، ومع هذا فنسبة الأمية لدى المسلمين ما زالت في حدود ( ٣٠٪ )، فكيف كان الحال إذن يوم لم يكن التعليم إلزامياً؛ بل لم يكن هناك مدارس حكومية؟ وكيف كان الحال لما كان السواد الأعظم من الناس أميين، وكان مستوى ما لدى معظم المتعلمين منهم من معرفة لا يتجاوز مستوى ما لدى طالب في الصف الخامس الابتدائي في هذه الأيام؟

الذي أود أن أؤكّد عليه هنا هو أن البنية العميقه لعقل البشر هي بنية خرافية، وإن التخلص منها يحتاج إلى الكثير من العلم الجيد والتربية المنهجية الراسدة، وبما أن هذا لا يتوفر بالقدر الكافي في كثير من الأحيان، فإن عقول الناس تظل عند رؤوس أصابع الوهم والخرافة، ويمكن لها القبض عليها حين تسع الفرصة. الآن كيف يمكننا الاستفادة من هذه السنة في تفسير التاريخ؟

في الجواب على هذا التساؤل أشير إلى الآتي:

- الناظر في تاريخنا يلحظ وجود أعداد كبيرة من المذاهب المختلفة، ويلاحظ في كثير منها أقوالاً وآراء مضحكة وضاربة في الخرافات، وإن إلقاء نظرة سريعة على ما كتبه ابن حزم والشهرستاني في الملل والنحل، تجعل المرء يدهش من كثرة ما أنتجه الجهل والهوى من آراء فاسدة وبعيدة كل البعد عن الصواب، ولو تأملنا في وضعنا اليوم حيث ينتشر العلم، ويتحسنوعي، فإننا سنجد أنه ليس لدينا ولا عشر التخل والمذاهب التي مزقت وحدة الأمة على مدار القرون العشرة الأولى من تاريخ الإسلام، ولا غرابة في هذا؛ فإن انتشار العلم الصحيح يجعل المجال أمام الفكر المحرّف والرأي الفطير ضيقاً.

- في حالة التقدم الحضاري تكون المعرفة هي مركز السلطة، وهي أداة التوجيه والتفكير والضبط الاجتماعي، وحين يتشرّج الجهل تصبح القوة المسلحة هي أداة السيطرة والتحكم، ومن هنا فإن انحسار العلم في مجتمعاتنا على مدى عصور الانحطاط أدى إلى انحسار التفاوض السياسي والحلول المتوسطة، وصار السائد هو الحرب الأهلية، فما تقاد تهداً ثورة في بلد حتى تنفجر ثورة في بلد آخر، ونحن نلاحظ اليوم كيف أن الحروب الطاحنة والمدمرة تجري في البلاد بعيدة عن تيار الحضارة على حين أن الدول المتقدمة أوجدت أراضيات مشتركة للوئام الاجتماعي، وحلت مشكلات الحدود مع جيرانها وتفرغت للتنمية وتلبية احتياجات الناس.

**الخلاصة:** العلم يساعد الناس على حل مشكلاتهم والوصول إلى حقوقهم من غير إراقة الدماء؛ أما الجهل فيدفع الناس إلى الاقتتال الخالي من الرحمة، ليجدوا بعد مدة أنهم أراقوا دماء، ولم يحصلوا على الحقوق!

- إن سلاح العقل هو العلم، وعقل بلا معرفة جيدة، أشبه بجندي أعزل، ومن هنا فإن ضعف السوية العلمية لدى الإنسان يجعله أسيراً لعواطفه ومشاعره، ونحن نعرف

أن العواطف عمباء، وميالة إلى التطرف، وإن العقل المثقف هو الذي يقيها في الحيز الإيجابي، ويتحول بينها وبين أن تكون طريقاً للغلو والانتقام، وقد كان الناس في الجاهلية يتصرفون تحت ضغط عواطفهم، وحرب ( داحس والغبراء ) دليل واضح على ذلك، وحين جاء الإسلام وأثار العقول والقلوب ثاب الناس إلى رشدتهم، لكن بعد مرور ستة أو سبعة قرون، فقد العلم ما كان له من توهج ونفوذ في المجتمع، وعم الجهل؛ فعاد الناس إلى عادات الثأر القبلي، وصارت الأفعال وردود الأفعال على المستوى الاجتماعي أكثر خصوصاً لفورات العاطفة منها لأحكام العقل. ومن الملاحظ اليوم أن الشخص المتعلّم - رجلاً كان أو امرأة - أشد سيطرة على عواطفه من غير المتعلّم؛ وذلك لأن العلم يُرشد المرأة إلى النقطة التي يجب أن يتعوقف عندها الانفعال.

- الجهل مصدر للتناقض؛ إذ إن الإنسان يستطيع ولو لم يكن متعلماً، كشف التناقضات الكبرى أو البديهية، مثل أن يكون الإنسان داخل داره وخارجها وأن يكون جائعاً وشبعان وطفلاً وشيخاً... في آن واحد، أما التناقضات المتعلقة بالعتقد والسلوك والحكم على الأمور فإن كشفها يحتاج إلى قدر من العلم والمعرفة، ومن هنا فإننا نجد الأميين وأشباههم ينافقون أنفسهم، وكم رأينا من المسلمين من يقول: إنه يحب الله ورسوله، وإن روحه فداء للإسلام، وهو لا يصلّي، وربما شرب المسكر!! إن الجهل الذي يخيم عليه يمنعه من فهم مقتضيات ادعاء حب الله ورسوله، وهي القيام بالواجبات والكف عن العاصي، كما أنها رأينا من يضرب زوجته، ويشنتمها بأقذع الألفاظ، ثم يدعي أنه يحبها جئاً جئاً، ولا يستطيع العيش من دونها... أما المتعلّم فإنه يحاول على نحو دائم أن يكون منسجماً مع نفسه، وأن يوجد نوعاً من الانسجام بين ما يقول وبين ما يفعل.

وإذا عدنا إلى التاريخ وقرأنا أحوال الناس، فسنرى أن ما لديهم من تناقض أكبر بكثير مما هو موجود الآن، وقد قال ابن الجوزي المتوفى سنة ( ٥٥٩٧ هـ ) في كتابه ( صيد الخاطر ) : وفي زماننا من لو جلّته حتى يفطر رمضان ما أفطر، ولو أنك جلّته حتى يصلّي ما صلّى ! وهذا مع أن الصلاة أهم، وإن في زماننا هذا من العامة من هو نموذج مطابق لمن ذكرهم ابن الجوزي !

- الجهل مصدر للخوف والتورّم من أشياء لا يقول بالخوف منها عقل ولا نقل، وإن العامة قد توارثوا جيلاً عن جيل الخوف من كثير من الأشياء التي لا يخاف منها من لديه حظ من العلم، إن لديهم خوفاً شديداً من الجنان والمعفاريت، وهم يتحدثون كثيراً عن رؤية بعض الأشباح، كما أنهم يخافون من ذكر بعض الأمراض توهماً منهم أن المرض إذا ذُكر حضر، أو صار الناس مهبيين للإصابة به، وكم رأينا من يقول عن ابتيلى بالسرطان: إنه مصاب بذلك المرض، وهناك من يخاف من أن يغير صحتنا أو قدراً في يوم معين من الأسبوع، ومن يخاف من كنس البيت، ومن يخاف من قص أظافره في وقت معين من اليوم... كلما رجعنا إلى الوراء رأينا هذه الأمور أشد رسوحاً في نفوس الناس بسبب فشل الجهل، وإذا نظرنا في واقعنا اليوم وجدنا أن كل هذا قد اختفى تماماً إلا في البيئات الجاهلة، والتي تشكل امتداداً للبيئات الجاهلة عبر التاريخ. لهذا كله ندرك الحكمة البالغة في كون أول كلمة نزلت على رسول الله ﷺ هي كلمة (اقرأ). لنقرأ حتى نعرف ربنا وديتنا، ولنقرأ حتى نشعر بالأمن، ونعرف كيف نحقق مصالحتنا، ونطالب حقوقنا من غير اقتتال.

ج - تاريخنا صراع بين المبادئ والظروف الصعبة:

أكرم الله - جل شأنه - هذه الأمة بدين، هو آخر الأديان، وأكثراها تفصيلاً في شؤون الحياة، وقد صارت تعاليم الإسلام الحنيف بالنسبة إلى المسلم هي السراج الذي يضيء له الطريق، وهي الزاد الروحي الذي يعينه على المسير، وهي الأداة التي يغالب بها مشاق الحياة، على حين أن الأمم التي لم تظفر بالهدي الرباني، وتلك التي حرّفته، وأجهضته من كل معانيه الأساسية - صارت في حالة واسعة من الحيرة والاضطراب، وقدت المرجعية التي يمكن أن تتحكم إليها في حسم النزاع في الكثير من الأمور؛ ولهذا فإن علينا ونحن نحاول فهم التاريخ الإسلامي أن نركّز على قطعيات الدين بوصفها ثوابت ومطلقات تتعارك مع شهوات النفوس وصعوبات الحياة والظروف غير الملائمة...

ولعل أمس في هذا الإطار الأمور التالية:

## \* الصعيد الاجتماعي:

- من الأمور المطلقة في الحياة العامة وجود نوع من المفارقة بين ظاهر المجتمع

وباطنه، وهذا موجود لدى كل الأمم؛ إذ إن الناس يعملون في السر أموراً يستحبون من ممارستها في العلن، وهناك نصوص تحث على عدم المجاهرة بالمعصية على ما هو معروف ومشهور، وبالنسبة إلى أمة الإسلام فإن هناك نوعاً من الخصوصية في هذا الشأن؛ حيث إن إيمان المسلم بالله - تعالى - ويقينه بأنه مطلع عليه... يدفعه إلى أن يكون مستقيماً في سره وعلاناته؛ بل إن الإخلاص والورع يدفعان بالمسلم إلى أن يحرص على أن يكون باطنه خيراً من ظاهره، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن كون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاحتساب على العصاة من معالم الحياة الاجتماعية في الإسلام، فإن هذا يدفع بمن خفّ لديهم الوازع الديني إلى أن يكون ظاهراً لهم خيراً من باطنهم، أي أن يكون سلوكهم في بيوتهم وخلواتهم تباعاً لشهواتهم، وأن يكون سلوكهم الاجتماعي العام منضبطاً بالعرف الصالح وبآداب الشريعة الغراء، ولدينا شيء مهمٌ جداً في هذا الشأن، هو أن كثيراً من الناس في الماضي كانوا يعيشون في قرى صغيرة، أما في المدن فإن الذين يتبعون إلى عائلة أو قبيلة واحدة، كانوا يملؤون إلى السكنى في حيٍ واحد، وهذا يجعل سلطان العرف أقوى؛ حيث يراقب الناس بعضهم بعضاً بسهولة، ويجعل الخوف من الفضيحة كبيراً، والخلاصة: هي أن السلوك الشخصي للناس في بيوتهم وخلواتهم يظل محكوماً بما لديهم من إيمان حيٍ وما تلقوه من تربية رشيدة في حياتهم الأسرية، أما سلوكهم الاجتماعي المعلن والظاهر فإنه يظل محكوماً بمدى اهتمام الناس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبالبيئات التي يسكنون فيها؛ فالبيئات كلما كانت أضيق كان سلوك الناس أميل إلى التحفظ ومراعاة العرف والعكس صحيح.

ما الذي يعنيه كل هذا؟

إنه يعني الآتي:

- ١ - قراءة الأحوال الاجتماعية في أي مرحلة تاريخية هي قراءة ظنية اجتهادية؛ ولهذا فإن علينا توقع الخطأ، كما أن علينا أن تكون رفيقين في أحكامنا حتى لا نظلم أحدهما، وحتى لا نقع في قبضة التصلب الفكري.
- ٢ - السلوك الشخصي والاجتماعي لمعظم الناس في الحفاء يكون أقل استقامة من سلوكهم على الملا.

٣ - حين ينتشر الجهل ونعم القلاقل الداخلية، فإن الوعي بالمضامين الحضارية يصبح ضعيفاً، وتقوم التربية حيثما على اتخاذ العادات والتقاليد والأعراف محاذة تدور في فلكها أدبيات التربية، كما أن المجتمع يرضاخ لها رضوخاً شديداً، وهذا ما نلاحظه في الفرون السبعة الأخيرة - على الأقل - من تاريخ المسلمين، ولا شك أن الوضع قد تحسن في الخمسين سنة الماضية تحسناً كبيراً.

٤ - كان المصلحون على مدار التاريخ الإسلامي يشكرون من قلة المربين الجيدين ومن قلة الأسر المؤهلة لأن تربى أبناءها تربية جيدة، وهذا يجعل تأثير الواقع الداخلي في السلوك أقل من تأثير الضغط الاجتماعي وضغط الظروف الصعبة، ولنأمل من التأكيد بأن هناك دائئراً استثناءات كثيرة، ونحن نتكلم عن الطابع العام، أو ما يشكل ظاهرة.

٥ - في القرى والبيئات الضيقة يمشي الشخص في الشارع وهو مرافق من قبل عشرات الناس الذين يعرفونه، على حين أنه قد يمشي في مدينة كبرى ساعة دون أن يلتقي بأحد شاهده من قبل، ومن هنا فإن رقابة المجتمع في القرى تكون صارمة جداً، ويخشى الناس على سمعتهم خشية شديدة، وهذا يعني أن الهوة التي تفصل بين السلوك الخفي والسلوك المعلن في الشارع، تكون في العادة كبيرة، وتضيق تلك الهوة في المدن بسبب ضعف رقابة الشارع، وهذا هو الذي يفسر الظاهرة التاريخية البارزة، وهي أن النساء في الريف الإسلامي - على نحو عام - يغضبن رؤوسهن وكل بدنهن مع أن المرأة الريفية قد تكون غير مهتمة بإقامة الشعائر، أما في المدن الكبرى - كما هو مشاهد اليوم - فإن الناس يجدون مساحات أوسع للتعبير عن معتقداتهم وخصوصياتهم.

#### \* الصعيد السياسي:

لله ~~ثبات~~ سن في كل مجال من مجالات الحياة وكل شأن من شؤونها، وهذه السن هي ما سميّناها بالمطلقات؛ لأنها ماضية في توجيه حركة البشر إلى يوم الدين، وبما أن المجال السياسي هو مجال قيادي بين المجالات، فإن فهمه يستحق اهتماماً خاصاً؛ وحيث إن المطلقات فيه كثيرة، فإني سأعرض لأهمها عبر الآتي:

١ - الشورى ركن ركيز في الحياة عامة وفي الحياة السياسية خاصة، وهي في الإسلام أسلوب حياة، بمعنى أن المسلمين يتشارون في كل شؤونهم على كل

المستويات وفي كل المجالات، وهذا ما أشار إليه قول الله - تعالى - : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُرِئِيْنَ وَمِنَ رَّقْبَتِهِمْ يُتَفَوَّهُونَ ﴾ [الشورى: ٣٨].

والملطلق في مسألة الشورى هو أن الله فطر الخلق على السمع والطاعة والتفاعل والإذعان في الأمور التي يشاورون فيها؛ لأنهم يشعرون أنهم يفعلون ما هم مقتنعون به، أو ما هو قناعة لأكثربهم دون إجبار أو إكراه، أما حين تُسن النظم، وتصدر القرارات بعيداً عن الناس، فإنهم يرون في الامثال لها مصدرًا للإهانة، ونحن نعرف كيف كان نبينا ﷺ يستشير أصحابه حتى في بعض ما يشبه أن يكون شأنًا شخصيًّا له - كحادثة الإفك مثلاً - كما نعرف أن الخلفاء الراشدين ﷺ مارسوا الشورى على نطاق موسع جدًا، وذكر ابن كثير عن عبد الرحمن بن عوف أن أعضاء لجنة الشورى التي شكلها عمر لاختيار خليفة بعده، أوكلوا الأمر إليه كي يستطيع آراء الناس في ترجيح واحد من اثنين بعدما انحصر الاختيار بينهما، فأخذ عبد الرحمن ﷺ يتعرف على آراء رؤوس الناس حتى خلص إلى النساء المخدرات في حجابهن، وحتى سأل الولدان في المكاتب، وحتى سأله من يرد من الركبان والأعراب إلى المدينة في مدة ثلاثة أيام بليالهن، فلم يجد اثنين يختلفان في تقدم عثمان بن عفان إلا ما ينقل عن عمار والمقداد، فإنهما أشارا بعلٰى، ثم بايعا مع الناس <sup>(١)</sup>. بعد عصر الخلفاء الراشدين أخذت رقعة الدولة الإسلامية تتسع اتساعاً عظيماً، وكان ذلك يقتضي توسيع دائرة الشورى وتنظيمها لغير عن إرادات الشعوب الإسلامية، لكن الذي حدث هو العكس؛ حيث تم تهميش أهل الحل والعقد، ومن يستشار منهم يستشار في غير الأمور الجوهرية، وليس لرأيه أي قيمة إزامية، وقد كان هذا معلولاً من أقوى المعاول التي هدمت في صرح الحضارة الإسلامية العتيدة. إن الناس مهما كانت درجة معرفتهم متذلة، ومهما كان تدينيهم سطحيًّا، فإنهم يظلون أقرب إلى الرشد في حسم أمرهم والدرية بمصالحهم.

٢ - إذا كان الإنسان لا يشبع من المال مهما كثُر وفاض، فإن الدولة لا ترتوي من النفوذ والتَّوْسُع والتَّحْكُم مهما امتد وتصفح، هذه سنة من سن الله - تعالى - في الحكومات، سواء أكانت مسلمة أو غير مسلمة، متقدمة أو متخلفة، ويشير إلى هذا قول الله - تعالى - : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِيَبَادِرُوهُ، لَبَغَوا فِي الْأَرْضِنَ ﴾ [الشورى: ٢٧].

(١) البداية والنهاية (١٥٨/٧).

وقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَنَ لِيَلْعَمُ﴾ ③ أنَّ رَمَاهُ أَسْتَقْنَ ﴿الملق: ٦، ٧﴾، إن البسط في المال والجاه والقوة والسلطة والذكاء والمنصب ورفعة النسب... إن كل ذلك يغري الإنسان بالتمدد والبغى، ويدفعه دفعة إلى تجاوز الحدود ما لم يوجد رادع من دين أو حُلُق أو مانع من أي نوع... وعلينا أن نقرأ تاريخنا من أفق هذا (المطلق) أي نحاول البحث عن مدى صلابة الرادع الذي كان يردع كبار موظفي الدولة عن البغي والعدوان والظلم والفساد واستغلال السلطة. وهناك ملاحظة ذكية تضفي شيئاً من التفصيل على هذا، وهي أن الدولة كلما كانت صغيرة ومستقرة أمكّن ضبط أمرها، ووضع حدود لتجاوز موظفيها، كما أن رأس الدولة الصغيرة حين يكون صالحاً يحتاج إلى القليل من الأعون والمساعدين، ويمكن أن يحصل عليهم، لكن العثور على ملايين الموظفين المتازين أمر صعب جدًا، وواقع الأم اليوم يشير إلى شيء من هذا لمن يحب أن ينظر، ويقرأ، ويحلل.

قد كان الحل لعضلة بغي الأقوباء يكمن في حرية النقد للتصرفات الخاطئة وفي الرقابة الاجتماعية على شاغلي الوظائف العامة، وحين يتوج ذلك باستقلال القضاء تكون الأمة قد حصلت على كثير من الضمانات لاستقامة أمور الدولة، لكنَّ ما تراكم من خبرات ومعارف في هذا الشأن كان ضعيفاً جدًا في الأزمنة الماضية؛ ولذلك لم تستطع الدول الإسلامية المتعاقبة إيجاد صيغة يعبرُ من خلالها الناس عن آرائهم دون ممارسة العنف؛ ولهذا ابتليت المجتمعات الإسلامية بثورات وفتن داخلية لا حصر لها، ويكفي أن نقول: إن ثورة الرخ - على ما ذكر بعض المؤرخين - استمرت خمسة عشر عاماً أيام العباسين، وقتل فيها نحو مليون ونصف من الأنس، وهذا أضعف الدولة والمجتمعات الإسلامية على حد سواء، ولم يتوقف الفساد والظلم؛ لأن الحروب الداخلية لا تقضي على الفساد، وإنما توفر فرصاً جديدة له.

٣ - في علم السياسة: كل شيء فردي إذا صار جماعياً صار سياسياً، أي كل نشاط فردي مهما كان نوعه - ولو قيام الليل - يظل غير مهم إلا إذا تحول إلى نشاط جماعي، فإنه يصبح في نظر الحكومات ذا بعد سياسي، ويصبح بالتالي مقلقاً، وإذا تضخم إلى حد كبير ولد الشعور بالخطر، وهذا المطلق موجود أيضاً لدى كل الدول وفي كل الأزمنة، ويكمل هذا المطلق مطلقاً آخر، هو أن الحكومة مهما كانت صالحة

ومستقيمة، ومهما كان أداؤها ممتازاً ومتقدماً، فإنها لا تستطيع الحصول على الإجماع؛ وذلك لأنه سيظل هناك من يتأذى من إقامة العدل وتشيد صروح الحق، ورحم الله الماوردي حين قال:

إن نصف الناس أعداء لفن ولئي الأحكام هذا إن عدل

كما أن بعضها من إجراءات وتصيرات أي دولة مهما كانت صالحة، يظل مثيراً للجدل لدى بعض الناس، ويظل قابلاً للتأويل السوء والقراءة غير التزية، وهذا المطلق يفسر التزاعات المستمرة في تاريخنا الإسلامي بين أهل العلم والفكر والدعوة وبين رجالات الدولة؛ وذلك لأن العلم يؤسس لأصحابه سلطة، ويجعل منهم منافسين أقوىاء لأهل السياسة، وهذا موجود لدى كل الأمم وفي كل الأزمات.

٤ - الاضطرابات الداخلية والحروب والتزاعات الخارجية، تُضعف من قدرة الحكومة على سن القوانين وإنشاء النظم والاحتكام إلى التقافة في تسخير أمور المجتمع، وتُؤجّلها إلى استخدام القوة والعنف، وذلك أن خوض الدولة للحروب مع دول أخرى وتمددها في أراضي الآخرين - كما حصل للدولة الإسلامية في عدد من المراحل التاريخية - ووجود قلائل واضطرابات داخلية، مما يصرف وعي الدولة نحو امتلاك أكبر قدر من القوة المسلحة مستشارة قداسة الدفاع عن الوجود واستمرار الكيان، ويتربّ على هذا العديد من الأمور، أهمها أمران:

أ - يكون هناك نوع من ضعف الاهتمام بالحياة المدنية، على مستوى القضاء والصحة والتعليم، وتُضعف الرقابة على تطبيق النظم والقوانين، وهذا يؤدي إلى توسيع رقعة الفساد.

ب - حين تتضخم القوى المسلحة تبدأ بفرض مصالحها على الأجهزة السياسية، وتسعى رويداً رويداً إلى عسكرة الحياة العامة، واللجوء إلى القوة في حل الإشكالات التي يمكن حلها في الأصل عن طريق السياسة و (الدبلوماسية)، وذكر بعض الباحثين في حركة الفتح الإسلامية أنه قد لوحظ بعد انقضاء القرن الأول الهجري أن اهتمام كثير من قادة الجيوش الإسلامية بإسلام أهل البلاد التي دخلوها صار ضعيفاً، ولهذا فلم نعد نسمع بعرض الإسلام عليهم، فإن أبويا طلبت منهم الجزية، فإن أبويا قُوتلوا، كما هو الحكم الشرعي في ذلك، وإنما صار القتال هو الشيء الذي

يبدؤون به حرصاً على الغنائم، وقد كان ذلك من أجل مصلحة الجيش، وليس من أجل مصلحة الدولة أو الأمة.

كنت أود لو تسع المساحة أمامي كي أذكر كيف أثرت الشئون التي أشرت إليها في مسيرة التاريخ الإسلامي، وكيف أدى عدم مراعاتها إلى توقف الحضارة الإسلامية عن العطاء، لكن هذا غير متاح الآن؛ فلعلني أبحثه على نحو مستقل في يوم من الأيام بحول الله وطؤله، لكن أود قبل أن أختتم الحديث عن قضية فهم التاريخ أن أشير إلى شيء مهم، هو أن طبيعة السنن و (المطلقات) التاريخية والاجتماعية، غير صارمة، وهي - كما أشرنا من قبل - أقل صلابة من السنن الطبيعية كسنن الفلك والفيزياء والكميات، وعلى سبيل المثال فإن عدم تنظيم الشورى على النحو المطلوب وعدم جعلها ملزمة في أي مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي - فيما نعلم - لم يكن له تأثير واحد، فإذا كان الخليفة أو السلطان صالحاً تقىً ذا كفاءة عالية كان ضرر ذلك أقل بكثير مما لو كان غير صالح أو غير كفء، وهذا هو ما نقصده بتعانق النسيبي مع المطلق في القضايا الإنسانية.

الشيء الذي أود التأكيد عليه، هو أن فهم طبائع الأشياء والسنن الربانية في الخلق يشكل العمود الفقري للتفكير المنهجي الموثوق، وإن من الصعب جداً أن نرى شخصاً يمكن أن نطلق عليه لقب مفكر، وهو ضعيف الحساسية نحو هذه القضية؛ ومن ثم فإن الإبحار فيها يأتي بما لا يمكن تقديره من الفهم وال بصيرة؛ ولله الحمد في الأولى والآخرة.

## المعرفة وقود العقل

العقل آلة جبارة وعظيمة، ميّز الخالق - جل وعز - الإنسان بها عن سائر الحيوان، وهذا لا يعارض كونه محدوداً، كما لا يعارض افتقاره افتقاراً شديداً إلى العلم والخبرة كي يقوم بعمله، أو حتى يكون لعمله قيمة ومعنى. أحياناً نشّبه العقل بالسراج، ونشّبه ما تدخله عليه من معلومات و المعارف بالزيت الذي نزوّده به حتى ينير، ويقوم بوظيفته، وأحياناً نشّبه العقل بـ(الرّحى) ونشّبه العلم بالحربوب التي نضعها فيها حتى يكون لدورانها معنى أو فائدة، وهذا التشبيه جيد وواضح؛ فهو يدل على أن للرّحى والسراج وجوداً مستقلاً عن وجود الحربوب والرّبيت، كما يدل على أن كلاًّ منهما يحتاج إلى غيره، ويعمل في نطاقه، ونحن نعرف أننا حين نزوّد الرّحى بحب فاسد أو مخلوط بالتراب، فإن الطحين سيكون كذلك، وحين نزوّد السراج بزيت عكر، أو فيه شيء من الماء فإن ضوءه لن يكون صافياً، إنما سيختلطه شيء من الدخان، وهكذا العقل ينتج الأخطاء والأوهام والضلالات حين نزوّده بمعلومات خاطئة أو مضللة، لكن العقل يختلف عن الرّحى وعن السراج من بعض الوجوه؛ فهو لا يكفي عن العمل، ولا يوقف عن النظر والاستنتاج، ولو لم نزوّده بالمعرفات المطلوبة، كما أنه - كما أشرنا من قبل - قادر على محاكمة بعض المعلومات واتخاذ موقف منها، ولا يستطيع السراج وكذلك الرّحى التحكم بالرّبيت والرّحى؛ إذن نحن أمام مشهد معقد للغاية، وحسم كبير من تفاصيله ما زال غير ممكن، ولله الحكمة البالغة في كل ذلك.

الآن سأقوم بذكر بعض القواعد واللاحظات التي توضح أهمية المعلومات والمعرفات المطلوبة لرشاد العقل وفاعليته، وتوضح كذلك نوعية المعلومات التي تحتاج إليها ونوعية العلاقة بينها وبين العقل، وذلك عبر المفردات الآتية:

- ١ - إن الذي يسعى إلى أن يكون مفكراً يعتمد به محتاج إلى أن يكون اشتغال

دماغه مختلفاً عن نوعية اشتغال أدمغة معظم الناس، وهذا يخضع لعدد من الشروط، ربما كان أهمها: التغذية المستمرة بالمعلومات، والمعارف الجديدة والمتتجدة. إن العقل من غير وافدات معرفية جديدة يستطيع أن يفك، لكن المعلومات التي يعمل عليها تكون متقادمة؛ ولهذا فإن أحکامه لا تكون دقيقة، وأحياناً خاطئة، تصور معي رجلاً جاء ليطلب منك الموافقة على تزويج ابنته الشاب، وسارعت إلى الموافقة لأن أهل الشاب كانوا جيرانك قبل خمس عشرة سنة، وكان الشاب وقها في المرحلة الابتدائية، وكان من رواد المسجد، وبعد الزواج تبين أن الشاب لا يصلح، كيف سيكون الموقف؟ الموقف موقف ندم وأسف على التعويل على خبرة قديمة، ليس هناك أي ضمان لاستمرارها! العقل من غير معرفة هباء، وإن لدينا ما لا يحصى من الشواهد التي تشير إلى أن الشاب الذي لديه ذكاء متوسط مع تحصيل علمي متزاً يستطيع أن يحقق نجاحاً أعظم من شاب مفرط الذكاء لكنه غير مهتم ولا متعلم ولا متابع للمعرفة الجديدة. إن العصر الذي نعيش فيه مختلف عن كل العصور؛ حيث إن التقدم التقني لم يعد يستند إلى وفرة المواد والموارد الطبيعية - وهي بطبيعة الحال ليست متوفرة بالقدر الكافي - وإنما صار يعتمد على الذكاء الإنساني وعلى المهارات الفنية الراقية كما يعتمد على المعرفة والقيادة، وهذه كلها متوفرة، أو يمكن الحصول عليها، لكن بشرط توفر الوعي بقيمتها وأولويتها، وهذا ما تعاني منه الدول النامية، وتلك الدول التي تُتّجَّع التخلف!

٢ - العمل في البحث العلمي وفي استخدام المعلومات ومعالجتها يستقطب المزيد من المهتمين والموظفين، ولا عجب في هذا؛ فالتطور التقني المذهل هو نتيجة وجود جيوش من الباحثين في شتى المجالات، المهم هنا أن البيانات والمعلومات والأرقام صارت مطلوبة بشدة اليوم، والشيء إذا كثر تداوله أو اشتد الطلب عليه، فإنه يتعرض للتخلخل غير المقصود، وللتحريف المقصود، ومن هنا فإن علينا أن نتأكد من سلامة المعلومات التي ندخلها إلى رؤوسنا كما نتأكد من سلامة الطعام الذي ندخله إلى بطوننا، وهذا يعني - فيما يعنيه - الآتي:

أ - الحرص علىأخذ المعلومة من مصدرها الأساسي كلما كان ذلك ممكناً، ونحن نعرف أن علماءنا القدماء - كما أشرت من قبل - كانوا يحرصون على علو

الإسناد، والذي يعني قلة عدد الرواية بين الشيخ وبين النبي ﷺ؛ لأنه كلما قلَّ الرواية قلت فرص التحرير والتخليط، و (ما رأي كمن سمعاً).

ب - الحرص على تلقي المعلومات من المتخصصين المشهود لهم بالجذارة والخبرة المرموقة؛ فالباحث المحقق قد يخطئ، لكن خطأ المجتهدين الذين إن لم يضعوا الموسى على الفصل وضعوها قريباً منه.

ج - الأفكار والمعلومات والمصطلحات والتعريفات، تعبّر عن حقائق ووقائع ومدرّكات، لكن البشر هم الذين يصوغونها ويخرجونها، وقد مونها لبعضهم؛ ولهذا فإنها تظلّ تعبّر عن شيء شخصي وذاتي؛ وذلك بسبب خصوصيتها لمعالجة أنساس لهم رؤاهم وعواطفهم وأهواهم وتصورهم، ومن هنا فإن من المهم أن ننتبه إلى (السياق) الذي تصاغ فيه الأفكار، وتساق فيه الأخبار والمعلومات، وعلى سبيل المثال فإن علينا أن نحذر من التحرير والتزييد والتخلط في الآتي:

- من الواضح أن العلم يساعد الإنسان على ممارسة نوع من الرقابة على عواطفه، وهكذا فكلما كانت الحصيلة العلمية للمرء أكبر، كانت قدرته على الفصل بين أفكاره وأرائه وبين عواطفه أكبر، والعكس صحيح، مع الأخذ بعين الاعتبار أن التحرر الكامل من تأثير العاطف على أحکام العقل غير ممكن، إن الجاهل لا يملك من دقة الفهم والتمكن في اللغة ما يجعله ينقل ما سمعه، أو يعبر بما أدركه على النحو المطلوب.

- ما يقال في سياق المديح والفاخر والاعتزاز؛ إذ إن القائل يحرص على إبراز تفوق نفسه أو تفوق من يثنى عليه، وهذا الحرص يدفع إلى تجاوز الحقيقة، وهم يذكرون أن أحد الشعراء مدح أحد الوجاه، فأطرب في المديح، ثم حدثت بينهما جفوة، فقال شعراً، هجاه فيه، وأقذع في الهجاء، فلما كلامه أحدهم عن سب ذلك التناقض، قال: رضيَّتُ، فقلتُ أحسن ما أعلم، وغضبتُ، فقلتُ أسوأ ما أعلم! إنه كان يفتقر للإتزان والإنصاف في الحالتين.

- ما يقال في وقت الغضب، وما يقال عند دفع المرء لاتهام وجهه إليه، إن المرء في حالة الغضب يفقد جزءاً كبيراً من سيطرته على لسانه، كما أن المتهم يتتجاوز حدود الموضوعية، ويتجاوز ما هو راسخ من الحقائق في سبيل الحصول على البراءة ودفع التهمة؛ وهذا مفهوم.

- الحقائق والأفكار حين توضع في سياق إعلامي: حوار، حديث شخصي مباشر، دعاية... تتعرض لضغط شديد، وتنال حظها من التزييد والتشويه، وقلّ مثل ذلك عند ارتباطها بمصالح مادية، وإن بعض الناس مستعد لأن يخلف ميناً كاذبة من أجل الحصول على مبلغ زهيد، والمشكل أن فن الدعاية والإعلان من أوله إلى آخره قائم على المبالغة واحتراق فضائل غير موجودة؛ ولهذا فإن ما يقال في الإعلانات التجارية كثيراً ما يجافي الحقيقة.

- هناك أشخاص أوتوا قدرة كبيرة على التحدث عن أمور كثيرة وفي كل الحالات مع حلاوة في اللسان واستحضار للطفرة الذكية، وهؤلاء يسيطرؤن في أحيان كثيرة على المجالس، ويستمتع الناس بحديثهم، وكثير من هؤلاء يسوقون لك الكثير من الطرائف والمعجائب والغرائب التي حدثت معهم، أو سمعوها من حدثت معهم... وحين تستمع إليهم تُدهش من أنه لا يجري معك ما جرى معهم، وتحار في تأويله وتفسيره. لا بد أن نعرف أولاً أن الناس في ظروفهم وفي قوة ملاحظتهم ليسوا سواء، لكن علينا أن نقول أيضاً: إن ما يخالف الشائع والمألوف حتى يدخل في حيز الغريب والمستهجن يستحق منا وقفة حذر وتأمل، ورحم الله - تعالى - الإمام أحمد ابن حنبل حين قال: «اتقوا هذه الغرائب، فإن عامتها مناكير». وأذكر أني كتبت قبل سنوات في بيت الله الحرام، وقد جلس إلى جواري رجل متخصص للجهاد الأفغاني حماسة قوية، وحين سأله عن أخبار الناس هناك، قال لي: أبشر فقد تمكّن المجاهدون من قتل خمسة آلاف جندي أمريكي خلال أيام قليلة ولكن الإعلام العالمي لا ينشر ذلك! قلت في نفسي: هل كان أولئك الجنود في ملعب لتشجيع لاعبي كرة القدم، أو كانوا في عرس لابن أحد الوجاهات العظام؟ ثم إن ذلك لو حدث، فإن خبر قتلى بهذا الحجم الضخم أكبر بكثير من أن يتمكن أحد من التستر عليه.

٣ - الإنسان صانع للمعرفة، ولديه الكثير من أسرارها وخبائها، إن لديه ما يقال وما لا يقال، وما يستحق النشر وما لا يستحق... ومن ثم فإن اللقاء بأهل العلم والتجربة والخبرة يشكل مورداً مهماً لاكتساب المزيد من المعارف والخبرات التي قد لا تحصل عليها في الكتب، قد يكون لدى العالم تعليقات حول بعض الأفكار والمواقف، لكنه - خوفاً من شيء ما - لا يرى التحدث عنها على الملأ، وقد يكون لديه ملاحظات علمية

دقيقة وتجارب وخبرات شخصية، لا يرى من المناسب أن تنشر، وإن كثيراً من العلماء يحبون نقل العلم إلى غيرهم عن طريق الكلام المباشر، ولا يميلون إلى التأليف، إلى جانب كل هؤلاء هناك أشخاص منخرطون في الإدارة أو التجارة أو الصناعة أو السياسة... ولديهم خبرات مهمة جداً، ويصعب الحصول عليها من غير الاحتكاك بهم، من هنا فإن زيارة أهل العلم ومجالستهم ومحاورتهم ذاتفائدة عظيم، إن كل واحد منا في حاجة إلى ذلك، وإن ترتيب زيارة لأحد العلماء أو الخبراء كل شهر يعد عملاً مشرماً، وبحذا لو أن المدارس والجامعات تقوم بالتواصل مع أهل العلم والخبرة والقيادة من أجل ترتيب زيارات لهم من قبل طلابها؛ فهذا أفع لهم من كثير مما يقرؤونه. وقد كان من رأي ابن خلدون أن حصول الملوك عن طريق المشافهة وال المباشرة أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً من التقلي من الكتب، وكان علماؤنا القدامى يفخرون بكثرة الشيوخ الذين أخذوا عنهم، وكان ذلك أحد أهداف رحلاتهم العلمية الكثيرة، وفيه أحد الدارسين أن المدراء يحصلون على ثلثي معرفتهم من الاحتكاك المباشر مع أشخاص آخرين، وعلى ثلثها من الوثائق والحسابات الآلية.

٤ - نحن نعرف فضيلة التركيز في اكتساب المعرفة، ونعرف أن تقدم كل العلوم والفنون مدین لأولئك الباحثين الذين يشتغلون على الجزيئات، ويسخون في التفاصيل الصغيرة، لكن التركيز في علم معين يساعد على تكوين متخصص ومرجع ولا يساعد على تكوين مفكر؛ بل إن الإيغال في التخصص يولد لدى صاحبه نوعاً من التعصب وضيق الأفق، فيجد نفسه في سبيل غير سبيل المفكرين، من هنا نقول: إن المفكر - والذي كثيراً ما يكون متخصصاً - يتأثر على الانغماض في علم محدد، وإنما يسعى دائرياً إلى توسيع مداركه وآفاق رؤيته من خلال توسيع دوائر اطلاعه. إنه يقرأ في العلوم الشرعية والإنسانية والطبيعية، وينظر في تجارب أهل التجربة، وهو في ذلك أشبه بالطائر الذي يرفرف على سطح البحر ليخطف رزقه من سمك وغيره، إنه يصطاد، ويقتات مع الحذر الشديد من الغرق في الماء، هكذا المفكر يتقطط الأفكار الذكية واللاحظات القيمة، ويدأب بعجنها وخبزها في دماغه بعد أن يمزجها بماء فهمه وعلمه. إن المفكر يتهمج ابهاجاً لا نظير له حين يتوصل إلى قانون أو مفهوم تمت تطبيقاته في المجال التربوي والاجتماعي والأخلاقي والسياسي والطبي... إنه يفرح

بصياغة المفاهيم ولم شمل الأفكار المبعثرة، وصهرها في بوتقة واحدة، كما يفرح أب طاعن في السن باجتماع شمل أسرته بعد طول شتات. إن الغاية الأساسية للمفكر من وراء توسيع دوائر مطالعاته وقراءاته ليست الوقوف على الأرقام المشيرة أو المعلومات الموثوقة والدقيقة وإنما اكتشاف السنن الربانية في الأنفس والمجتمعات وفي الخلق عامة؛ لأن الإنسان يمتلك من صلابة الرؤية وقوة المنهج على مقدار ما يعقل ويكتشف من تلك السنن؛ ولهذا فإنك تشعر بالذهول وأنت تقرأ مفكراً متمنكاً حين ترى الحدود الفاصلة بين العلوم تذوب بين يديه، وحين تشعر أنه يتحدث إليك عن معانٍ حاضرة غائبة، وسهلة ممتعنة، ومتماضكة مفتوحة... إن المفكر يبدو لنا أحياناً كمن يبحث عن إبرة ذهبية في كومة قش، وهو من أجل ذلك يعاني وبعاني، لكن الشمار مذهلة وفريدة. إن أعظم النفائس التي سنحصل عليها، تلك التي نجدها في غير نظامها، وهذا ما يعيه المفكر بعمق.

#### ٥ - فهم تاريخ الأفكار والقضايا:

يبحث الإنسان دائمًا عن الروضوح، ويبحث عن التحديد، وهذا من أكبر فضائل البشر، لكن من المهم أن ندرك أن النفاد إلى أعماق الأفكار والقضايا المطروحة على الساحة ليس بالأمر البسيط؛ وذلك بسبب امتداداتها في الماضي والذي قد يكون بعيداً، وبسبب تداخلاتها مع الكثير من الأفكار والقضايا الراهنة، لكن قد نستعين على ما نبغيه بمحاولة فهم تاريخ ما نزيد فهمه والبحث في أساليبه، والواقع أنها حين نبحث في فكرة أو قضية من غير فهم تاريخها، فإننا نكون كمن دخل غرفة مظلمة لم يدخلها من قبل؛ ومن ثم فإن علينا أن نبدأ أولاً بفهم التاريخ؛ لأن فهمه يعني فهم الدواعي والجذور والأسباب وظروف النشأة، خذ - مثلاً - سقوط الدولة العثمانية؛ بوصفه حدثاً من أكبر الأحداث التي وقعت خلال القرون السبعة الماضية بالنسبة إلى أمّة الإسلام - هذا الحدث لن نعي مدلولاته ولن نستطيع فهمه حق الفهم إذا نظرنا إلى سنة حدوثه أو عشر سنوات قبلها؛ فهذا غير كافٍ بل علينا أن نجيب على التساؤلات التالية:

- كيف كان الوضع الإيماني والأخلاقي لكتاب موظفي الدولة خلال السنوات الثلاثين التي سبقت سقوط الدولة؟

- كيف كان الوضع التعليمي والصناعي داخل البلاد مقارنة بما كان عليه الوضع

في محيط ولايات الدولة وبما كان عليه لدى منافسيها؟

- ما نسبة مساهمة التزاعات الداخلية في تفكك الدولة؟

- ما حجم تأثير الدول الأوروبية في ذلك؟

كيف كان موقف معظم الأتراك من ذلك؟ وإذا كانوا كارهين، فلماذا لم يدافعوا عن دولتهم؟

- هل أصبح النظام السياسي المعتمد آنذاك غير قابل للإنعاش حتى جرى ما جرى؟

هكذا ينبغي علينا أن نطرح الكثير من التساؤلات حول الأوضاع التي اكتفت سقوط الدولة، وعن الأوضاع التي سبقت ذلك بعدها زمنية لا تقل عن ثلاثين أو أربعين سنة، وبعض ملامح سقوط الدولة يحتاج فهمه إلى أن نعود قرناً من الزمان قبل حدوثه؛ إذ إن عوامل النصر في الدول العظمى تستمر في العمل مدة طويلة.

الآن خذ على سبيل المثال الفكرة التي تقول: « لا تنزعج لوجود التحديات والصعوبات فهي نعمة؛ لأنها تحميك من الترهل وخيانة الرخاء »، وتجعلك تتوقف عن الاستمرار في ممارسة الأخطاء ». تأمل في هذه الفكرة على نحو جيد، وحاول فهم مدلولات ألفاظها ومعناها العام، ثم حاول الإجابة عن الأسئلة التالية:

- هل هذه الفكرة صحيحة؟

- من الذي أطلق هذه الفكرة؟

- متى بدأ استعمالها بكثافة؟

- هل هي إسلامية الجنوبي؟

- إذا كانت قديمة، فمن الذي جدّها؟

- هل كان الناس قبل ثلاثة قرون على وعي بها؟

- ما الظروف التي ساعدت على نضوج هذه الفكرة واعتمادها بين مفردات التحفيز الشخصي؟

إن الإجابة على هذه التساؤلات أو معظمها ستجعل الفكرة المشار إليها متألقة

واوضحة، وستمكنا من شرحها للشباب بطريقة ممتازة.

## ٦ - فهم مدلولات التقدم التقني:

لا شك في أن (الكتب) هي الأطر المعرفية الأكثر غنى، والتي تحتاج إلى قراءتها أكثر من أي شيء آخر؛ ففيها الفكر والعلم اللذان يوجهان مسيرة البشرية، لكن لا يصبح لنا مع هذا أن نغفل دور الأشياء التي تحبط بنا في تغيير معاييرنا وخياراتنا، وفي إيجاد عوامل جديدة في تطوير الحياة، وفي جعلها أكثر هناء وطمأنينة. على مدار التاريخ كان التطور التقني من أكثر ما يتطور حياة الناس، وما ذلك إلا لأن إمكاناتنا في تدبير أمور معيشنا محدودة؛ ولهذا فإننا نحتاج إلى الأدوات التي تساعدنا في ذلك، وأضرب هنا بعض الأمثلة:

أ - إن (التلفاز) قد أحدث تغييراً هائلاً في حياة الناس؛ لأنه مدّ في إمكانات العين والأذن ممّا فتح ببابنا نرى الأحداث ساعة وقوعها مع أنها تبعد عنا آلاف الأميل، كما أن التلفاز قد ملأ كثيراً من أوقات الفراغ، وأوجد ملايين الوظائف لأولئك الذين يصنعون ثقافة الصورة ويقومون بتسويقها. قبل التلفاز كان معظم الناس ينامون مبكرين، وكان هذا يساعدهم على القيام إلى صلاة الفجر وأدائها في وقتها، والآن صار الواحد يحتاج إلى مجاهدة نفسه كيلا يطيل جلوسه أمام التلفاز. قبل التلفاز كان نربي في بيئات مغلقة، وكان الطفل ينظر إلى أهله وأقربائه على أنهم هم العالم، ويمثلون كل العالم في ثقافته وتقاليده، أي كانت القيم التي يؤمنون بها تشكل مرجعاً يستلهمه، ويحاكم سلوكه إليه، أما بعد التلفاز فقد صار الطفل بكبسة زر يستطيع أن يطلع على عشرات البيئات، ليرى الكثير من القيم والأخلاقيات المتقاتلة والمتنافرة؛ ومن ثم فإنه يقارن ما يراه في أسرته ومحبيه بما يراه في (التلفاز)، وهذه المقارنة ستجعل تأثير بيئته فيه - في الغالب - أقل؛ بل قد تجعله يزدرى ما لدى أهله من عادات ومعتقدات ومفاهيم، وهذا واضح للعيان اليوم.

ب - لدى الدول المتقدمة اليوم قطارات تصل سرعتها إلى نحو من ثلاثة كيلو متر في الساعة، وحين تسير لا تلامس الأرض، كما أنها مزودة بكثير من التجهيزات التي تجعل السفر ممتعاً... هذه القطارات جعلت أبناء تلك الدول لا يحتشدون في المدن الكبرى بسبب ما فيها من مصانع وفرص للعمل، وإنما ظلوا في ديارهم بين أهلهם

وغيرائهم؛ حيث إن في إمكان الواحد منهم أن يعمل في مكان يبعد عن مدنته مسيرة أربعينات كيلو متر في الساعة، ويعود في اليوم نفسه دون شعور بالعنق أو الإرهاق، وهذا قلل من مشكلات الهجرة إلى المدن، وما يترب عليها من تفكك وتبدل في العلاقات الاجتماعية.

ج - كثرة المرفهات إلى جانب كثرة الأدوية الفعالة، وكثرة الوعود بتأخير الشيخوخة إلى أن يبلغ الإنسان مئة سنة أو يزيد... كل هذا زاد في اطمئنان الناس إلى الدنيا والحرص عليها، وزاد في طول آمالهم في عيش مديد ورغيد، وهذا في الرؤية الإسلامية ينطوي على خطورة كبيرة؛ لأنه يؤدي إلى قسوة القلوب، والتراخي في الاستعداد للانتقال إلى حيث تكون الحياة الحقيقة وحيث الاستقرار في الوطن النهائي. وهكذا فإن المفكرين يتخذون من قراءة مفرزات التقنية وتطورها مدخل لفهم أوضاع الناس وتحليلها على النحو الصحيح.

#### ٧ - التفريق بين المعلومات والتحليل الشخصي:

كثيراً ما نلتقي بأشخاص مطلعين على بعض المخابيا أو متابعين لبعض القضايا، وهذا يشير في العادة شهيتنا نحو إلقاء الكثير من الأسئلة عليهم وسماعهم بشغف، لكن علينا أن ننتبه إلى أمر مهم، هو: هل الكلام الذي يقولونه لنا يعبر عن شيء رأوه أو شيء سمعوه، أو هو عبارة عن تحليل شخصي لهم، أو تحليل شخصي سمعوه من غيرهم، أو هو خليط من هذا وذاك؟ الخبراء المتخصصون تكون لهم عادة رؤية تحليلية، لكن هذه الرؤية لا تنشأ من فراغ، وإنما تعتمد على بعض المعطيات، وقد تعتمد على تحليل خبراء آخرين، أما غير الخبراء والمتابعين، فإن ما يقولونه يكون في الغالب منقولاً عن غيرهم مع شيء من التلوين الشخصي. الأكثر أهمية بالنسبة إلينا هو أن نفرق بين ما ي قوله المتحدث بناء على رؤيته الشخصية، وبين ما ي قوله بناء على معلومات حصل عليها؛ وذلك لأن مدى مصاديقه يتوقف على ذلك. مثال: شخص يقول لك: إن من المتوقع ارتفاع أسعار معظم المواد التموينية خلال الأشهر الثلاثة القادمة، هذا الكلام يتحمل أن يكون مبنياً على معلومات حول قرارات أو إجراءات ستتخذها الحكومة خلال فترة قصيرة، مثل قرار برفع أسعار الوقود، أو رفع الدعم عن بعض السلع الغذائية، أو فتح باب التصدير لها بعد أن كان مغلقاً، أو وضع ضرائب

على استيرادها.. في هذه الحالة يكون علينا حتى تأخذ هذه المعلومات مأخذ الجد ونبني عليها بعض القرارات التي ستتخذها: أن نتأكد من صدق نقل المتحدث، ومدى موثوقية المصدر الذي تحدث عن القرارات المشار إليها. ولا يخفى أن تأثير القرارات لا يكون دقيقاً وواضحاً على نحو دائم.

الأمر يختلف كلياً حين يكون الكلام مبنياً على التحليل الشخصي لحدث من الأحداث، كما لو أن كاتباً شرع في تحديد أسباب نكبة سنة (١٩٤٨م)، أو شرع في تحديد أسباب نهضة الصين أو انفصال بنغلاديش عن باكستان... إلخ في هذه الحالة ستنظر إلى خبرته في الموضوع الذي يتحدث حوله، ونظر إلى إمكاناته الذهنية في التشخيص، وهو بالطبع سيستخدم بعض المعلومات في تحليله، وسيكون لدقة تلك المعلومات وصحتها شأن وأهمية، وعلى كل حال فإن ما يقوله عبارة عن وجهة نظر شخصية، لا تلزم أحداً بشيء، ولا تفوز بأكثر من الظن. علينا أن نتبه أكثر وأكبر حين تختلط وجهة النظر الشخصية بالمعلومات، وهذا يحدث حين تكون القضية موضوع الشرح كبيرة أو معقدة.

#### ٨ - التفكير عند شح المعلومات:

صار من الواضح من خلال ما تحدثنا عنه مدى حاجة العقل إلى المعرفة حتى يقوم بعمله على نحو جيد، ومن الواضح أيضاً أن ما هو متوفّر من المعرفة لاتخاذ قرار مهم، أو تحليل حدث تاريخي كبير سيظل أقل من المطلوب، أي أن العلم مثل المال، نشعر دائمًا بنوع من العوز نحوه. في بعض الأحيان يكون مطلوبًا أن تتخذ القرار بسرعة حتى لا تفوت علينا فرصة نادرة، وتكون المعلومات موجودة، لكن الوقت المتاح للحصول عليها غير كافٍ، كما لو فرضنا أن القرار هو عبارة عن تسجيل في قسم من الأقسام الدراسية في إحدى الكليات؛ حيث يجد كثير من الشباب أنفسهم مخربين بين كلتين أو ثلاث، وكثيراً ما يكون وقت التسجيل محدوداً، ومن الطبيعي أن الطالب اليوم يدرس ليتخرج، ويتوظّف؛ ولهذا فإنه في حاجة إلى معلومات عن الجامعة التي سيدرس فيها، وعن طبيعة التخصص الذي سيدرسه، وعن سوق العمل المتاح لذلك الشخص، وأمور أخرى من هذا القبيل... فما الذي على الطالب القيام به في ظل شح المعلومات حول كل ما ذكرناه؟ أعتقد أن عليه القيام بالآتي:

- تأخير اتخاذ القرار إلى آخر لحظة ممكنة من أجل التمكّن من جمع أكبر قدر من المعلومات.

- بمجرد أن نتّخذ قراراً من أجل الانطلاق في تخصّص أو عمل من الأعمال... نكون قد وضعنا أنفسنا في سياق المستقبل، أي في دائرة المظنون والموهوم؛ وذلك لأنَّ الله - وحده - هو الذي يعرّف بالضبط ما الذي ستؤول إليه الأمور بعد سنة أو خمس سنوات، ومن هنا فإنَّ الواحد منا يجمع المعلومات، ويفكّر ويتأنّى... ليس من أجل الحصول على قرار صائب، وإنما من أجل الحصول على أفضل قرار ممكن في تقديره.

- سؤال الطلاب الذين يدرسون في الكليات التي وجدت نفسك ملزماً بالدراسة في واحدة منها، سؤالهم عن مدى شعورهم بالفائدة وعن قوّة المناهج والجو العام...، وسؤال بعض الخريجين عن مجالات العمل لتلك التخصصات ومدى توفر الفرص فيها. المهم أن يعرّف المرء كيّف يتعامل مع كلام أولئك الذين يستشيرهم؛ لأنَّه قد لا يخلو كلامهم من شيءٍ من التضليل والتناقض.

- استخارة الله - تعالى - والإلحاح عليه بأن يرشد إلى الصواب والخير...  
- لكل قرار يتّخذه الإنسان ميزات ومحاسن، وله بعض المخاطر والتحديات، والمهم فصل ما هو حقيقي ومتّوّقع فعلًا من كل ذلك بما هو وهمي أو مضطّم، والفصل بين ما هو معقول، وما هو غير معقول...

- ستائرك معلومات كثيرة لا علاقة لها بموضوعك، أو لا تؤثّر في قرارك، حاول حذفها والتخلص منها؛ لأنَّ كثرة المعلومات تربّك العقل في التعامل معها، وما يذكر في هذا السياق أن أحد القضاة نظر في قضية شائكة وطلب وثائق تتعلّق بها، فأحضر له مليون وثيقة، فطوى ملف القضية وسجّل الجريمة ضد مجهر!

- استخدام الحدس والفراسة وطمأنينة القلب، ويروى عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «من لم ينفعه ظنه - أي حده - لم تنفعه عينه»، والحدس ذو طبيعة غامضة، إنه يشبه أن يكون معرفة الإنسان بشيء دون أن يعرّف كيّف عرفه، وقد يكون الحدس نتيجة لتجمع الخبرات والمعلومات السابقة وتفاعلاً لها مع بعضها، مما ينتّج عنه نوع من

### الانفجار في الوعي أو الإدراك.

- لا تكمن فائدة الفلسفة وفهم طبائع الأشياء والسنن الربانية في الخلق في سد الفجوات المعرفية والتعميق عن نقص المعلومات؛ بل إنها تتجاوز ذلك إلى الحكم على المعلومات وتقويمها، وكشف ما يمكن أن يكون فيها من زغل، وفي سياق ما نحن فيه من مسألة اختيار التخصص، قد يأتي من يقول لك: إن الطلب على تخصص الطب سيظل مستمراً، ولن تجد طبيعاً عاطلاً عن العمل؛ لأن الناس يزيدون والأمراض والأوبئة تزداد؛ لهذا فهو تخصص متزايد دائماً، وحين ينظر المرء في هذا الكلام من أفق القوانين العامة التي تحكم مسيرة الحياة، فإنه سيستحضر المؤشرات والمعاني التالية:

١ - من يتحدث إليك بتحدث عن الطلب على مهنة الطب بعد ست أو سبع سنوات وهي فترة طويلة نسبياً، ولا أحد يدرى كيف ستكون الأوضاع وقتها.

٢ - الطب تخصص مرموق جدأ، وستظل له أهمية، لكن علىي أن لا أنسى أن موعدي في ذلك التخصص أعظم أهمية؛ فهناك طبيب مغمور، يكسب رزقه بصعوبة، وهناك طبيب بارز يشار إليه بالبنان ورزقه يفيض عن حاجته مرات عديدة.

٣ - الإقبال على العلاج والتردد على الأطباء مرتبط بالحالة الاقتصادية للبلد، فإذا كانت سيئة فإن إقبال الناس على الأطباء سيكون ضعيفاً، وبذلك يكون المرض أكثر من الطلب.

٤ - الطب ليس هو التخصص الممتاز لكل الناس؛ ولهذا فلا بد للمرء حتى ينبع فيه من امتلاك الرغبة القوية والقدرة الظاهرة.

- تساؤل عند اتخاذ القرار عن أسوأ ما يمكن أن يتمخض عنه ذلك القرار، وتأمل في نفسك هل تستطيع تحمل ذلك؟ وكيف يمكن أن تتصرف؟

أن تتخذ قراراً يعني أن تخاطر، ومهما كانت النتائج، فإن ذلك أفضل من العيش من غير قرار ومن غير مخاطرة؛ فالحياة الجيدة هي الحياة التي نعطي فيها للحياة، ونأخذ منها بما يُصلحنا، ويُصلحها.

## أعور تستحق الحذر

مهما كانت منهجمة التفكير لدى الواحد منا ناضجة، ومهما كانت إمكاناته الذهنية عالية، فإنه يظل مهدداً بأن يزول عن الطريق القويم، وهو يحاول فهم الواقع أو التنتظير لأمر من الأمور أو معالجة مشكلة من المشكلات، وذلك يعود إلى عدم تمعن الإنسان بما يكفي من البقotte الفكرية وبما يكفي من التجدد من الهوى والتحلي بالإنصاف، ومن هنا أحببت أن أشير إلى بعض الأمور التي ينبغي على من يريد امتلاك عقلية جيدة أن يكون على حذر منها؛ حتى لا يقع في المصيدة التي وقع فيها الجاهلون والخرافيون وأهل الأهواء:

### ١ - الجزم حيث ينبغي التوقف.

فُطر الإنسان على كراهية الفموض والتضليل من المكوث في منطقة (اللآخر)، ولهذا فإنه يتساءل، ويتطلل إلى معرفة المزيد عن الأمور المحيطة به كي يكون قدرًا من العلم الذي يساعد على بلورة رؤية واضحة أو اتخاذ قرار ما، أو تشكيل انطباع يطمئن إليه... لكن على الواحد منا أن يدرك الآتي:

أ - إن الذين يحدثونك عما شاهدوه من أحداث، قد لا يكونون شاهدوا كل الواقعية التي يروونها، كمن رأى سيارة مصدومة، ورأى رجال الإسعاف ينقلون سائقها إلى المستشفى، إنه قد لا يكون رأى السيارة وقت اصطدامها، وقد لا يعرف السرعة التي كانت تسير عليها آنذاك، كما لا يعرف مدى خطورة إصابة السائق.. لكن الطبيعة - كما يقولون - تكره الفراغ؛ ومن ثم فإن معظم الناس حين يرون ما شاهدوه يحاولون ملء الفراغات الموجودة في معرفتهم بالحادث من خلال التخمين المرتكز على معارفهم وخبراتهم السابقة، أي يقومون بعمل اجتهادي، والمجتهد يخطئ ويصيب؛ ومن ثم فإنه ليس من المهمجية أن تناهى بالتسليم كل ما نسمعه من رأى حديثاً من الأحداث.

ب - في معظم الأحيان يكون الناقل لحدث من الأحداث بعيداً عن موقع الحدث، وبالتالي فإنه يروي عن شاهد الحدث، أو يروي عن أشخاص رروا عن شاهدوا الحدث... وفي هذه الحال فإن إمكانية وقوع الغلط تصبح أكبر، وأذكر أنني منذ مدة قصيرة كنت مسافراً من مدينة إلى مدينة بالطائرة، وحين درجت الطائرة على مدرج المطار بسرعة كبيرة انفجر أحد إطاراتها، مما اضطر الطيار إلى إيقاف الطائرة وإنزال الركاب وإلغاء رحلة الطائرة، وخلال ساعات بدأت موقع الإنترنت تتحدث عن هبوط اضطراري لإحدى الطائرات مع أن الطائرة لم تقلع حتى تهبط!

ج - الناس يرون الأحداث فعلاً، لكن لا يعرفون في أحيان كثيرة أسبابها، وهذا مزعج بالنسبة إليهم؛ ومن ثم فإنهم يبدأون بالظن والتخمين، لكن الذين يررون عنهم لا يدركون ذلك، فينقلون الخبر الأصلي مشفوعاً بذكر أسبابه من غير تحرز ولا تحوط، فيظن السامع أن الذي شاهد الحدث يعرف أسبابه على وجه اليقين، ولا يكون الأمر كذلك.

د - انتهى عصر البراءة والطيبة، وجاء عصر المكر والخداع والتخطيط المؤمن بألف لون، وفي هذا السياق نجد أنك تدخل على موقع من مواقع (الإنترنت) المشهورة، وتقرأ ما فيه من أخبار، وتقرأ التعليقات، وتظن لأول وهلة أنها تعبر عن آراء وتوجهات قائلتها، وهي وبالتالي تحكي الحراك الثقافي والفكري في المجتمع، ولا شك أن شيئاً ما تظنه صحيح، لكن هناك شيء آخر، هو أن عدداً من المعلقين هم عبارة عن موظفين لدى دول كبرى وصغرى، مهمتهم كتابة تعليقات تخدم سياسات الدول التي يعملون لديها، وتدفع عن الانتقادات الموجّهة إليها، وحين تكون مهمة شخص الدفاع عن سياسات بلد... فهذا يعني أن عليك أن تتوقع منه أن يخلط الصواب بالخطأ، والحق بالباطل، والحقيقة بالوهم... وبعد ذلك تأتي إدارة الموقع لتقول: إن (٧٠٪) من الذين دخلوا على الموقع يرون كذا، أو يترقبون كذا، أو يرفضون كذا...!

إذن لا بد من الآن فصاعداً من التحرز والتدقيق ومحاولة قراءة ما بين السطور وما خلفها، والتريث قبل اتخاذ أي موقف أو إصدار أي حكم، والله - تعالى - أمرنا بالثبت والتبين حتى لا نظلم أحداً، وحتى لا نتهور في اتخاذ القرارات، وحثنا على التحري وتلمس اليقين.. في عدد من الآيات الكريمة، منها قوله - سبحانه -:

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُنْ فَارِسٌ يُبَشِّرُونَ أَنْ تُعْبِرُو فَوْمًا بِمَهَالِقٍ فَتَصْبِحُوا عَلَىٰ مَا عَلَمْتُمْ تَدِيمِينَ ﴾ [الحجاج: ٦]، فكيف يكون الموقف إذا كان من ينشر الخبر، ويقول القول - مجاهول الاسم والدين والجنس والعرق والموطن والانتماء والارتباط... إن التريث والتشكيك ينبغي أن يكون أكبر. ويقول - سبحانه - : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ الْسَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْفُرًا ﴾ [الإسراء: ٣٧]، وقد فسر ابن عباس (رض) : « لا تقف » بـ ( لا تقل ) وروي أنه فسرها بـ « لا ترم أحداً بما ليس لك به علم »، وقال قتادة : « لا تقل : رأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم، فإن الله سائلك عن ذلك كله ». وخلاصة ذلك ما ذكره ابن كثير بقوله : « إن الله نهى عن القول بلا علم؛ بل بالظن الذي هو التوهם والخيال » <sup>(١)</sup>. إن من الواضح أن على المسلم أن يتثبت وبتأني حيال ما يسمع، وحيال ما يريد اعتقاده والإيمان به، وحيال ما يريد قوله والتعبير عنه، وذلك حتى تبرأ ذمته أمام الله تعالى.

## ٢ - المجاملة على حساب الحقيقة:

احترام الحقيقة والحرص على الوقوف عند حدودها سمة من سمات المسلم الصادق والواعي، وهي ركن رئيس في منهج الباحث والمفكر، والذي يحدث أحياناً أنها نعرف الحقيقة بشكل جيد، لكن نخاف من قولها، وهذا الخوف قد يكون منبعثاً كون الحقيقة حادة وصارخة؛ ولذا فإن قولها سيكون مؤذياً، وقد يكون منبعثه الخوف على مصالحتنا؛ ومصالح الناس ليست فقط مادية أو مالية؛ فقد تكون معنوية تتعلق بتقدير الناس لنا أو بنفوذنا فيهم، وقد نخاف من الجهر بالحقيقة؛ لأنها قد تفهم على نحو خطأ بسبب التوتر السائد أو بسبب جهل من يتعلق الأمر بهم... وبما أن الدعاة والملفكون وعموم المتفقين هم من البشر، فإنهما يتعرضون لكثير من المواقف المحرجة، وأنا انطلاقاً من هذه الحقيقة لن أذكر كل أشكال الحرج التي يتعرضون لها، ولكن سأشير إلى نقطتين مهمتين:

أ - إذا كان المرء في ظروف حرجة جداً، لا تسمح له بأن يقول الحق، فإن عليه أن لا يقول الباطل؛ حيث لا ينسب لساكت قول، لكن من المهم أن ندرك أن الزمام

(١) تفسير ابن كثير (٧٤/٥، ٧٥).

السکوت وتجاهل الأخطاء الفادحة من أي جهة كانت يصبح بالغ الضرر إذا تحول إلى ظاهرة عامة، كما أن من المهم أن ندرك أن الريادة الثقافية تحمل المسؤوليات لا يتحملها غيره، ولهذا فإن عليه أن يبحث دائمًا عن طريقة ما لقول الحق وكشف الحقيقة، وإن ت نوع وسائل النشر والإعلام اليوم يسمع بهذا، ويساعد عليه.

ب - أحياناً يخاطب الواحد منا جهة أو جماعة أو أهل بلد.. بينه وبينهم نوع من الباعد أو نوع من التباين في الاتمام أو نوع من الخلاف في وجهات النظر، ويرغب في إيصال فكرة إليهم، أو نقد شيء لديهم، ويجد نوعاً من الصعوبة في قول ذلك مجرداً من أي مقدمات، مما يكون منه إلا أن يتوصل إلى ذلك بمديحهم وقول أمور لا يعتقدها فيهم، أي يخالف ما يعتقد، ويتدحرج ما هو في نظره خاطئ، وهذا لا يصح؛ حيث لا يجوز للمرء أن يعيش الناس ويكرس الأخطاء في حياتهم من أجل نصيحة أو ملاحظة يوجهها إليهم، وإذا نظرنا إلى الواقع، فإننا نجد أن الذين ينجون من هذا قليلون؛ نسأل الله العافية والسلامة.

## ٢ - تحجيم الخيارات:

إن من سن الله - تعالى - فيخلق اتجاه الحياة نحو المزيد من التوسيع؛ حيث توفر تفاصيل وخيارات وإمكانات وعطاءات أكثر وأكبر، وهذا بسبب التقدم الحضاري، أو هو مظهر من مظاهره، ومن هنا فإننا كلما خططنا خطوة إلى الأمام وجدنا المزيد من البدائل والخيارات، وفي إمكانك أن تلمع ذلك اليوم في وسائل النقل والاتصال الرئيسية والفرعية؛ حيث نجد أنها تنمو على نحو مذهل، ليجد المرء نفسه في سعة من أمره، لكن مشكلة الإنسان أنه يتعامل مع الأمور المادية بطريقة أسلس من تعامله مع الأمور المعنوية، كما أن الوعي على صعيدها يتقدم على نحو أبطأ، وهذا يجعل كثيرين منا ينزعون إلى التضييق والتحجيم في تصوراتهم للحلول وفي إدراكهم لمصارات العمل وإمكانات التقدم. إن كثيرين من شبابنا يفكرون وفق مبدأ: إما هذا وإما ذاك، إنهم لا يرون إلا خيارين كثيراً ما يكونان عسرين، وتكون النتيجة هي الاستمرار في التأزم وبطء التقدم، وسأكتفي بمثالين اثنين لتوسيع ما أريده:

أ - يقولون: المال هو عصب الحياة، وإذا لم يكن لديك مال، فلن تستطيع أن تتحرك؛ لأن أي حركة على صعيد الإنتاج والتطوير تحتاج إلى المال، وهذا يعني أن مَنْ

عند مال فلن حقه أن يحلم وأن يتحرك، وسيجد أمامه الأبواب مشرعة، ومن ليس لديه مال فلا بد أن يرضى بما هو فيه، ويختفي من طموحاته، ويتناول شيئاً يأتيه من حيث لا يحسب. وأود أن أعلق على هذا بالأولى:

- نحن في عصر شديد التعقيد، ومن العجيب أنه كلما كانت الوضعية المعيشية والحضارية أكثر تعقيداً صارت الإمكانيات والبدائل أكثر على خلاف ما هو مدروك وشائع؛ ولهذا فإن كل المقولات التي ترتكز على خيارات أو التي تحسر الناس في مسار واحد، باتت متقادمة وغير دقيقة، ولا بد من التخلص عن كثير منها.

- مع أن عصرنا يوصف بأنه عصر المادة، إلا أنه أيضاً عصر الإنسان؛ حيث لم يبر على البشرية زمان قدرت فيه البراعة الشخصية لأبنائها مثل هذا الزمان؛ إذ إن لصفات ومهارات مثل: القيادة والذكاء والجدية وحسن التنظيم والمبادرة - قيمة عليا في الحياة، وإن الأبواب تظل مشرعة في كل مكان من الأرض أمام الذين يملكون قدراً عاليًا جدًا منها.

- في الماضي لم يكن هناك ارتباط قوي بين العلم والفنون وتحصيل الرزق، واليوم ينال العلماء أرقى الوظائف، ويحصلون على أعظم الجوائز، كما أن الأفكار ممثلة في (براءات الاختراع) إلى جانب دراسات الجندي - تباع اليوم بأرقام فلكية، وأعرف بعض الشباب الذين قاموا بشيء من ذلك، وكثيرون من ورائهم ثروة انطلقا منها إلى مشروعات جيدة.

- صار من المألوف في قطاع الأعمال القول: إن الأساس في إقامة أي مشروع ناجح شيئاً: الفكرة الذكية والإدارة الممتازة، وهو عنصران بشريان لا علاقة لهما بالمال، وحين يتوفران لدى جهة فإن التمويل يأتيها من كل مكان.

- **الخلق الجميل** وحسن التعامل مع الناس باب من أبواب الرزق، وكم من شخص حصل على فرص عظيمة بسبب حسن خلقه واطمئنان النفوس إليه.

- من المعروف أن المرء حين يكون في وظيفة متواضعة أو عمل صغير، ويؤدي واجبه فيه بيقان عالي، فإن ذلك كثيراً ما يرشحه لعمل أكبر ومنصب أعلى.

**ب - وحدة العالم الإسلامي** وانضواء شعوبه تحت راية واحدة حلم يداعب أخيلة

معظم أبناء الأمة، وهو - ولا شك - أمينة عزيزة جدًا، لكن نحن نعرف أن لكل عصر روحه وظروفة ومواضعيته... وعصرنا هذا بترتيباته السياسية وبتقاسم القوى العظمى للتنفيذ فيه، وبأنبيتها الثقافية المتعددة - يأتى قيام الإمبراطوريات، ونحن نعرف أن القرن العشرين قد شهد تفكك ما أقامه الغرب من إمبراطوريات واسعة عن طريق الاستعمار؛ ومن هنا فإن التفكير في إقامة خلافة إسلامية تحكم العالم الإسلامي، هو تفكير بعيد عن الواقع؛ ولهذا فإن الوقوف عنده يضعنا أمام خيارين سينما: خيار طلب ما هو - الآن على الأقل - غير ممكن، وخيار التمزق والتشتت الذي نعيش فيه اليوم.

الفكر يحذر من السير الطويل في الطرق المسدودة، كما يحذر من الصبرورة إلى وضعية يضيع فيها الناس الممكّن في طلب المستحيل، ومن هنا فإن علينا أن نخرج من فخ المعادلات المقلقة والعمل على توسيع دائرة الخيارات؛ فنحن إذا كنا لا نستطيع تكوين دولة واحدة نستطيع أن لا نعيش مزقين، ونستطيع تحقيق نوع من التعاون الذي يحقق كثيراً من ميزات الوحدة، وذلك مثل:

- إقامة تجمعات إسلامية على مستوى الأقاليم مثل ( مجلس التعاون الخليجي ) و ( الاتحاد المغاربي )؛ حيث يمكن لكل ثلث أو أربع دول إسلامية متظاهرة ومتقاربة في أوضاعها أن توسّس اتحاداً يربطها بعضها، ويسعى إلى إحداث التكامل بين مؤسساتها.

- إقامة اتحادات نشطة وفاعلة بين الصناع والتجار وأصحاب المهن العلمية مثل: المعلمين والأطباء والمهندسين والكيميائيين المسلمين...

- بناء السياسات الاقتصادية بين الدول الإسلامية على أساس التكامل، وتوسيع البادل التجاري، وإقامة السوق الإسلامية المشتركة.

- تفعيل الروابط والاتحادات القائمة مثل: رابطة العالم الإسلامي، والمؤتمر الإسلامي، وجامعة الدول العربية...

إن هذا الأسلوب في جمع كلمة المسلمين ممكن وقليل التكاليف مع أنه عظيم المنافع.

#### ٤ - سطوة الانتسار:

لدينا الكثير من الدلائل التي تشير إلى أنه ليس هناك علاقة طردية بين صحة

الشيء، وشدة انتشاره، وسعة شهرته؛ بل إن الدلائل تشير إلى أن الأنوار والمعلومات السطحية والسهلة وغير المدققة بالقدر الكافي، هي التي تحظى بالانتشار الواسع، ولنا أن نلاحظ أن المجلة أكثر انتشاراً من الكتاب، كما أن الجريدة أكثر انتشاراً من المجلة، وما ينشر على (الإنترنت) أوسع انتشاراً مما يقال في الفضائيات، كما أن من الملاحظ كذلك أن مصداقية الكتاب أعلى من مصداقية المجلة كما أن مصداقية المجلة أعلى من مصداقية الجريدة، ومصداقية الجريدة أعلى من مصداقية الكلام الذي يقال في الفضائيات، ويأتي في ذيل القائمة ما ينشر على الإنترنت، وأعتقد أن سبب هذه الظاهرة يعود إلى شيء واحد، هو أن التيار العريض في المجتمع لا يكون هو الأدق فهماً والأوسع ثقافة والأكثر اهتماماً بالوصول إلى الحقيقة الصلبة؛ وهذه بعض الملاحظات حول هذا الشأن:

أ - إن من شأن الانتشار الإغراء بالزائد من الانتشار؛ فالناس يظنون أن كلام فلان من الناس لو لم يكن رائعاً ومفيداً وجذاباً لما اجتمع الآلاف من الناس من أجل استماعه، وهذا الظن يغري المزيد من الناس بالحضور، وهم بدورهم يغرون آخرين بمثل ذلك، وحين يكفي شخص تأثيراً بما يسمع - فإنه يحرض آخرين من القرىين منه على أن يبيروا مثل بكائه أو أشد، وحين يصفع أحد المستمعين، فإنه يشجع البقية على التصفيق... وحين يصفع كل من حولك، وتتمتع عن ذلك تلمع في موقفك نوعاً من التمرد والشذوذ عن الروح الجماعية المحيطة بك؛ ولهذا فإنك تصفع ولو كرت غير مقتنع بذلك، وهكذا تتسع بعض الظواهر من غير أسباب منطقية ومسلّم بها.

ب - هناك تأثير، يمكن أن يسمى (تأثير الهالة)؛ حيث إن مناكتسب شهرة واسعة بسبب كونه بارزاً في العلم أو الرياضة أو الثراء... يجعل الناس يعتقدون أنه يحسن الكلام في كل شيء، كما أن اختياراته في شؤونه الخاصة تكون مسددة وراقبة، وتقوم وسائل الدعاية والإعلان بتغذية ذلك حين تقول: إن معجون الأسنان الفلاني يستخدمه النجم الفلاني، وإن العطر الفلاني هو ما يفضله الرياضي الفلاني... ولا شك في أن هذا ينطوي على نوع من المخداع، وقد سمعت رؤساء وزارات سابقين يتحدثون في شؤون عامة كثيرة، فلم أجد لديهم العمق الذي لدى المتخصصين، لكن لأنهم أصبحوا من الشخصيات العامة، فإنهم يُدعون إلى حضور

المؤشرات وإلقاء المخاضرات لأسباب دعائية؛ حيث إنهم يضفون على اللقاءات التي يحضرونها أهمية خاصة. أما من يسمون بنجوم المجتمع، فإن الواقع يدل على أنهم بارعون في تخصصاتهم ومهاراتهم التي يرزوا بسببيها، أما في باقي شؤونهم فإنهم أشخاص عاديون جدًا، وكثير منهم مخفقون وتعسّاء. إن النجاة من تأثير هالات المشهورين تكمن في الأخذ بالحكمة العظيمة: «اعرف الرجال بالحق، ولا تعرف الحق بالرجال». في المجال العلمي هناك كتب مشهورة ومتداولة جدًا، وهي تستحق ذلك فعلًا لأنها نفيسة، وهناك كتاب مشهورة جدًا، لكن لا تستحق ما لقيته من حفاوة، وإنما اشتهرت لأسباب غير موضوعية، أو لأنها تتصل بأهواء الناس وغراائزهم، وأحياناً ينتشر الكتاب بسبب تعاطف الناس مع مؤلفه ومساندتهم له في ظلم وقع عليه... ومن المهم أن أشير في هذا السياق إلى أن الكاتب الممتاز قد يكتب كتاباً غير ممتاز، كما أن كاتباً مغموراً قد يكتب كتاباً جيداً، وأذكر أنني دخلت ذات يوم مع أحد الزملاء إلى أحد المكتبات، ووقفت عيوننا على كتاب لكاتب مشهور جدًا، وهمنا بشراء نسختين من الكتاب، فقلت لصاحبي لننشر الآن نسخة واحدة، فإذا وجدنا أن الكتاب جيد اشترينا منه نسخة أخرى، وبعد مدة نظر صاحبي في الكتاب، ونظرت فيه بعده، فلم نجد فيه أي شيء قيم يتناسب مع شهرة صاحبه! لهذا فإن من المهم فهم مثل هذه الأمور على نحو الصحيح.

ج - سطوة الانتشار تصيب في بعض الأحيان المشاهير أنفسهم بعض الأضرار المنهجية والأخلاقية؛ حيث إن الشخص حين يكتب سمعة عالية جدًا، ويصبح معروفاً على مستوى عالي أو إقليمي، يميل إلى الاعتداد بنفسه، ويجد من يسير عليه أن يتسلّل في أمور كثيرة، إنه لا يالي بلاحظات القرىين منه، ولا يقيم أي وزن لانتقادات المنتقدين من هم أقل شهرة، إنه يتصرف على أنه محور ومقياس وأصل... وبعضهم يضي في حياته على التحو الذي يفعله من يضع أصبعه على الأرض، ويقول: هنا محور الأرض، وعلى من لا يوافق أن يعيش! وما أبلغ قول الله - تعالى - في هذا النموذج من البشر: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفَلْقٌ ① أَنَّ رَأَاهُ أَسْتَغْنَى﴾ [العنكبوت: ٦، ٧]. المفكر الحق يحاول حماية نفسه من شرور الشهرة، ويحاول أن يحمل كل الانتقادات الموجهة إليه على محمل الجد، ويدرك أن المسألة قبل أن تكون تقديرًا للآخرين هي تلمس لما هو

أصوب وأفضل، وما هو مطلوب من الإذعان للحق.

#### ٥ - ثقافة التحiz:

لو تأملنا في الحروب التي كانت تشتعل على مدار التاريخ لوجدنا أن كثيراً منها نشأ بسبب الرؤية الزائفة للذات والرؤية الجائرة للآخرين، وقد كان فهم الآخرين على ما هم عليه - وما زال - معضلة من المعضلات الكبرى التي تواجهه بني البشر في تعاملهم مع بعضهم، ومن هنا كان من المهم إلقاء الضوء على مسألة (التحيز) بوصفه جزءاً من ثقافة مغلغلة في ثقافات الأمم وبوصفه أحد مكونات طرائقهم في التفكير، وهذه إشارات سريعة في ذلك:

أ - المقصود بالتحيز امتلاك المرء لمجموعة من المفاهيم والقيم، التي تدفعه إلى إصدار الأحكام ووقف المواقف المنسجمة معها، بعيداً عن النظر إلى الواقع، وبعيداً عما تقضي به التجربة الناجزة، إن التحيز إلى جماعته يوافق تلك الجماعة في اتجاهاتها، ويناصرها في قضاياها بقطع النظر عن الحبيبات والمعلومات الجديدة، وإن التحيز ضد فئة من الفئات ينفر منها، ويتعصب ضدها بقطع النظر عن الحالة التي هي فيها؛ وذلك لأن التحيز ينظر من منظور قديم وضيق؛ ولهذا فهو لا يرى التفاصيل، ولا يرى الأشياء الجديدة، مما يتصل بنتحيز ضدتهم، وقد كانت العرب في الجاهلية تناصر، وتبني تحالفاتها بعيداً عن مسألة العدل والحق على ما صرّوه الشفري في لامية حين قال:

هم الأهل لا مستروع السر ذات  
لديهم ولا الجاني بما جرّ يُخذل  
وقول الآخر:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم  
في النائبات على ما قال برهانا  
إن الظالم يكون في حمى قومه، فيدافعون عنه دون النظر إلى كونه معتدياً  
أو معتدى عليه، ويقرر البيت الثاني قوة حمية القبائل الكريمة في الجاهلية وقوة  
مناصرتها لأبنائها وحلفائها؛ حيث يستجيبون لندائهم، ويهجرون للقتال معهم دون أي  
سؤال عن سبب ندائهم أو سبب الشدة التي هم فيها، وهذه صورة عظيمة من صور  
التحيز التي كانت تعيج بها الحياة الجاهلية، ولا ينبغي أن يُظن أن هذا قد أصبح في

ذمة التاريخ؛ ففافة التحيز ما زالت تعمل بنشاط في القرن الحادى والعشرين حتى لدى أكثر الدول تقدماً؛ فأمريكا - مثلاً - تمنع مثل مواطنها أمام محكمة الجنایات الدولية مهما كانت جرائمهم، ودفاع الأمريكيين عن جرائم الإسرائيلىين، واستخدام حق النقض في مجلس الأمن لمنع أي إدانة لهم من الأمور المشهورة المشهودة!

ب - يذكرنا القرآن الكريم من أجل مقاومة التحيز بعض المعانى الجوهرية ذات الدلالات الكبرى حيث يقول - سبحانه - : ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذِكْرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُّوبًا وَقَبَائلَ لِتَعَارُفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفُسُكُمْ إِنَّ اللَّهَ حَلِيمٌ حَسِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]. إن الله - جل شأنه - يوضح لعباده عدداً من الأمور، منها: أنهم في الأصل إخوة من أب واحد وأم واحدة، وهذا يعني أن الأصل منهم التساوى أو التقارب في أمور كثيرة، ومنها أن توزع البشر على شعوب وقبائل ينبغي أن يكون مدعاه للتواصل والتعارف والتكمال، وليس التعانف والتقابل، ومنها أن معيار التفاضل هو شيء بعيد عن الحسب والنسب والمآل والمكان والزمان والقوة والجمال والكثرة... إنه (القوى) والصلاح والاستقامة.

ويؤكد القرآن الكريم على مسألة مقاومة التحيز في آيات أخرى في السورة نفسها إذ يقول - سبحانه - : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخِرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَمَّا أَنْ يَكُونُوا حَيْثَا مِتَّهُمْ وَلَا يَسْأَمُهُمْ مِنْ يَسْأَلُونَ عَمَّا أَنْ يَكُنَّ حَيْثَا مِنْهُمْ وَلَا تَنْهِرُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنْبَرُوا بِالْأَلْقَبِ إِنَّكُمْ لَكُمْ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَبْتَأْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]. إنها دعوة لكسر النظرة الجامدة للذات وللآخرين، ودعوة للانفتاح على الواقع والبحث في تفاصيل حياة أولئك الذين يمكن أن نستهزء بهم بسبب قصور في نسب أو مال أو هيبة أو مهنة، وهذا مضاد للتحيز، والذي يقوم دائتماً على تعظيم الذات والتهوين من شأن الآخرين من أفق نظره متجردة ومغلقة ومعزولة. يقول القرطبي في تعليقه على هذه الآية: « وبالجملة في ينبغي ألا يجري أحد على الاستهزاء بن يقتسمه فإذا رأه رث الحال أو ذا عاهة في بده أو غير ليق في محادثه؛ فعلمه أخلص ضميره وأنقى قلبه من هو على ضد صفتة، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله »<sup>(١)</sup>؛ هذه هي أصولنا، لكن التاريخ يتحدث، الواقع يخبرنا بأنه حين تراجعت درجة التشيف، وتختفي

(١) تفسير القرطبي (٣٢٥/١٦).

درجة التوتر الروحي لدى شخص أو جماعة أو شعب - فإن التحيز للجنس والعرق والقبيلة والعائلة... يحتاج النفوس والعقول؛ فهو أشبه بالوحش الذي يتغطرف الفرصة للانقضاض، مما يجعل التحضر من ويلاته مرتهناً لتقدير الوعي ومجاهدة النفس.

ج - تنميط الناس وتكتوين انطباعات جامدة عنهم ركيزة من ركائز ثقافة التحيز؛ وذلك لأن التنميط يربّع العقل من التفكير، ويُمْكِّنه من تجهيز الأحكام وتعليقها والبناء عليها من غير جهد يُذَكِّر؛ ولهذا فإن المجتمعات المتخلفة تمرّج بالتصنيفات للشعوب والقبائل والأفراد: القبيلة الفلانية جاهلة، والشعب الفلاني كسل، والجماعة الفلانية متعصبة، وأهل البلد الفلاني بخلاء... وذروة البشرة السمراء فوضويون وأغياء، وأصحاب العيون الزرقاء حاذدون... تصنيفات كثيرة تفتقر إلى الموضوعية، ولا تستند إلى أي أساس علمي... ونحن نعرف أن الله - تعالى - لم يخص شعباً أو قبيلة بالفضائل أو الذائل، لكن المريض بالتحيز يكون مصاباً بعمي الألوان، فهو لا يرى إلا الأبيض والأسود، مع أن بينهما في الواقع مئات الألوف من الألوان. التنميط كما ترى قائم على التعيم الظالم؛ إذ يكفي للمتحيز أن يلمس البخل أو اللؤم لدى خمسة من شعب أو قبيلة حتى يعم ذلك على الألوف والملايين، وقد أغلط رسول الله ﷺ القول فيما يفعل ذلك حين قال: «إن أعظم الناس عند الله فريدة لرجل هاجي رجلًا فهجا القبيلة بأسرها، ورجل انتفى من أبيه وزنى أمه»<sup>(١)</sup>، في الأوساط الإسلامية فشا داء (التصنيف)؛ هذا سلفي، وهذا إخوانني، وهذا تبليغي، وهذا إسلامي ليبرالي، وهذا إسلامي يساري، وهذا الاتجاه موالي لكتاب... كلام كثير يقال في المجالس، ويردده الشباب على الإنترنت، وحين ندقق فيه نجد أن معظمه يبني على ظنون وأوهام ومجازفات؛ حيث نسي كثير من الناس أنهم مسؤولون عن كل ما يقولون، ونسوا ما يترتب على كلامهم من ضرر يكون أحياناً كبيراً، والرجو تراجع ذلك مع تقدم الوعي.

#### د - دور المناضل:

شيء جميل أن يكون للمرء مبادئ وقيم يلتزم بها في المشط والمكره، ويدافع عنها بحماسة وتصميم، ويحاول نشرها وتعديها قدر الاستطاعة، وقد لا نعرف قيمة

(١) صحيح الجامع الصغير (٣٢٦/١).

كون المرء متهمًا للدفاع عن شيء يؤمن به إلا إذا تمثّلنا في أذهاننا رجلاً ليس له رسالة سامية، ولا يهتم بشيء خارج مصالحه المادية، إننا سنشعر أنه أقل من إنسان؛ لأن الإنسان لا يكون إنساناً إلا إذا كان له أشواق ومتطلبات تتجاوز المصالح المادية المباشرة، ومن هنا فإنني أعتقد أن معنى (النضال) يسأء إليه من قبيل بعض الناس حين لا يذكرون إلا السلبيات التي قد تصاحبها، ومن مسؤوليتي هنا أن أشير إلى تلك السلبيات حتى لا يتشوّه هذا المعنى الجميل، والتي منها الآتي:

- حين يعتبر الإنسان نفسه مدافعاً عنيداً عن فكرة أو مشروع أو قبيلة أو جماعة أو قضية... فإن الذي يهدده على نحو مؤكّد هو الواقع في التعصب لما يدافع عنه، والبالغة في بيان مزاياه، وقد رأيت كثيراً من الشباب المسلم المتشبّه إلى جماعات وتيارات وتجمعات إسلامية لديها الكثير من الخير، ورأيت لديهم تزايدات كثيرة في الناء على جماعاتهم، وهم كثيراً ما يكونون ضحية لأولئك الذين يقودونهم، ويجعلون من المبالغة في ذكر فضائل جماعتهم وسيلة لزيادة ارتباط أولئك الشباب بها، إنك حين تلتقي بهم تسمع عن كثير من الإنجازات الوجهية، وتسمع عن كثير من الميزات المتهوّمة، وهذا ينافي القيام بالحق والعدل، وينافي ما تقتضيه المنهجية الإسلامية من اقتصاد في مدح اللذات.

- الخطأ الثاني الذي يهدّد نقاء الدور النضالي هو ذم المنافسين وإبراز عيوبهم، وهذا مفهوم جيداً؛ لأنه ما دامت الأشياء لا تظهر ولا تتميز إلا بأضدادها فإن المتعصب لشيء لا يستطيع توضيح الكثير من ميزاته من غير أن يذكر معائب ما يغایره ويضاده، وهذا يذكي روح التعصب ويزيد في مشكلة التصنيف؛ لأن الطرف الآخر سيرد بذلك.

- الخطأ الثالث: الإعراض عن النقد الذاتي؛ لأن الهم الذي يسيطر على المناضل هو تعميم فكرته؛ وذلك يتطلب إبراز محسّناتها لا نقدّها، وهذا شيء خطير جدّاً في عالم الأفكار؛ لأن الفكرة حين تُحرّم من النقد تذبل وتتراجع؛ إذ إن النقد هو ماء الأفكار وهوأها.

- الخطأ الرابع هو التضليل من الناصحين وضعف الاستعداد لتلقي الملاحظات التي ترد إليه من هنا وهناك، وأذكر أن أحدّهم وجه نقداً وجّهها لبعض السلوكيات عند إحدى الجماعات، فما كان من سمع النقد إلا أن وضع أصعبه في أذنيه وأنشد

قول البوصيري:

مُحْضِتِي النَّصْحِ لَكُنْ لَسْتُ أَسْمَعَهُ  
إِنَّ الْخَبُّ عَنِ الْفَدَالِ فِي صُمَّ  
إِنَّ الْإِعْرَاضَ عَنِ السَّمَاعِ لَا يَأْتِي مِنْ خَارِجِ الْمَجْمُوعَةِ أَوِ الْجَمَاعَةِ مِنْ مَلَاحِظَاتِ  
يُؤْدِي إِلَى تَعْفُنِ الدَّاخِلِ وَتَرَاكِمِ الْأَخْطَاءِ، وَهَذَا مَا شَاهَدَنَا لَدِيِّ الْكَثِيرِينَ.

هـ - مقاومة التحيز:

علينا أن نعرف أن التخلص من التحيز على نحو نهائي غير ممكن؛ وذلك لأن من الطبيعي للمرء أن يتحيز لمبادئه وقيمته العليا، ومن الفطري أن يتحيز لقومه وتاريخه؛ وللهذا فإننا نتحدث هنا عن مقاومة التحيز للعادات والتقاليد وما هو من قبيل الذوقيات والاجهادات، ونتحدث عن التحيز المشتمل على الظلم للآخرين وبخسهم أشياءهم؛ وللهذا - ولا شك - علاج يخفف من حدته إلى حد بعيد، وهو يقوم على الآتي:  
- الانفتاح شيء مهم للتخفيف من التحيز؛ فالناس المنغلقون على أنفسهم يظلون أن حياتهم بكل تفاصيلها ما هي إلا نموذج عظيم لما ينبغي أن يكون عليه حال البشرية؛ وللهذا فإنهم يوسعون دائرة الحصوصية، وينفرون على نحو جماعي من كل ما يخالف ما هم عليه، ويظهر لك ذلك جلياً حين تنظر إلى طريقة تفكير إنسان يسكن في قرية نائية عن المدن وبين إنسان سافر إلى عشرين دولة، إن هذا الأخير سيدرك أن هناك من يخالف جماعته في أمور كثيرة، وأن لدى أولئك المخالفين أشياء كثيرة جيدة تستحق الاهتمام والتعلم.

- المقارنة التفضيلية مهمة جداً في مقاومة التحيز؛ فإذا كان لدىنا - مثلاً - جماعتان إسلاميتان تعملان في ساحة واحدة، وبينهما تنافس وتحاذب، فإن من المفيد جداً لمن يريد الحق، ويبحث عن الكمال أن يقوم بمقارنة مرجعية تفضيلية، تساعده على معرفة ما تمتاز به كل جماعة، ويمكن أن تكون المفردات الآتية أساساً لتلك المقارنة:  
أ - مدى ما لدى الجماعة من اهتمام بالاستقامة السلوكية ومدى قمع أفرادها بدرجة عالية من التقوى والورع بالمعايير الفقهية.

ب - الصدى الشعبي والسمعة الحسنة لكل منها.

ج - مدى رضا أفراد الجماعتين عن رشد القيادات وتحقيق الأهداف.

- د - درجة التماسك الداخلي لدى الجماعة ومدى اتساع صدر قيادتها للنقد الذاتي.
- هـ - انفتاح الجماعة على المجتمع وحسن تعاملها مع المعطيات والمعلومات الجديدة.
- من المهم لنا جميعاً أن نقر بأن عندنا تحيزات، وعندنا رؤية ناقصة لآخرين مهما تحسنت درجة الوعي لدينا؛ وذلك لأن الموقف الصحيح تجاه غيرنا يتوقف على فهمه على نحو جيد، وإذا كان نقر بقصور فهمنا لأنفسنا، فإن قصور فهمنا لغيرنا لا شك سيكون أعظم.
- في كثير من الأحيان لا نستطيع أن نتصور حجم الإساءة لآخرين إلا إذا وضعنا أنفسنا في موضعهم، أو إذا تفحصنا فيما يسيء إلينا من أقوالهم وتصرفاتهم، نحن نكره من يغنايانا، ومن يقلل من شأننا، ومن يراحمنا على موارد محدودة، ومن يعتقدنا بلهمجة قاسية... وسوف تقل درجة التحيز لدينا إذا ابعدنا عن هذه الأمور قدر الاستطاعة، وفي هذا يقول نبينا عليه السلام: «فَمَنْ أَحَبَ أَنْ يُرْجَحَ عَنِ النَّارِ، وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ؛ فَلْيَأْتِهِ مِنْهُ وَهُوَ يَرْجُنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلِيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يَحْبُبُ أَنْ يُرْتَقَى إِلَيْهِ»<sup>(١)</sup>.

#### ٦ - الانسياق خلف الخرافات.

يظن كثير من الناس أن عصر الخرافات قد انتهى بحلول العلوم المتقدمة، ويظنو أن الخرافات طارئة على الأمم لاعتقادهم أن الرشد والتفكير الراشد هو الأصل لدى الشعوب، وكلما ظنوا غير صحيح؛ فالبنية العقلية العميقه لبني الإنسان هي بنية خرافية بامتياز، والخرافات سابقة في وجودها على كل من العلم والفلسفة معاً؛ وذلك لأن لدى الإنسان شوقاً عارماً لتفسير الأشياء المحيطة به، كما أن لديه نزوعاً قوياً لا جنراً عتمة المستقبل، وحين لا يجد من العلم ما يكفي لهداً وذاك فإنه يجد في الخرافات والأساطير وسائل مثالية لبلوغ ما يصبو إليه. الخرافات عبارة عن أفكار ومارسات وعادات لا تستند إلى تسويف عقلي، ولا تخضع لأي مفهوم علمي لا على مستوى النظرية ولا على مستوى التطبيق؛ ومن ثم فإنها بعيدة عن المنطق وعن الموضوعية، ولا يستطيع الذي يتمتع بتفكير منطقي عالٍ أن يعصم ذهنه من الخرافات إذا لم يكن يملئ قدرًا جيداً من العلم؛ وذلك لأن المنطق هو القواعد الفكرية التي تستخرج

(١) رواه مسلم.

بواسطتها معرفة معينة من معرفة مسلمة سابقة. تستفي الخرافية وجودها واستمرارها من ذخيرة الأوهام التي يحتفظ بها المجتمع بسبب ما عاناه ويعانيه من جهل مطبق وتخلف سياسي واجتماعي واقتصادي شامل. الإسلام يقدم لأنسانه ما يحميه من التفكير الخرافي، لكن حين يشيع الجهل تفسد عقائد الناس وتتصبح مشكلتهم الأساسية سوء فهم الإسلام؛ ومن ثم فإنك ترى الخرافية والسحر والشعوذة وقراءة الكف والفنegan متشرة في المجتمع المسلم غير المتعلم قريباً من انتشارها في المجتمع غير المسلم، وقد لاحظ علماء الاجتماع أن انتشار الخرافية، يتسع كلما زادت درجة الجهل والجهل والعجز فقد الثقة بالنفس؛ لأن من شأن هذه الأمور أن تناهى بالإنسان عن البحث الموضوعي والمنهجي لمشكلاته، مما يجعله يلجأ إلى الخرافية بوصفها أداة جيدة لتفسير الظواهر.

ستظل الخرافية موجودة، وربما ينبع لها المزيد من الانتشار اليوم بسبب وسائل الاتصال العجيبة والمتأحة للصغرى والكبير، ونحن نلاحظ أن كثيراً من الناس يُشيعون عبر (البريد الإلكتروني) الكثير من الكلام حول فوائد بعض الأغذية والمشروبات والأعشاب، ويتداولون الكثير من الكلام حول ما يسمونه براهين على قدرة الخالق - سبحانه - كما يتناقلون أخباراً عن مصائب حلت بفلان لتركه الصلاة وبفلان لشربه الخمر... مما لا ينهض على ثبوته دليلاً، ولا يقصد للتمحيص والتجريب.

القاعدة الأساسية في التعامل مع كثير مما ذكرته تقوم على مفهوم العالية؛ حيث لا يكون العلم عملاً إلا إذا كان عالياً، فإذا جاء من يدعى خصائص وفوائد ل الطعام أو شراب أو أي شيء، دون أن ينال موافقة علم الطب، فإن علينا أن نقف من ادعاءاته موقف الشاك إلى أن يثبت الطب ادعاه، أو ينفيه. في بعض الأحيان تحاك قصة خرافية لأسباب غير اجتماعية، أو قل: لأسباب صحية تحديداً، وعلى سبيل المثال فإن مريض الفصام يصاب باضطراب في الإدراك، فيرى ويشعر أن في بابه من يحاول التجسس عليه، وقد يسمع بعض الأصوات، ويأخذ في تحليلها، ويكون كل ذلك غير موجود في الواقع، وإذا حدث ورم في منطقة البصر في الدماغ، فإن المريض يرى وكأن حية مؤت من أمامه، وليس هناك في الحقيقة حية ولا ثعبان، فإذا كان المريض من أهل الصدق والعلم، فإن كلامه يؤخذ على أنه حقيقة راسخة، ويشرع من سمعه

بتحليله والبناء عليه، وإذا بنا أمام خرافات تروى بسند صحيح عن مصدر موثوق! إن الإنسان لا يرى كل أحداث الحياة، ولا يفهم كل أسباب ما يجري من حوله، ولا يعرف كيف يفسّر كثيراً منه؛ ولهذا فإن العقل سبطل وهو يفكّر مصدرراً لانتاج الأوهام والأباطيل، وإن الثاني في اعتماد تفسير ما أو تصديق خبر ما، بالإضافة إلى سؤال أهل الاختصاص... من الأمور التي تساعده على حماية عقولنا من استياء الخرافات والأساطير عليها.

#### ٧ - الرضوخ للطبيعة والعادة:

يولد الطفل وقد زُرُّده الباري ~~بكل~~ بخصائص شخصية، هي بمثابة النواة لشخصيته في المستقبل، لكن الطفل ينشأ في أسرة، وهذه الأسرة لها مسحة عامة، ومن خلال عيشه فيها يكتسب الكثير من العادات، وتدل بعض الدراسات على أن (٥٠٪) من الخطوط العميقية في شخصية الطفل يتم رسمه في السنة الأولى، وحين يبلغ السادسة يكون (٨٠٪) من تلك الخطوط قد تم رسمه بالفعل؛ ولهذا فإن سطوة المجتمع في تشكيل ذهنية الطفل هائلة، وفي دراسة ذات معنى أجريت على (البراغيث)؛ حيث قام أحد الباحثين بوضع عدد كبير من البراغيث في زجاجة كبيرة، وأحكم إغلاقها، وبعد ثلاثة أيام رفع الغطاء عن فوهة الزجاجة، وظهر شيء مذهل، هو أن (البراغيث) لم تعد ترتفع في طيرانها فوق مستوى الزجاجة حتى الصغار الذين ولدوا فيها تعلموا سلوك المجموعة، وصاروا يطيرون مثلها! هكذا المجتمع يرسم لنا كثيراً من ملامح السلوك وعادات التفكير؛ ومن ثم فإن الطامح إلى أن يكون مفكراً حرّاً ومبدعاً محتاج إلى أن يتحرر من العديد من عادات التفكير التي وجد نفسه مقيداً بها، ومن تلك العادات الآتية:

##### أ - السرعة في التفكير:

معظم الناس في عالمنا الإسلامي، ما بين أميين وما بين المتعلمين تعلمّا ضعيفاً، لا يملكون أسس التفكير المنهجي، ويتّبّعون على نحو عام بعيدة عن تقاليد البحث العلمي ومحرومة من معرفة قواعد التفكير القويم؛ ولهذا فإننا نلاحظ وجود سرعة مذهلة في إصدار الأحكام والتقييمات، ونلاحظ هذا جلياً في أحاديث المجالس؛ حيث

يجيب بعض الحاضرين على المتحدث قبل أن ينتهي من حديثه أو طرح سؤاله، إن المطلوب عند التفكير في أمر النظر ملئاً في المعلومات المتوفرة، والإحاطة بالقضية أو المشكلة موضع التفكير، والتحقق من مصداقية البراهين التي سنستخدمها، إلى جانب الإصغاء إلى وجهات النظر المعاشرة والجديرة بالاهتمام، وإذا كانت هناك خيارات مطروحة فلا بد من دراستها قبل أن نقدم الخيار الذي نرتاح إليه؛ فقد يكون فيما قاله غيرنا مما هو أفضل مما سنقوله.

### **ب - الكسل الذهني:**

التفكير عملية شاقة جدًا ولو خبرتَ كثيرةً من الناس بين أن يجلس الواحد منهم ساعة يفكر فيها في أمر، وبين أن يمشي تلك الساعة لاختار المشي؛ ومن هنا فإن معظم الناس يحملون همّ مسألة من المسائل سنة أو سنين دون أن يجلسوا ساعة أو ساعتين للتفكير في الأسلوب الأمثل للتعامل معها، ولا شك أن هناك فرقاً كبيراً بين حمل همّ أمر من الأمور وبين التفكير فيه على نحو جاد.

إن الله تعالى قدّمتنا بالكثير من القدرات التي تساعدنا في التغلب على الصعاب، ومن تلك القدرات: القدرة على التخيل والمقارنة، وفهم الفروق بين الكائنات والأفكار، واستخدام الحجج المنطقية في إقناع الآخرين... إن من المؤسف أن مدارسنا وجامعتانا لا تقدم أي تدريب في هذا الشأن، كما أن أسلوب التعليم يرتكز على التلقين والحفظ، وليس على التفكير؛ ولهذا فإن ما سميته الكسل الذهني أو البطالة الذهنية هو الأصل في حياتنا، والتخلص منه يحتاج إلى إرادة ومجاهدة وتمرين.

### **ج - عدم الاعتراف بالخطأ:**

كثير من الناس يجد صعوبة بالغة في أن يتحدث عن الأمور التي أخطأ فيها، أو يتحدث عن المشروعات التي فشل في إنجازها؛ وذلك يعود إلى أن مجتمعاتنا لم تتعود (البورح)، وقليلًا ما تمارس فضيلة الاعتراف بالقصور، وأرى أن على العلماء والمفكرين مسؤولية خاصة في هذا؛ إذ إن من واجبهم أن يتحدثوا عن بعض نقاط ضعفهم، وعن الموضوعات التي لم يتمكنوا من إنصажها أو بلوحة رؤية جيدة فيها، ومصدر المشكلة يعود إلى أنها نظن أن اعترافنا بالخطاء يحطّ من قدرنا في عيون الناس، وهذا وهم؛ فالناس كلهم يشعرون بضعف الفهم لبعض الأمور، ويقعون في

بعض الأخطاء السلوكية نتيجة لحظات الضعف التي يمرون بها، ومن ثم فإنهم يلمسون في الذي يتراجع عن خطبه الشجاعة التي افتقدوها في أنفسهم.

مجتمع النبي ﷺ كان مجتمعاً فاضلاً، ومع هذا فإن كثيراً من الصحابة اعترفوا بأخطائهم، وسألوا عن أمور غير معقدة؛ وذلك لاعتقادهم بأن ذلك لا ينقص من قدر الإنسان؛ بل يرفعه.

#### د - وهم الاكتفاء المعرفي:

حين يعيش الإنسان في بيئة غير متعلمة، ويكون قد حصل على قدر حسن من المعرفة والعلم، فإنه يقارن نفسه بن حوله، ويرى أنه متقدم عليهم، وهذا يجعله يتواتي في طلب العلم ومتابعة الاطلاع، ويأخذ في التحدث بأمور كثيرة، وتتصدر عنه آراء غير ناضجة... إن المطلوب من يتحدث في التاريخ أو الفقه أو الطب - مثلاً - أن لا يقارن نفسه بن حوله من العامة، إنما عليه أن يقارن نفسه بأهل الاختصاص الذي يتحدث أو يحاضر أو يكتب فيه؛ لأن الحكم الصحيح على ما يقوم به محصور فيهم. إن الشجاعة في العطاء والجرأة في طرح الرأي من الأمور الحمودة، لكن مع التزود بالقدر الكافي من الذخيرة العلمية المرموقة.

#### ه - مقاومة الجديد:

حين تُناقش بعض الناس تشعر أنك أمام أشخاص لديهم قدر كبير من المانعة ضد التغيير، وتشعر أنك أمام عقليات عسيرة الصقل، وهذا يعود في الأساس إلى البيئات التي نشأوا فيها، وهذه مشكلة عويصة وكثيراً ما تعرقل التقدم الذهني لدى شعوب بأكملها... إن من أهم صفات المفكرين أنهم يملكون القدرة على الاستجابة للمعلومات الجديدة، إنهم ينظرون إلى رؤيتهم للحياة والأشياء على أنها مشروع تحت التأسيس، أو أشبه بطبعنة ما زالت فوق الموقن؛ ولهذا فإنهم لا يرون مشكلة في إضافة شيء من الماء أو الملح... إليها؛ بل إن المفكر يتوجه بالرأي الذي يخالف رأيه؛ لأنه سوف يساعده على إثراء ما لديه، ويجعله يجدد في طرحة العام، وهذا ما ينبغي علينا جميعاً أن نتعلم، ونفرح به.

#### و - التطرف في التشاؤم والتغافل:

من الناس من يميل بفطرته إلى التفاؤل والمرح، ولديه طيبة وحسن طيبة وسماحة،

ثم يكرمه الله - تعالى - بزوجة صالحة وأولاد صالحين ناجحين، ويرزقه عملاً جيداً... وهكذا فإنه يكون مؤهلاً على نحو تام لأن يكون مفترطاً في تفاؤله؛ لأنه يعيش في وضعية جيدة، ولم ير شيئاً من الظلم أو عذابات الحياة القاسية، وهذا يدفعه بطريقة غير واعية إلى التقاط الصور والمؤشرات الإيجابية والجميلة في المجتمع، ثم يأخذ بتجميعها وفلسفتها، ثم الحديث عنها وتقديمها للناس على أنها تمثل الواقع، وما عدتها قليل أو نادر.

في المقابل هناك أشخاص لديهم نوع من السوداوية في المزاج، ومرة عليهم من حرواثت الحياة المظلمة والظالمة، ما جعلهم محبطين ويائسين من كل شيء، ومنهم من يعمل في عمل يتعلق بسواءات المجتمع وأهل المشكلات من أبنائه، مثل: الشرطة والقضاء والمرشدين الأسريين... وهؤلاء جميعاً معروضون لأن يُفرطوا في التشاؤم تجاه المستقبل؛ ولهذا فإن كثريين منهم يصدرون الأحكام القاسية، وينتجون الأفكار التي تشير إلى تراجع الحالة الأخلاقية والحضارية في المجتمع. المطلوب من هؤلاء وأولئك الاعتقاد بأن الوضع العام قابل دائئماً لأن يُقرأ بطرق مختلفة، وقابل لأن يجد فيه كل فريق أو طرف ما يعزز معتقداته؛ ولهذا فإن الإحصاءات والأرقام والتقارير المتخصصة والمقارنة هي التي تساعدنا على إصدار الأحكام الرشيدة، وينبغي أن نتحكم إليها كلما أردنا القيام بذلك.

### ز - تبسيط ما هو معقد:

حين نحاول فهم ظاهرة كبرى مثل التدين أو البطالة أو تخلف التعليم أو التواصل الاجتماعي أو العولمة... فهذا يعني أننا نحاول فهم ظاهرة مركبة ومعقدة ذات أبعاد مختلفة، والخطأ الذي ينبغي أن نحذر منه هو أن نعمل على بحث أي ظاهرة من الظواهر بعيداً عن امتداداتها المختلفة، فلا نحصل إلا على فهم مبتسراً، وعلى سبيل المثال فإن كثريين منا ينتظرون إلى العولمة على إنها أمراً كثراً، أو على أنها حركة استعمارية جديدة، أو على أنها فرصة أمام الدول الفقيرة لاكتساب خبرات تقنية وتجارية كبيرة... وكثريون ينتظرون إلى أزمة التعليم لدينا على أنها أزمة مناهج أو ضعف معلمين أو ضعف تجهيزات أو ضعف متابعة من الأهالي لأولادهم... هذا كله عبارة عن تبسيط لظواهر كبرى، ولهذا فإن كثريين منا لا يخرجون من وراء بحثها والتفكير فيها

بأي نتيجة، وسأذكر هنا نموذجاً للتفكير في ظاهرة مركبة بعيداً عن التبسيط من أجل توضيح ما أريد قوله، واخترت الحديث عن (الالتزام الأخلاقي) موضوعاً لذلك النموذج بوصفه شأنًا مهمًا في نظر جميع المسلمين، وذلك عبر المفردات الآتية:

- نعني بالالتزام الأخلاقي: مطابقة سلوك المسلم للقيم والأخلاق الأساسية في الإسلام، مثل الصدق والأمانة والحياء واللطف في التعامل والصبر والوفاء بالوعد...

- تشعر أحياناً أن بعض الناس ولدوا ليكونوا خلوقين؛ حيث تلمس فيهم الكثير من النبل واللطف والخلق الرفيع مع أنهم لم ينشأوا في أسر متازة، ولا تعلموا في مدارس جيدة.

- يخرج المرء في بعض الأحيان على خلق يلتزم به على نحو جيد بسبب بعض الظروف القاسية؛ فالصبور قد يفقد صبره حين يُحَمِّل عبئاً ثقيراً يفوق طاقته، والصادق قد يكذب حين يدخل في موازنة يرى فيها أن الكذب أهون الشررين وأخف الضررين عليه، وقد يكذب المرء بسبب مروره في لحظة ضعف ثم يتوب بعد ذلك، وقد ورد في الصحيح أن رسول الله ﷺ كان إذا أطلع على أحد من أهل بيته كذب كذبة، لم يزل معرضًا عنه حتى يحدث توبة.

- للظروف الاقتصادية تأثير كبير في الالتزام الأخلاقي؛ فحين يكون الناس في حالة شديدة من الفقر والعوز، فإنهم يستسهلون الخروج على قيمهم ومبادئهم؛ ولهذا تجد من يكذب ومن يقبل الرشوة، ومن يُظْهِر نوعاً من الأنانية الشديدة... في الأوقات الصعبة. وأحياناً تضعف الأخلاق لدى الناس بسبب اتساع طموحاتهم الدينية، كما هو مشاهد لدى الذين يقبلون الرشوة وهم أثرياء، وأحياناً يسلك الناس مسالك غير أخلاقية بسبب ضعف النظم الرقابية؛ فالزجاج المكسور يشجع اللصوص على السرقة.

- التزام الشخص الواحد بالأخلاقي ليس على درجة واحدة؛ إذ إن الأسرة قد ترکز في تربيتها على خلق بعينه أكثر بكثير من تركيزها على باقي الأخلاق، وعلى سبيل المثال؛ فإن الناس في أكثر الأحيان يشددون في تربية أبنائهم على أن يكونوا لائقين اجتماعياً، ويحذرونهم مما ينظر إليه المجتمع على أنه معيب، ويتساهلون فيما يتعلق بالحلال والحرام، ونحن نعرف أن النساء في الريف الإسلامي - مثلاً - كن

يحرصن على الحجاب ويتمسken به أكثر من حرصهن على أمور أساسية جداً مثل الصلاة، كما نعرف أن الناس في القرى والأحياء الضيقه يحرصون على خلق المعاونة والإسعاف أكثر من حرصهم على خلق إمساك اللسان عن الكذب والغيبة والنميمة، وقد كان العربي في الجاهلية ينظر إلى الكرم والشجاعة وإغاثة الملهوف نظرة تنطوي على كثير من الاهتمام والاحترام، لكنه لم يكن يهتم كثيراً بالعدل واحترام الحقوق، وقد كانت أحب أموال العرب إليهم ما يكسبونه عن طريق التجارة وعن طريق الغزو والقتال، وإن معظم المسلمين في معظم المراحل التاريخية كانوا يهتمون بصيام رمضان أكثر من اهتمامهم بالصلاحة مع أن شأن الصلاة أعظم؛ كما أشرت من قبل.

- سيظل وعي الناس بمنظوماتهم الأخلاقية، وسيظل فهمهم لدرجة أهمية كل مفردة من مفرداتها منقوضاً؛ ومن ثم فإن الوعي بها يتسع ويتعمق بحسب الحالة الحضارية التي يعيشون فيها، أي أن الظروف المعيشية وتطور العلاقات الاجتماعية ومدى ما يتراكم لديهم من معارف وخبرات... هو الذي يتحكم في كثير من أشكال التطهور الأخلاقي، وعلى سبيل المثال؛ فإن سكان العواصم والمدن الكبرى - على نحو عام - يصبح لديهم اهتمام أكبر بما يمكن أن نسميه أخلاقيات العمل وأخلاق التمدن، وذلك مثل الدقة والإيجاز والجدية والمثابرة، والمرؤنة والاستيعاب للآخرين واللطف في التعامل معهم، كما أنهما إلى جانب هذا يتذوقون طعم الرفاهية، ويُخبرون أشكالاً جديدة من المتع، وهذا يؤدي إلى أن يعيدوا ترتيب أولوياتهم في سلمهم الأخلاقي. أما في البوادي والقرى والأحياء العشوائية التي تنشأ على تخوم المدن، فإن الناس يهتمون أكثر بأخلاق مثل: الاعتراض بالحسب والنسب والانتقام إلى القبيلة والحرص على سمعتها، ويجيزون لأنفسهم اللجوء إلى القوة في حل مشكلاتهم، كما أنهما يمكنون طاقة هائلة على التعايش مع عذابات الحياة، وهم إلى جانب هذا سريعاً الانسحاب من مواجهة التحديات، وللبيئة الاجتماعية والسمعة الحسنة بالإضافة إلى أخلاق مثل المروءة والشهامة والنجدية والغيرة على العرض... شأن وأي شأن في خرائطهم الأخلاقية.

من هذا الفرض يتضح لنا أن مسألة (الالتزام الأخلاقي) مسألة معقدة غاية التعقيد، ويتبين لنا أن تحسين مستوى التزام الناس بالأخلاق الفاضلة لا يتم بمجرد

الصلح أو تحسين مستواهم الاقتصادي أو الارتفاع بحصيلتهم المعرفية... إن المسألة أعقد من ذلك بكثير، وتبسيطها وتبسيط مثيلاتها من المسائل المركبة، هو من المطبات الكثيرة التي يقع فيها كثير من المثقفين فضلاً عن غيرهم.

كنت أود أن أنيض أكثر في الأمور التي تستحق الخذر، لكنَّ الحرص على عدم تضخم الكتاب يلجم القلم في كل مرة عن الاسترسال؛ وحسبك من القلادة ما أحاط بالعقل.

## تطوير الأفكار

مضت ستة الله - تعالى - في هذا الكون بأن تظل أجزاء منه ملفوقة بالغموض، ومضت مشيته بتسخير ما في السموات والأرض لهذا الإنسان المثير والمفضل على العالمين، وإن جزءاً من تميزنا يكمن فيما أمننا به من خيال وذاكرة وقدرة على التحليل... ومن الواضح جداً أن اكتشافنا للحقائق يتم دائمًا على سبيل التدرج، وإن تطوير المنتجات بكل أشكالها قائم على هذه الحقيقة. إن لدى كل واحد من العديد من الأفكار التي يرى أنها جيدة ونافعة لو تم توظيفها بشكل جيد، وتفضي الأيام والسنين ونحن نردد أفكارنا في المجالس ظانين أنها تتأثر على الذبول مهما تقادمت، وهذا أحد أكبر الأوهام التي يقع فيها كثير من الناس. إن الفكرة سواءً أكانت نظرية فلسفية أو كانت عملية تتنفيذية تظل غير مكتملة، أي تظل قابلة ل النوع من التشذيب والتعديل والإثراء، فإذا لم نقم بتطويرها فربما تحول مع الأيام إلى شيء يشبه تخيلات ونظريات الحمقى، وبعد ذلك تذهب أدراج الرياح، وما ذلك إلا لأن الشيء الذي أفكر فيه ليس حكراً علي؛ فالمشاهدة تثبت أن الواحد منا حين يتضخم فكره من الأفكار، أو يمتلك رؤية أو طرحاً لمشروع من المشروعات، لا يكون وحيداً في ذلك؛ بل يكون هناك عشرات أو مئات العقول الذكية التي تفكّر في مثل ما فكر فيه، وربما على نحو أكثر عمقاً، وإذا استطاع بعض أولئك وضع أفكارهم في سياق تطبيقي، فإنهم سيحصلون على فرصة عظيمة لتطويرها بما يكتشفونه من نقاط قوتها ومن وجوه فصورها وعيوبها، وتحول الأفكار التي يتكرر طرحها على نحو جامد إلى ما يشبه خردوات التاريخ، لتوسر على أن أصحابها بات يفكر لزمان سابق على زمانه.

أنا هنا سأحاول ذكر بعض الأفكار والأساليب التي تساعد على تنمية الأفكار مع الاعتراف بصعوبة هذه المحاولة ووعورة الطرق المفضية إلى نجاحها، لكن ليس أمامي أي خيار آخر، ولعلي أقارب ذلك عبر النقاط الآتية:

## ١ . وضع الأفكار في نطاق أوسع:

حين نفكر في أي قضية من القضايا، فإن هناك إغراءات كثيرة بالتركيز على جوهر القضية، ونعمل ذلك عادة بالحروف من التشتت والبعد عن لب المسألة، لكن إذا تأملنا في الواقع فإننا سنجد أن أي مشكلة من المشكلات التي نعاني منها، هي ذات امتدادات وعلاقات تتجاوز مجالها، حتى الأفكار والمفاهيم فإنها تكره القطعية والحصر في حيز ضيق، وتلهف لأن تكون في فضاء أرحب، وأسوق مثالين على ما أود تقريره:

أ - حين يلاحظ المسؤولون عن الأمن في بلد من البلدان زيادة حوادث القتل بالنسبة إلى الأعوام السابقة، فإن الأفكار التي يتم التركيز عليها في العلاج غالباً ما تكون بناء المزيد من السجون والتشدد أكثر في حصول المواطنين على رخص حمل السلاح وتسريع عمل المحاكم، وهذه كلها حلول مطلوبة، لكنها غير كافية، وإن تطوير أفكار المعالجة لانتشار هذه الجريمة يمكن في فهم الأسباب على نحو تفصيلي وفي توسيع آليات العلاج، وعلى صعيد الأسباب يكون علينا البحث في دوافع تلك الجريمة، وهل مساعدة تلك الدوافع في حدوثها ثابتة أو متطرفة؟ وإذا كانت متطرفة، فما الدافع التي صارت أشد تأثيراً؟ نحن نعرف أن الإنسان يقتل أحياناً بسبب ضعف إيمانه وopicته، وغفلته عن ربه وعن العقوبة العظيمة التي رتبها على قتل العمد، وقد يقتل لأسباب صحية بسبب اضطراب عمل الغدد أو تغير في كيمياء الدماغ، وقد يقتل دفاعاً عن العرض والشرف والسمعة، كذلك يقتل أخته للتخلص من العار الذي ألحقه بالأسرة بسبب انحرافها السلوكي، وقد يقتل لدوافع اقتصادية كما يفعل اللصوص في بعض الحالات، كما أنه قد يقتل لأسباب ييشة تربوية، كما هو الشأن في البلدان التي يتشر فيها القتل بدافع الثأر وعلى مبدأ أخذ الحق باليد... وهكذا فإن التوسع في فهم أسباب الجريمة هو تطوير لأفكارنا حول واقع الجريمة وامتداداتها الصحية والثقافية والاقتصادية... هذا بالطبع يجعلنا نتوسيع أفكارنا حول آليات علاج الجريمة، وسنجد أن علينا آنذاك أن نراعي في التركيز على الآليات ما أفضى إليه البحث عن الأسباب، فإذا وجدنا أن ضعف الإيمان - مثلاً - هو الدافع الأقوى في زيادة حوادث القتل علينا على معالجة الفراغ الروحي والفكري لدى الشباب بتركيز أكبر واستمرارية أعلى وهكذا...

ب - مشكلة عزوف الشباب عن القراءة من المشكلات الخطيرة لدينا، ونحن حين نتحدث عن هذه المشكلة الخطيرة نعيدها إلى أسبابها المباشرة، مثل أمية كبير من الأسر، وفشل المدارس في تحبيب الكتاب إلى الطالب وغلاء أسعار الكتب بالنسبة إلى كثير من الناس... وإذا أردنا تطوير رؤيتنا لهذه المشكلة، فقد يكون علينا التفكير في الآتي:

- معظم المسلمين فقراء، وبعدهم تحت خط الفقر، وحين يشعر الإنسان بعدم القدرة على تلبية حاجاته الأساسية كالطعام والشراب والمسكن والملابس... فإنه لا يتجه إلى تلبية ما هو من قبل الاهتمامات الثقافية العليا، كما هو الشأن في القراءة؛ ولهذا فإن فريقاً من المسلمين لن يحتفلوا بالكتاب، ولن يداوموا على فعل القراءة حتى يتحسين وضعهم المادي، وهذا السبب ثانوي في نظري.

- تدل بعض الدراسات على أن نحو من (٧٠٪) من القراء في أوروبا يقرأون من أجل التسلية والتخلص من الفراغ، وربما صلح هذا لأن يكون مؤشراً إلى وضع القراء في كل أنحاء العالم، وعلى هذا فإن الكتاب اليوم يجد أكثر من منافس على تحقيق التسلية: الفضائيات، الإنترنت، المحوال، الألعاب الإلكترونية... ومن هنا فإن المطلوب هو توفير وضعيّة حضارية يقرأ فيها كثير من الناس من أجل الفائدة والارتفاع بمستواهم الثقافي.

- كثير من الأعمال في العالم الإسلامي مبتعدة الصلة بالمعرفة والدرس، أي أن معظم الموظفين والعمال لدينا لا يحتاجون في أداء أعمالهم اليومية إلى القراءة والبحث على حين أن نحو من (٤٠٪) من الوظائف في الغرب يحتاج إلى ذلك، وهذا أدى إلى عدم تكون ألفة بين الفرد المسلم وبين الكتاب، أضف إلى هذا أن معظم الأعمال عندنا يحتاج إلى بذل جهد عضلي كبير، وهذا يستنفذ الطاقة الروحية والبدنية لدى الكثيرين، فإذا جاء المساء شعروا أن ما يحتاجون إليه هو الراحة، وليس القراءة، وهذا يعني أن جزءاً من تغيير وضعية العزوف عن القراءة سيظل متوقفاً على تحسن الوضع الحضاري وتغير طبيعة العمل الوظيفي لدى المسلمين.

- أسلوب التعليم لدينا يقوم في معظم الأحيان على الحفظ والتلقين، وهذا يشكل ضغطاً هائلاً على الروح والذاكرة ويحرم الطالب من الرجوع إلى المصادر والمراجع، والنتيجة الملحوظة هي كره التعليم والفرار من القراءة، وينتقل هذا بالنسبة إلى كثير

من الطلاب إلى موقف عام طيلة الحياة.

- لم تقم الجامعات ببذل جهد يذكر في (تبسيط المعرفة) ولم تبذل الحكومات جهوداً واضحة في دعم المؤلفين أو دعم صناعة النشر؛ ولهذا فإن عالم النشر هو عالم ضعيف، وقد انعكس هذا على مستوى الكتب التي تُؤَلِّفُ وعلى قدرتها على جذب الجماهير إليها؛ ومن ثم فإن الكتب التي يوزع منها مئات الآلاف، والكتب التي تترجم إلى عدد جيد من اللغات قليلة جدًا.

- معظم الأسر المسلمة أمية أو حديثة عهد بأمية أو نصف مثقفة، وهذه لا تبذل الجهد المطلوب لغرس حب القراءة في نفوس الصغار وجعلها إحدى العادات لديهم. إن مثل هذا التوسيع للقول في المشكلات والظواهر يتبع لنا فتح آفاق جديدة في فهمها ومعالجتها، ويشكل في الأساس تطويراً لرؤيتنا لها، وإذا استطعنا توعيئ ذلك بحوار عميق حول ما ذكرناه فإننا سنشعر فعلاً أننا حصلنا على ثروة من الأفكار القيمة.

## ٢ . التداعي المنطقي والثقافي

إن الله - سبحانه - فطر العباد على طبائع وتطلعات وحاجات واستجابات موحّدة على المستوى العام متباعدة على مستوى الجزئيات والتفاصيل، وهذا يمكّنا من بلورة رؤى ومفاهيم جيدة حول علاقة الإنسان بأخيه الإنسان وعلاقته بما هو ثابت من حوله، وبما هو متظور، وإن الكشف عن تلك العلاقة قد يتم أحياناً عن طريق فهم الرابط المنطقي والترابط الثقافي بين ظاهرة وظاهرة وبين وضعية ووضعية، وهذا كله يطّور أفكارنا، و يجعلها أكثر رحابة، وسأشرح ما أريده من خلال مثال يتعلق بتأثير التحضر في علاقة الرجل بالمرأة، وذلك عبر التداعيات الآتية:

أ - حين يحدث تقدم حضاري و عمراني فإن وعي الناس يتفتح على كثير من الأشياء الجديدة، و يبدؤون بتذوق طعم الرفاهية، ويخبرون المشاعر التي يفتقدها التمع بالكماليات.

ب - يشعر الرجل بحاجة مائة إلى زوجة تعيش معه تحت سقف واحد، والإنسان المتحضر الذي ذاق طعم الرفاهية يتطلع إلى أن يترفّه بالمرأة من خلال درجة

عالیة من التمتع بها، وهذا متوقف على تجاوبها مع تطلعات الرجل ورغباته وعلى حرصها على مسایرة مزاجه.

ج - المرأة ليست شيئاً أو متاجعاً يمكن للرجل التمتع به من غير إرادته، ولهذا فإن تجاوب المرأة مع رغبات الرجل وترفيتها له، مرتبط بإحساسها بأنه يحبها، ويحترمها، ويحرص على ترفيتها.

د - إن من جملة ترفيه المرأة العمل على تلبية طلباتها ومراعاة مشاعرها والبعد عن مفاضبتها.

ه - هذا يعطي للمرأة نفوذاً جديداً، لم يكن لها من قبل، لهذا يمكن القول: إنه كلما درج الناس في سُلُّم الحضارة والمدنية أكثر، اتسع المجال الحيوي للمرأة، وصار لها سطوة أكبر في حياة الأسرة، من هنا نلاحظ أن نفوذ المرأة في المدينة أقوى من نفوذها في القرية، ونفوذها في القرية أقوى من نفوذها في الباشية، وما ذاك إلا لأن حياة الباشية هي حياة ضروريات لا حياة كماليات. وأنت تلمس من صدى قوة نفوذ المرأة في المدن انحسار تعدد الزوجات فيها وضائتها إذا ما قررن بما في القرى والبواقي.

و - نخلص من هذا إلى أن روح الحضارة، أثني، وكلما ازداد الناس تحضراً اكتسبت الحياة مسحة أنوثية، ويفظهر ذلك في لطف الخطاب ونعومة التعامل والحضور المتزايد للرغبات مع نمو الوعي التصالحي.

ز - بما أن النساء من أشد ما يُفتن به الرجال فإن المزيد من التقدم الحضاري يفتح وعي النساء على المزيد من خبرات الإغراء للرجال، وهذا يعني المزيد من الابتلاءات الجديدة.

ح - مواجهة ابتلاءات إغراء النساء تحتاج إلى تيسير الزواج وخفض تكاليفه وإلى إثراء الجانب الروحي والاستعداد لمزيد من الصبر والمجاهدة.

إن فهم التداعيات والارتباطات الثقافية والمنطقية يحتاج إلى الخيال الخصب مع العمق في معرفة الطبيعة البشرية وطبائع الأشياء، لكن ما نحصل عليه آنذاك من صقل للوعي لا يقدر بثمن.

## ٢ - التدرج في تطوير الأفكار.

إن معرفتنا بالطبيعة البشرية مثل معرفتنا بالعقل البشري، ومثل معرفتنا بالأجسام والمواد المنتشرة في الكون، إنها معرفة ناقصة وغير نهائية، وينبغي أن نلزم الدقة والحذر حين نريد تقرير الحقائق المتصلة بذلك، أو نريد إصدار أحكام عليها، ويتمثل التدرج في بناء الفكرة وتطویرها وتوسيع مدلولها تعبيراً جيداً عن تلك الدقة وذلك الحذر؛ وهذا مثال على ذلك:

قالت العرب قديماً: « تكُلُّوا ثُرُفُوا » أي أنها حين نلتقي بشخص لا نعرفه فإن الذي يكشف لنا عن عقله وعلمه هو كلامه، وهذا صحيح إلى حد بعيد، وفي إمكاننا تطوير هذا المفهوم من خلال توسيع ملاحظتنا للشأن الإنساني والبحث عن الأشياء التي تساعدنا على معرفة ذلك الشأن، ومن هنا فإن في إمكان المرء أن يقول:

أ - من سياراتهم تعرفونهم؛ حيث إن سيارة المرء تشير إلى الحالة المادية لصاحبها؛ فنمن سيارة واحدة لثري جداً قد يساوي ثمن مئة سيارة من أمثال سيارة رجل فقير جداً، كما أن سيارة الشخص قد تدل على مدى ما عند صاحبها من حرص على النظافة، وأنت تلاحظ أن بعض الناس يركبون سيارات قذرة من الداخل والخارج، وهذا لا علاقة له بالغنى والفقير.

ب - من أماكن سكناهم تعرفونهم؛ إذ إن من المؤسف أنك تجد في معظم المدن أحياe للأغنياء وأحياء للفقراء، وتتجدد في أحياe الأغنياء توفرها واضحاً للخدمات، كما تتجدد فيها فسيحة الشوارع، وأقل ازدحاماً، كما أن فيها درجة عالية من الأمن، وليس كذلك أحياe الفقراء، وهذا يجعل الساكنين في أحياe الأغنياء أكثر تفاؤلاً من الفقراء، وتتجدد لديهم اهتمامات أرقى من اهتمامات الفقراء.

ج - من أصحابهم تعرفونهم، فأهل الصلاح يحرصون على مصاحبة أشخاصهم من أهل الاستقامة، وأهل الفساد يحرثون أيضاً عن أشخاصهم من الفاسدين؛ ولهذا قيل في الحكمة: « قل لي من تصاحب أقل لك من أنت ».

د - من اهتماماتهم تعرفونهم؛ فالكتاب الكبير في الرؤية الإسلامية الرشيدة هم الذين تمكروا من الخروج من دوائر اهتمامهم بأنفسهم ومصالحهم ومتغيرهم الشخصية

ليدوروا في ذلك مصالح الأمة وحاجاتها، إن الذي يورقهم هو ما يورق الأمة، كما أن ما يفرجهم هو ما يفرجها، أما الصغار فإن الذي يستولي عليهم هو هم الحصول على الطعام الفاخر والمسكن الربح والمركب الباذخ... إن اهتمامات الإنسان تلخص فعلاً رؤيته للحياة، وترجم مشاعره على نحو دقيق وجميل.

ـ من برامجهم اليومية تعرفونهم؛ فالواحد من أهل العلم والهمم العالية يبحث عن ساعة إضافية في اليوم كي يتقدم خطوة نحو أهدافه العظيمة، على حين أن معظم الناس العاديين ومن دونهم يبحثون عن شيء يملأون به الفراغ الضاغط على نفوسهم وعقولهم، ويبحثون عن شيء يقتلون به الوقت.

بعد هذا يمكن للواحد أن ينتهي إلى المقوله التالية: كل سلوك للإنسان، وكل شيء له علاقة به من وجه من الوجه، يدل على شيء من شخصيته وجوهره، ويرسل لنا إشارات واضحة حول ما خفي علينا من شأنه وأتجاهاته.

لا بد من الإشارة إلى شيء مهم، هو أن كل ما تتحدث به عن الإنسان يظل غالباً وغير مطرد؛ فالسنن هنا مرنة وغير حاسمة.

#### ٤ - وضع الفكرة موضع التنفيذ:

حين نفكر في مشروع - مثلاً - فإننا نستخدم الخيال والمعلومات المتوفرة، وما في ذاكرتنا من انطباعات عن مشروعات مماثلة قائمة، لكن لا بد من القول: إن أفكارنا عن آية مشروعات قادمة لا تكون أبداً كاملة؛ لأن لكل مشروع مكاناً وزماناً مختلفين عن مكان وزمان أي مشروع آخر، ويتبع هذا الاختلاف اختلاف في كثير من الحيثيات، ثم إن أي تفكير نظري يصطدم بمتى المواد التي سيتم استخدامها في المشروع، والمواد تشمل هنا كل ما يستخدم في التنفيذ حتى العمال والمدراء، فهم لن يتصرفوا كما يريد صاحب فكرة المشروع، كما أنه تطرأ حوادث كثيرة تعطي لبعض عناصر النجاح أو الفشل وزناً غير محسوب، كما لو كان المشروع عبارة عن إقامة (محطة وقود)، فإن تحويل الشارع الذي أقيمت فيه إلى طريق دولي يضج بالحركة قد يضاعف النتائج الإيجابية المتوقعة، كما أن فتح محطة وقود ممتازة إلى جانبها قد يؤدي إلى فشلها وبالتالي إغلاقها. حين يقدم شاب على الزواج، فإنه يرسم في ذهنه

صورة وردية ورائعة للحياة التي سيحياها مع زوجته، وبعد الزواج تدخل كل الأفكار في حيز التطبيق، ويظهر للشاب أنه يحب العديد من الأشياء التي لا تحبها زوجته، ويكره العديد من الأشياء التي تحبها، كما يظهر له حجم تكاليف قيادة أسرة وخدمتها مما لم يكن يتوقعه، وهذا كله يجعل الواقع مغايراً للصورة التي كان قد رسمها في ذهنه لحياته الأسرية.

إن وضع الفكرة في موضع التنفيذ يساعد على تطويرها من حيث:

- أ - اكتشاف ما فيها من إيجابيات ونقاط قوة، مما يدفعنا إلى التركيز عليها وتنميتها.
- ب - اكتشاف ما فيها من عيوب ونقاط ضعف تحتاج إلى تلافي ومعالجة.
- ج - الوقوف على تكاليف التنفيذ، والتي قد تكون أكثر أو أقل مما كنا نظن.
- د - اكتشاف ما لدينا من قدرة وموهبة في قيادة المشروعات وتحقيق الأحلام.
- ه - اكتشاف الواقع الذي نطبق فيه الفكرة؛ حيث إننا لن نعرف التسهيلات والعقبات والفرص الموجودة في ذلك الواقع إلا إذا بدأنا بالحركة فيه.

و - حين تنفذ فكرة ونحوها إلى مشروع نستطيع أن نقارن مشروعنا بمشروع آخر منافس له، ومن خلال المقارنة نطلع على الكثير من الميزات والكثير من أوجه القصور، أما المقارنة بين فكريتين، فهي في الغالب غير مفيدة، وأنت ترى أن كل دسائير العالم تشتمل على مبادئ وحقوق عظيمة ورائعة، ولا تبدو القوارق الحقيقة إلا إذا نظرنا إلى أوضاع الدول التي تملك أروع الدسائير.

الخلاصة من كل ذلك هي: أنه ما من فكرة تدخل حيز التنفيذ إلا وتعرض لشيء من التغير بسبب تفاعಲها مع التجربة الإنسانية واحتکاكها بالواقع، وفي هذا إنضاج عظيم لها.

#### ٥ - المقارنة بالأفكار والمشروعات الشبيهة:

المقارنة مصدر من أعظم مصادر تكوين الوعي البشري، ومن أعظم مصادر التعليم، وسيكون من المفيد جداً لمن كان لديه مشروع أن ينظر إلى الأفكار والمشروعات الشبيهة بما لديه، ويحاول إثراء أفكاره وخططه من خلال رؤية المفارقات والإضافات والاختصارات ووسائل التنفيذ وأسلوب العمل بين المشروعين... وفلسفة جدوى

المقارنة تقوم في الأساس على ما في المعرفة البشرية من توحد وعلى تشابه كثير من الخبرات في مختلف المجالات؛ وإليك مثالين لتوضيح ما أعنيه:

أ - لديك رغبة في كتابة بحث حول «الإدارة النموذجية للأسرة»؛ حيث تعتقد أن كثيرة من الآباء لا يقدرون أسرهم ولا يديرون شؤون بيتهم بطريقة جيدة، لا شك أن لديك بعض الأفكار في ذلك، لكن ليست كافية بسبب أن التنظير الأساسي للموضوع ليس في المجال التربوي، وإنما في المجال الإداري، لكن متطلبات إدارة الأسرة شيئاً مختلفاً عن إدارة مصنع أو شركة، فما وجوه الشبه بين إدارة شركة وإدارة أسرة، حتى تستفيد من المعلومات والمعطيات المتوفرة حول النجاح في إدارة شركة؟

لعل من وجوه الشبه الآتي:

- مدير الشركة أو المنشأة مسؤول عن سلامتها ونجاح خططها وكذلك رب الأسرة.
- مدير الشركة يتعامل في نشاطه اليومي مع بشر، هم موظفون وعمال ومستخدمون، وكل عمل رب الأسرة مع بشر.
- كل من قائد الأسرة ومدير المؤسسة يحتاج إلى شيء من الحزم في إدارته وإلى كثير من اللطف والتهذيب.
- مدير الشركة يحتاج إلى الوضوح في تعامله مع موظفيه وكذلك رب الأسرة.
- مدير المؤسسة في حاجة إلى أن يفهم أكثر وأكثر خلفيات موظفيه وحاجاتهم، ورب الأسرة مثله.
- مدير المؤسسة مطالب بتحقيق العدل بين موظفيه، ومثله رب الأسرة.
- مدير المؤسسة في حاجة إلى استخدام المكافأة والعقوبة في عمله، وكذلك رب الأسرة...

وجوه الشبه هذه توفر لنا خريطة لطبيعة المعلومات والأفكار التي سنقتبسها من قيادة مؤسسة ناجحة لقائد أسرة يريد أن ينجح.

ب - مجموعة من الشباب الخيريين يريدون القيام بحملة دعوية وإعلانية ضخمة لترسيخ فضيلة (الصدق) في نفوس الناس وفي سلوكهم؛ ولديهم بعض الأفكار في ذلك لكن أفكارهم بدائية، ويخشون من الفشل ثم الإحباط، أخذوا يبحثون عن

حملات مشابهة قامت بها بعض الجهات الحكومية، وقد عثروا على خطط العديد من الحملات، منها حملة قام بها المرور لإقناع الناس بأن يقودوا سياراتهم وفق قواعد السلامة، وحملة قامت بها وزارة الكهرباء من أجل إقناع الناس بترشيد استهلاكهم للكهرباء وحملة قامت بها وزارة الإسكان لتشجيع الناس على العيش في الريف من أجل تقليل حجم الهجرة إلى المدينة، وقد استقر رأيهم على القيام بدراسة مفصلة لحملة المرور، ومحاولة تلمس وجوه الشبه بين الحملتين كي يحصلوا على المعلومات والأفكار التي يحتاجون إليها، فما الذي يمكن أن يجدوه؟

قد يجدون الآتي:

- توقف نجاح حملة المرور على استجابة الناس وتفاعلهم، مما يعني أن القائمين عليها لم يكونوا متأكدين من النتائج التي يمكن أن يحصلوا عليها، وهكذا كل الجهد الإنساني الذي يبذل في ظل نظم مفتوحة، وهذا يعني أن الجميع في حاجة إلى التفكير في كيفية إقناع الناس بأهمية الخضوع لقواعد السير واستخدام المركبات بالأسلوب اللائق، وهدف حملة الصدق أيضاً إقناع الناس بقول الحقيقة واحترامها وتنفيذهم من الكذب والخداع.

- ما دامت الأهداف من الحملتين تمحور حول تغيير قناعات الناس وسلوكاتهم، فلنا أن نتوقع من القائمين عليهم أن يستخدموا وسائل إعلانية ودعائية واحدة، والتفاوت سيكون في وسائل الإيصال.

- التحدي الذي واجه حملة المرور هو وضع تصور للوصول إلى كل أولئك الذين يقودون سيارات داخل حدود الدولة، وقد كان إيصال الرسالة إلى الأمين وأولئك الذين يسكنون في المناطق النائية - محور ذلك التحدي. والمشكلة نفسها ستواجه القائمين على حملة الصدق.

- كثير من الناس لا يخضعون لقواعد المرور لأنهم يجدون تأويلاً شخصياً يظنون أنه يسُوغ لهم ذلك، فهذا يتجاوز السرعة القانونية؛ لأنه إن لم يفعل ذلك لم يسمحوا له بدخول قاعة الاختبار، وفي هذا ضرر بالغ عليه، وهذا لا يشد حزام الأمان؛ لأنه يرى أنه يسير داخل المدينة بيضاء، وبالتالي فإنه لا خطورة من عدم شده، وثالث يمشي عكس السير؛ لأن الوقت قبل الفجر، وليس هناك من يمكن أن يجده في وجهه...

القائمون على حملة الصدق سيواجهون نحوً من ذلك، فهذا رجل يكذب على زوجته في مرتبه؛ لأنَّه لو ذكر لها مرتبه الحقيقي، فإنَّها سوف تتمادي أكثر في الإنفاق، وستقوم بتبييض المرتب، وهذا كذب وقال مديره: إنه غاب أمس؛ لأنَّ إحدى قريباته توفيت، وذلك لأنَّه فقير، وحاله لا يحتمل خصم مرتب يوم، وهذا مدير مؤسسة يكذب ويقول لعماله: إنَّ المؤسسة قد خسرت السنة الماضية حتى لا يزيد لهم في المرتبات، وهو يعتقد أنَّ عدم زيادة الرواتب في صالحهم؛ لأنَّه لو زاد لهم فيها فقد يضطر إلى تسریع بعضهم من العمل، وفي هذا ضرر كبير عليهم...

- أدرك القائمون على حملة المرور أنَّهم في حاجة ماسة إلى أصدقاء وحلفاء من المجتمع من أجل الوصول إلى أكبر عدد ممكِن من الناس، ومن أجل مراقبة سائقين المركبات والإبلاغ عن مخالفاتهم، وإنَّ القائمين على حملة الصدق في حاجة إلى أعداد كبيرة من المتطوعين حتى يتمكُنوا من مخاطبة أكبر عدد ممكِن من الأشخاص.

- أدرك القائمون على حملة المرور أنَّ حملة واحدة لا تكفي، وأنَّه لا بد من حملات تشبيطية سنوية أو كل سنتين، والظاهر أنَّ القائمين على حملة الصدق في حاجة إلى الشيء نفسه؛ لأنَّ الناس ينسون، ويغفلون، ولا بد من استمرار تذكيرهم وتوعيتهم.

- ما دام القائمون على الحملة المرورية والقائمون على حملة الصدق يحاولون إقناع الناس بشيءٍ ما، فإنَّهم جميعاً معروضون للوقوع في سلبيَّة المبالغة، أي تجاوز الحقيقة وتضخيم فضائل الصدق وفضائل الالتزام بقواعد المرور وتعليمات رجاله، وكذلك المبالغة والتهويل في سلبيات الكذب وفي سلبيات خرق القواعد المرورية، وإنَّ سلبيَّة الوقع في المبالغة معروض لها الدعاة والمتحدثون ومندوبي المبيعات والمسؤولون عن التسويق والحملات الإعلانية.. حين ندرك وجوه الشبه بين مشروعنا والمشروعات التي سبقتنا فإنَّا نستطيع حيثُّنا أن نثري مشروعنا بخبرات عظيمة، ونستطيع أن ندرك أيضاً وجوه المفارقة، وما يشكُّل خصوصية مشروعنا، وكلُّ من هذا وذاك ضروري جدًا لتحقيق النجاح.

#### ٦ - عصف ذهني جيد ووازن:

العصف الذهني قديم في مضمونه حديث في أساليبه وأدبياته؛ فالناس منذ قديم

الزمان يجتمعون حل مشكلة اعترضتهم، أو لتدبير مؤامرة ضد عدو... العصف الذهني نوع من تحريض الدماغ على العمل من أجل توليد فكرة أو تطويرها أو من أجل إيجاد مشكلة لخصم أو منافس... للعصف الذهني أساليب كثيرة تصل إلى ما يزيد على مئة أسلوب، واليابانيون أكثر الشعوب تفتنا في العصف الذهني. المدعون ينظرون اليوم إلى العصف الذهني - ولا سيما الجماعي منه - على أنه أفضل وسيلة مجانية متاحة لتطوير الأفكار، ومبادئه التي يقوم عليها ليست كبيرة، ولعل أهمها أربعة:

- الأول: تأخير التقييم لأي فكرة تُطرح إلى حين انتهاء جلسة العصف الذهني.
- الثاني: إطلاق حرية التفكير وتحفيز الحاضرين على أن يقولوا كل ما لديهم، وكل ما يخطر في بالهم، ولو كان تافهاً جداً أو كان مستحيل التطبيق.
- الثالث: الكم قبل الكيف؛ حيث إن المطلوب من المشاركين في العصف، هو أن يقدموا أكبر عدد ممكن من الأفكار والمقترحات وليس أفضل شيء منها.
- الرابع: لا يشترط في أي فكرة تطرح أن تكون جديدة كل الجدة؛ فقد تكون عبارة عن تحرير جزئي لفكرة موجودة أو تكون تفريغاً عليها.

لا بد لنجاح تطوير فكرة عن طريق العصف الذهني من الآتي:

- أن تكون الفكرة التي لدينا واضحة تمام الوضوح ومحددة على نحو جيد، ولا بأس عند الشك والتrepid من تعريفها بأكثر من تعريف وصياغتها بأكثر من طريقة؛ لأن الفكرة التي لدينا هي المحور التي سيدور حولها العصف الذهني، وعلى سبيل المثال: إذا كان العصف يدور حول تساؤل يقول: «هل أمتنا في حالة تقدم أو تأخر؟»، فإن المطلوب أولاً هو تعريف التقدم والتأخر، وإلا فإن نتائج العصف ستكون مشوشة ومحيبة للأمال.

- الثقة بأن العصف الذهني يساعد فعلاً على توليد وتطوير الأفكار، وإذا رجعنا إلى التاريخ وجدنا عدداً كبيراً جداً من الأفكار والمشروعات التي طورها أشخاص، لا تُعرف عنهم عبقرية نادرة أو تفوق ذهني خارق، لكن كانوا يملكون ثقة عظيمة بأنفسهم ونظرة إيجابية قوية لذواتهم. إن النظرة الإيجابية للذات تحرض الدماغ على

بذل جهود استثنائية، كما أن التفاؤل بإمكانية الحصول على شيء قيم يبعث في الإنسان روح الاستمرار والصبر على معاناة التفكير.

- إعطاء العصف الذهني الوقت الكافي؛ حيث إن كون التفكير شأفاً على الفوس، يدفع بالناس إلى تقصير مده إلى أقل قدر ممكن، وهم يشعرون بنضوب معنـى أفكارهم قبل الأوان. لا بأس بفترات للراحة أثناء العصف الذهني والجماعي، والانصراف بعد كل (٢٥ دقيقة) من التفكير إلى التحدث في أمور بعيدة جدًا عن موضوع العصف أو تناول شيء من الطعام والشراب؛ فالدماغ يتعب كما يتعب البدن؛ بل على نحو أسرع.

- الناس يستوحوشون في العادة من التفرد بالرأي، ويشعرون ضمـنـا بمحاسن التوافق مع الآخرين، وهذا مضاد تماماً لجواهر العصف الذهني؛ لأن الهدف من العصف الذهني، هو توليد أكبر قدر ممكن من الأفكار المختلفة، ولهذا قلنا: إننا لن ننظر إلى قيمة الفكرة المقدمة في جلسات العصف، فـهـمـنا الأسـاسـيـ هو الحصول على أكبر عدد ممكن من الأفكار واللاحظـاتـ العلمـيةـ.

- بعد الشعور بالنضوب النام للأفكار والتي تم تسجيلها على نحو واضح، تبدأ مرحلة الفرز للأفكار والتأمل فيها، ويمكن تقسيم الأفكار إلى الآتي:

- أفكار مفيدة، ويمكن الاستفادة منها عملياً في تطوير المشروع الذي كان مدار العصف الذهني.

**ب** - أفكار مفيدة، ولكنها غير قابلة للتطبيق المباشر؛ لأنها تحتاج إلى مزيد من البحث أو إلى توفير إمكانات غير متوفرة الآن، أو لأن الاستفادة منها تتوقف على موافقة جهات أخرى.

**ج** - أفكار غير عملية وغير قابلة للتطبيق؛ فيتم إلغاؤها وسحبها.

- العصف الذهني يمكن - كما أشرنا - أن يقوم به شخص بمفرده، ويمكن أن تقوم به مجموعة من الأفراد، وهذا أحسن، لكن إذا زاد عدد الأفراد على عشرين، فإنه يستحسن تقسيمهم إلى مجموعات متعددة.

## المَخَاتِمَة

الحمد لله الذي بنعمته تم الصالحات، والحمد لله الذي هدى إلى هذا العمل  
بلطفه وأعان على إنجازه بكرمه و معروفة ...

لم يكن التصدي لقضية تكوين المفكر بالأمر اليسير؛ حيث إن من المعروف أن المفكر يتكون بطريقة تلقائية وغير مقصودة؛ فالباحث من خلال جهوده الحثيثة في القراءة والتأمل والبحث والكتابة والخوار يصبح مع الأيام صاحب رؤية خاصة وطرح متميز، وليس هناك أي آلية واضحة ومفتوحة للوصول إلى ذلك، لكنني أردت من خلال هذا العمل أن أتباه بأسلوب غير مباشر وعي طلاب العلم والمتخصصين المبتدئين في مختلف المجالات إلى أهمية ما يشتغل عليه المفكرون من العناية بإصلاح الشأن العام ومحاولة فهمه وتحليل أساليبه والعمل على الارتقاء به، وأنأ أعرف أنك حين تحاول شق طريق جديدة في صحراء متراصة الأطراف، فإنك قد تكون قمت بمعامرة كبيرة لا تعرف بالضبط نتائجها، والتي قد تكون مخيبة للأمال، وقد تشعر أنك قمت بعمل جيد تنتفع به الأجيال، هذا وارد وهذا وارد؛ ولهذا فإن كثيراً من عباراتي كان يتشعّب بواسطه الاحتمال، كما أنه آثرت الطرح اللين والبعيد عن الجزم والصرامة، وهذا مع أنه يُظهر الكاتب وكأنه غير واثق من منهجه، فإنه سيظل أفضل من القطع وتقدم المفاهيم على أنها ناضجة ونهاية، وقد حاولت تبسيط أسلوب المعالجة إلى أقصى حد ممكن، وأكثرت من الأمثلة، وحاولت أن أوصل الفكرة الواحدة بأساليب متعددة، وذلك من أجل تمكين أكبر شريحة من القراء من الانتفاع بهذا الكتاب.

إنني من خلال العديد من العناوين حاولت تأسيس منهج لفهم الواقع يقوم على ما لدينا من خبرة بطبع الأشياء ومعرفة بسنن الله في الخلق، وذلك من أجل تخفيف الضغط عن المعلومات في محاولاتنا الدائبة لفهم ما يجري من حولنا، ومن أجل سد الفراغات المعرفية التي لا تخلو منها حالة من الحالات أو وضعية من الوضعيات...

ولاني لأسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن يتقبل هذا الجهد بقبول حسن،  
وأن ينفع به شباب الإسلام ويجعله في موازين حسناتي، يوم لا ينفع مال ولا بنون،  
إنه سميع مجيب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

\* \* \*

## مراجع مختارة



- الأصول الفلسفية للتربية، هارولد أوزمون، صموئيل كرافر، ترجمة: د. بدر ابن جويعد الحربي، الرياض، مكتبة الرشد، طبعة أولى، عام (١٤٢٦هـ).
- الإنسان والمعرفة في عصر المعلومات، تأليف: كيت دفلين، تعریف شادن الیافی، الرياض، مكتبة العیکان، طبعة أولى، عام (١٤٢٢هـ).
- تعليم التفكير، تأليف: إدوارد دي بونو، ترجمة: د. عادل ياسين وزميله، الكويت، مؤسسة التقدم العلمي، طبعة أولى، عام (١٩٨٩م).
- التفكير العلمي، د. فؤاد زكريا، الكويت، سلسلة عالم المعرفة (١٩٧٨م).
- التفكير المستقيم والتفكير الأعوج، تأليف: روبرت هـ. ثاولس، ترجمة: حسن الكرمي، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، عام (١٩٧٩م).
- التفكير النقدي، د. فادية الفقیر، مقال منشور على (الإنترنت).
- ثلاثون عادة عقل، تأليف: د. يوسف قطامي، نشر ديبو نو للطباعة والنشر، الأردن، عمان، عام (٢٠٠٥م).
- درس الحقيقة، بقلم: محمد الهلالي، مقال منشور على (الإنترنت).
- الدماغ... كيف يفكر، بقلم: نبيل حاجي نائف، مقال منشور على (الإنترنت).
- رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر، د. عبد الوهاب المسيري، القاهرة، دار الشروق، طبعة ثانية، عام (٢٠٠٦م).
- عقبات على طريق التفكير النقدي، بقلم: فهد بن راشد المطيري، مقال منشور على (الإنترنت).
- فصول في التفكير الموضوعي، تأليف: د. عبد الكريم بكار، دمشق، دار القلم، الطبعة الخامسة، عام (٢٠٠٨م).
- ما العقل؟ بقلم: جمال الخطيب، جريدة الحوار المتمدن الإلكترونية، العدد (٢٢١٩)،

عام (٢٠٠٨ م).

- ما فائدة تدريس الفلسفة؟ بقلم: عبد الجليل الكور، مقال منشور على (الإنترنت).
- مدخل إلى التنمية المتكاملة، بقلم: د. عبد الكريم البكار، دمشق، دار القلم، الطبعة الثالثة، عام (٢٠٠٦ م).
- المعرفة والتجربة عند ديفيد هيوم، إنصاف أحمد، دمشق، وزارة الثقافة السورية، عام (٢٠٠٦ م).
- المفاهيم معالم، د. محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، طبعة أولى، عام (١٩٩٩ م).
- من هو المثقف؟ بقلم: د. خالص جلي، مقال منشور على (الإنترنت).
- مفهوم الحقيقة بين الحداثة وما بعدها، بقلم: د. توفيق شومر، مقال منشور على (الإنترنت).
- النقد والوعي الاجتماعي، بقلم: محمد محفوظ، مقال منشور على (الإنترنت).

\* \* \*

## فهرس الأفكار والمقولات العامة

- المثقف الحقيقي هو: من حمل الحقيقة في وجه القوة.
- الفلسفة تلبي حاجات العقل، أمّا العلم والاختراع؛ فإنّهما يلبيان حاجات مختلفة للناس.
- يحاول العالم حل المشكلات المعرفية والعلمية التي تصادفه في عمله، أمّا الفيلسوف؛ فإنه يثير المزيد من المشكلات، ويسلط الضوء على التناقضات في الحياة العامة.
- يتبوأ المفكر منزلة ثقافية وعقلية، هي فوق منزلة المثقف، ودون منزلة الفيلسوف.
- كل فيلسوف مفكر، وليس كل مفكر فيلسوفاً، وكل مفكر مثقف، وليس كل مثقف مفكراً.
- إن فضل الإنسان يعود في النهاية إلى استقامته الشخصية، ومدى مساهمته في الارتقاء بأمته.
- المرأة في نهاية المطاف ليس شيئاً أكثر من اهتماماته ومهامه وأخلاقه.
- اكتشاف القوانين، وبلورة الرؤى، والتقطّع الملاحظات الذكية، هو أعظم ما يثير مباحثة المفكرين.
- يمتلك المفكر قدرًا هائلاً من الأمل المتجدد في العثور على شيء جديد.
- طريق المفكرين يبدأ بالبحث، وينتهي بالتفاني في البحث.
- كل مفكر نسيج وحده، وهو يختلف مع غيره؛ لأنّه في الأصل يختلف مع نفسه.
- المفكر في نمو مستمر، بسبب ما يقوم به من كسر متواصل لانساقه الفكري.
- ليس للعالم والمفكر أن يجهر للناس بقناعاته القديمة، ويُخفّي في نفسه قناعاته الجديدة إلا في أحوال قليلة ودقيقة.

- يحرص الفكر على صوغ مقولاته بدقة متناهية؛ لأنه يعرف أن هناك ألوان الشباب الذين يتلقفون كلامه ويفسرونه على نحو حرفي.
- الانعتاق الشجاع من تأثيرات البيئة المحلية، هو الذي يهدى الطريق للمفكر كي ينتقل من المحلية إلى العالمية.
- يفقد العالم الذكي ثقة الناس كما يفقد استحقاق اسم مفكر حر، حين يجعل نفسه بوقاً لأي جهة أو سلطة.
- تصبح طروحات المثقف فجة ومضحكة، حين يمنح العصمة لغير معصوم، ويجد نفسه للدفاع عن أنحطائه وموافقه.
- مع أن قوة الذاكرة نعمة عظمى من الله - تعالى - إلا أن على المرء أن يحذر من الوقوع تحت سطونتها، فهي بطبيعتها تنفر من التفكير والإبداع.
- من المهم أن نترك بيننا وبين ما نحفظ مسافة، كما يفعل الذي يحاول الاعتراف من الماء دون أن يبلل ثيابه.
- الرؤية النقدية للماضي والحاضر، والانطلاق من أن معظم ما لدينا من معارف يتحمل المراجعة والتجمیص؛ هو الذي يجعل علاقتنا بالذاكرة متوازنة.
- على المشغلين بالفکر الافتتاح على النصوص والتراث عامه، وعلى المشغلين بالحفظ، الإصغاء لما يقوله المفكرون.
- الانطلاق من الجزئي إلى الكلي، ومن ضيق النظرة إلى اتساع الرؤية - من أهم ما يفرق بين الشخص والمفكر.
- العبور من أهم ما يشتغل عليه المفكر، إنه يعبر تخصصه الضيق إلى فضاء المعرفة الأرحب كما يعبر رؤيته للواقع من أجل استشراف المستقبل.
- يحاول المفكر عبر معرفته بالسن أن يقف على ما لا يمكن لصاحب التخصص أن يصلحه عن طريق تخصصه.
- يرى المفكر الجزئي في ضوء الكلي، ويدرك أنه ليس هناك مجال مستقل بنفسه.
- يبني المفكر على منجزات أسلافه؛ ولهذا فإن كل المفكرين العظام يترددون كثيراً قبل القول: إنهم يسلكون طريقاً لم يسلكه أحد من قبل.

- من المهم للمفكر أن يتلزم التزاماً صارماً بالقيم العليا؛ مثل: قيم الخير والحق والجمال.
- الفكر المسلم هو مسلم أولاً ومفكر ثانياً؛ أي أن عقله يعمل في إطار مبادئه ومعتقداته الكبرى، وهذا يشكل فارقاً جوهرياً بينه وبين المفكر العلماني أو اللاذيني.
- ما كان يتغير بغير الزمان والمكان جاء في الشريعة مجملأً؛ كي يجد العقل مجالاً للاجتهداد.
- بيئة الإنسان وتقاليده ودياناته وجنسه، تسهم في تشكيل دماغه عبر ما ترسمه فيه من أحاديد، وما تُحدثه من وصلات بين خلاياه.
- كلما درَّبَ الإنسان نفسه، وأجهد دماغه بالتفكير زاد عدد الوصلات الدماغية، وهذا يؤدي إلى رفع درجة الذكاء، وتحسين الاستيعاب؛ والعكس صحيح.
- حين ننظر في مداولات العلماء حول الدماغ لا نملك إلَّا أن نقول: « هذا خلق الله، فأروني ماذا خلق الذين من دونه ».
- الدماغ ليس هو العقل؛ لكنه العضو الذي يتواصل العقل من خلاله مع الجسم البشري.
- العقل عقلان: أول وثاني، وإن العقل الأول هو مجموعة الإمكانيات والاستعدادات، والمبادئ الأولية التي زُوِّد بها الخالق - سبحانه - بني البشر.
- كل واحد من الناس الأسوبياء يملِك مبادئ أساسية، تتمحور حولها البنية الفكرية لديه، وهي لا تختلف باختلاف اللغات، والأديان، والأعراق...
- عقولنا عبارة عن مفاهيم ومبادئ وأفكار، وملحوظات، ومشاعر تتشكل على نحو عام من واردات الحواس: السمع والبصر والذوق والشم واللمس.
- نحن نكتشف الوجود على سبيل التدرج؛ فالطفل يظن أن كل السوائل التي لا لون لها يمكن أن تُشرب، ثم يكتشف مع الأيام أن الأمر ليس كذلك، وهذا يلزمنا إلى آخر الحياة.
- يتكون عقل الإنسان من خلال بناء المزيد من البنى الفكرية، ومع كل بنية فكرية جديدة يحدث نمو محاور ومشابك جديدة داخل الدماغ، وبذلك ينمو الدماغ مع الفكر.

- نظر علماً علينا القديمي إلى العقل على أنه أداة لإرشاد صاحبه إلى الطريق القويم، كما نظروا إليه على أنه أداة للانضباط الذاتي.
- حين نغض الطرف عن دور العقل في الارقاء بالسلوك الشخصي؛ فقد يصبح لدى الأمة الكثير من الأذكياء والمبدعين، والقليل من الحكماء، وأرباب البصيرة النيرة.
- من الصعب أن نجد مفكراً كثيراً لا يهتم بالحصول على درجة عالية من الوضوح لكل المسائل التي يعمل على معالجتها.
- إن لكل شيء وجودين؛ وجوداً مادياً ووجوداً معنوياً، وهو الصورة الذهنية التي رسمناها عن ذلك الشيء في عقولنا، وكثيراً ما يفتقران إلى التطابق.
- حين يسود الجهل ويختيم الحمود العقلي؛ فإن كثيراً من الناس يتلقون الآراء الشخصية لأهل العلم على أنها حقائق قطعية ثابتة.
- تركيز البحث والفهم في موضوع صغير يساعدنا على فهمه بشكل جيد، لكنه يحرمنا من فهم الامتداد المعرفي لذلك الموضوع، وفهم العلاقات التي تربطه بالموضوعات القرية منه.
- لا معنى للبحث عن الحقيقة إذا لم نعرف بها عند العثور عليها، ولا معنى للعثور عليها إذا لم نغير من أوضاعنا بما يتلاءم معها.
- لنتعرف بالحقيقة، والحقيقة تحررنا من أشياء كثيرة؛ منها الوهم، وخداع النفس، ورؤيا الأشياء على غير ما هي عليه.
- الحقيقة تحررنا بشرط أن نقبل تحريرها وإنما زادتنا خيالاً واضطراباً.
- كثيراً ما ينظر الناس إلى الحقيقة الواحدة من آفاق متباعدة؛ فعلى حين ينظر المسلم إلى (العسل) و(الحبة السوداء) من أفق النصوص الواردة فيهما، ينظر إليها غير المسلم من أفق التحليل الكيميائي لهما.
- يختلف النظر إلى الحقيقة من زمان إلى زمان؛ فقد كان الناس في الماضي ينظرون إلى الأزمات والمعوقات على أنها شر خالص؛ أما نحن فننظر إليها على أنها محرض على التقدم وفرصة للمراجعة.
- ما دامت الحقائق تتلون بحسب المنظور الذي نراها من خلاله، فإن علينا أن

- نتحاور في بعض المسائل، كما لو كنا أمام حقائق متعددة.
- المفكر إنسان أسلس له القياد كثير من العقول؛ ليقدم لها الرؤية والفكمة، وهذا يحتمله مسؤولية قول الحقيقة كاملة، والدقة في التعبير عنها.
  - حين نسيّس الحدث أو الواقع أو الفعل؛ فإننا ننظر إليه بعيون العاطفة أو عيون المصلحة، وكلا النظريتين بعيد عن الموضوعية.
  - حين يفشو تسييس الحقائق في مجتمع تبعث في نفوس الناس مرارة شديدة، وتتعرض القاعدة الشعبية العريضة إلى شرخ خطير.
  - بعض التفكير يكون عميقاً؛ لأنه عبارة عن تحريك للهموم والماجع ليس أكثر.
  - الإنسان كائن ناطق، وحين لا يجد من يتحدث معه، يتحدث مع نفسه، والمحادثة مع النفس لون من التفكير.
  - التفكير المنتج هو عمل ذهني، لتجاوز ما هو معلوم إلى ما ليس معلوماً.
  - التفكير الجيد لا يكون من غير معلومات جيدة يستخلص منها الدماغ ما يحتاج إلى معرفته، وهو يشبه عملية خض اللبن، فإذا كان اللبن متزوج الدسم، فإن الخض لن يأتي بالزيد.
  - النموذج الذي نبنيه في عقولنا لشخص أو حالة... هو عبارة عن صورة نرى من خلالها ذلك الشخص وتلك الحالة، أو هو خريطة معرفية نزعم أنها تحكى الواقع.
  - إنما كان طرح الأسئلة مهمّاً؛ لأنه يفتح طرقاً جديدة للتبصر، ويكسر الاتساق المصطنع للثقافة.
  - السؤال الكبير يشبه حجراً كبيراً نلقيه في بحيرة صغيرة، والسؤال الصغير يشبه حجراً صغيراً نلقيه في بحيرة كبيرة.
  - إن سؤالاً واحداً قد يفجّر من المعرفة ما لا يفجره ألف جواب.
  - إن كل واحد منا يحمل فوق كتفيه منجماً لأفكار لا تقدر بثمن.
  - تنسم العواطف، والأحساس بالفوضى والمفوض، وبالقليل من المنطقية والعقلانية.
  - العواطف هي مكمن الذات الإنسانية، والإنسان لا يكون إنساناً على مقدار

- ما لديه من أفكار، ولكن على مقدار ما لديه من مشاعر.
- نحن نشعر أولاً ثم نفكر.
  - نحن نشعر في حدود إدراكنا، وبما أن إدراكنا للأشياء محدود؛ فإن مشاعرنا كثيراً ما تبني على معطى ناقص وحسين.
  - الأفكار تولد المشاعر وتوجهها، كما أنها تغيرها وتطفئها أيضاً.
  - علينا أن نحذر كل الحذر من الأفكار اليائسة والمحبطة؛ لأنها تملك دائمًا القدرة على توجيه مشاعرنا الوجهة الخاطئة.
  - تأثير الانفعال والوجدان في السلوك والتعلم والمحاكمة العقلية أكبر بكثير من تأثير الأفكار في المشاعر.
  - إن العاطفة تجعل من نفسها ما يشبه الغشاء أمام عيون العقل.
  - الذين لديهم نوع من الجمود العاطفي تكون أفكارهم أقرب إلى التصلب.
  - إحساس المرء بالمرح والسعادة يساعد على الوصول إلى أفكار جديدة ومبدعة.
  - نحن حين لا نملك القدر المطلوب من المعلومات نتعاطف حيث لا ينبغي التعاطف، وتنفر حيث لا ينبغي النفور.
  - يتكون تاج نعم الله على عباده من الإيمان والعقل والقدرة على الكلام.
  - إن النظام اللغوي نظام نام على نحو مستمر؛ ولهذا فإن سيطرتنا على اللغة هي دائمًا سيطرة غير كاملة.
  - إن اللغة تمارس نوعاً من العنف ضدنا، ونحن أسرى لنظمها وإملاءاتها.
  - اللغة فضاء مملوء بالرموز والدلائل، وسوف نجد أنفسنا تائهين فيه ما لم نعمل على تحسين مستوى التعبير والفهم لدينا على نحو مستمر.
  - اللغة هي التي تتيح لنا فرصة الوعي بأفكارنا، ولو لاها لكان ما في عقولنا عبارة عن خليط من التهريمات الغامضة.
  - منطقية الأفكار وترتبطها بجعل استدعاءها من الذاكرة أيسر وأسهل.
  - إن الطفل في شهوره الأولى يرى العالم من حوله، لكنه لا يبصر شيئاً، وحين

- يبدأ باكتساب الكلمات يبدأ العالم أمامه بالتمايز، ويبدأ عقله بالاشتغال.
- التفكير بدون كلمات محاولة عديمة المعنى؛ لأن الكلمة تمنع الفكرة وجودها الأسمى والأوضح.
  - اللغة ترسم لتفكيرنا حدوداً، لا يستطيع تجاوزها؛ فنحن لا نستطيع أن ننتج من الأفكار إلا بقدر ما تسمح به اللغة التي نستخدمها.
  - إن الجهل باللغة من أكبر العقبات أمام تجسد الموهبة؛ بل إنه يُفقرها، و يجعلها أشبه بالعدم.
  - كيف يمكن للمرء أن يدرك حجم الحرية في بلده، وهو لا يعرف بالضبط ماذا تعنيه الحرية؟
  - اللغة ليست عبارة عن رموز ومواصفات فنية لقدرتنا على النطق؛ وإنما هي أسلوب وتصور، وطريقة نظر إلى الحياة والأحياء.
  - يقيّم عقل الفرد نوعاً من الحوار مع عقل المجموع، وحين تكون الإمكانيات العلمية محدودة لدى الأفراد؛ فإن ذلك الحوار يضعف إلى حد العدم، وتكون السيطرة للعقل الجماعي.
  - كلما كان التباين بين وعي الفرد ووعي مجتمعه أكبر، كانت الفرصة للتغيير والتحرر أعظم.
  - يعني العقل الجماعي - على نحو عام - من السطحية، كما أنه ينفر من التحليل والتفصيل والتألسف.
  - الأفكار والمفاهيم الأكثر سهولة وسطحية هي التي تحظى بنصيب الأسد من الذيع والانتشار.
  - لا يكون التيار العريض في المجتمع هو التيار الأكثر علمًا أو نضالًا أو صلاحًا.
  - كلما كانت سيطرة الجهل على المجتمع أشد، كان خوف العقل الجماعي من شذوذ العقل الفردي عنه أقوى وأعظم.
  - القصور الذاتي هو الذي منح الفرصة للغرب كي يسيطر علينا، ولا سبيل للتخلص من تلك السيطرة إلا بالتخلص من ذلك القصور.

- تمنع الجماعات الإسلامية نوعاً من الفداسة للعمل الجماعي، وهذا يدفعها إلى الاستهانة بإنجازات الأفراد.
- أنا لا أقلل من أهمية أي ترابط جماعي، ولا أهون من قيمة أي إنجاز لأي جماعة، لكنني أنظر إلى العمل الجماعي على أنه مجرد وسيلة، ليس أكثر.
- من المهم أن ننظر إلى علاقة وعي الفرد بوعي المجتمع على أنها معقد من معادد الابتلاء، والعلاقة الناجحة هي التي تكون حية ومتغيرة.
- كثيراً ما تكمن ميزة المفكر في قدرته على بلورة وعي فردي مستقل يمكنه من اتخاذ موقف متباين مع الموقف الاجتماعي العام.
- بعض الناس يرفضون على نحو خفي أي مقارنة لمجتمعاتنا بالمجتمعات الأخرى حتى لا نقف أمام المرأة، ونرى ما لا يسر.
- الصدق مع الله - تعالى - ومع النفس يلي علينا أن لا نلتقي على المعطيات التي لا تعجبنا؛ بل نرضخ لها، ونستفيد منها.
- إن الخالق عَزَّلَهُ قد زوّد كل واحد منا بإمكانات كافية؛ ليبدع في موقف من المواقف أو مجال من مجالات الحياة.
- من المهم أن نتحدث عن الإبداع على أنه شيء موجود وقابل للتنمية والتعزيز.
- الإبداع هو الحجيء بشيء غير مسبوق، والوصول إلى نتائج لم تكن معروفة من قبل.
- قد يبدع شخص ما في إضفاء لمسة وفاء على علاقته بأحد أصدقائه، وقد تبدع امرأة في تنظيم أثاث بيتها، وقد يبدع متحدث في تقديم محاضرة أخاذة...
- تكمن مسارات الإبداع الأساسية في نقد الأفكار القديمة، وفي تقديم أفكار جديدة وإضافة تفاصيل للمعلومات السابقة في أمر من الأمور...
- لا يصبح الإنسان مفكراً بمعنى الكلمة إلا إذا كان فعلاً يمارس الإبداع في صناعة الأفكار وإنتاج المفاهيم الجديدة.
- الثقة بالإمكانات الذاتية شرط لوضع القدم على طريق المبدعين.

- تتيح نظرية (الذكاءات المتعددة) مجالات واسعة أمام الناس كي ييدعوا في شتى جوانب الحياة.
- الفكرة البدعة لا تكون في الغالب عبارة عن ومضة ذهنية، وإنما تكون أشبه ببنية عزيزة، حظيت بسقاية ورعاية وحماية حتى اشتدت، وكمل نموها.
- الإنجازات الكبرى في تاريخ البشرية مدينة للعمل الدؤوب مدة طويلة.
- إن من ثمن الإبداع سلوك الطرق الموحشة، والمجيء بأفكار قد لا تكون مستساغة لدى عامة الناس.
- العاديون من الناس يسألون: من أين نبدأ وأين الطريق؟ أما الرواد والمبدعون فيعلمون أنه ليس أمامهم طريق، فخطاهم هي التي ستشق الطريق.
- المعرفة هي عتاد العقل، وإن الذكي جداً قد يجد أشبه بالأبله حين يفكر في موضوع ليس لديه أي خلفية عنه.
- معظم الناس لا يدعون بسبب افتقادهم للرغبة في ذلك، وبسبب الأوهام التي تحجبهم عن رؤية ما يمكن أن يدعوا فيه.
- طريق الإبداع هو طريق العمل والجهاد، وهو طريق طويل، وغير ممهد؛ ولهذا فإن السير فيه يتطلب دوافع قوية جداً.
- إن الجناحين اللذين يحلقُ بهما المرء في سماء الإبداع؛ هما الاهتمام والتركيز.
- إن الفرق بين الأوضاع الحضارية للعالم اليوم وبين ما كان قبل مئة سنة كبير جداً، وهو من صناعة ملايين المبدعين الكبار والصغار.
- المدرسة الريحية والجامعة المتأكلة تخفض سقف الطموحات لدى طلابها؛ بل تدفع بهم في طريق القنوط.
- إن الإبداع لا يحتاج إلى تحصيل علمي رفيع بقدر حاجته إلى أن يتجاوز المرء الاهتمام بالحفظ، والنجاح في الاختبارات إلى ممارسة الفهم، والتحليل، والاستبطاط، والتوظيف الجيد للمعرفة.
- طريق المعالي مفروش بالأشواك، لكن نهايته سعيدة وعظيمة ومشرقة.

- المبدع إنسان لمّا حاول التقاط الأفكار العابرة، والإشارات السريعة التي تصدر من هنا وهناك.

حين تهتم بما ينظر إليه غيرك نظرة استخفاف؛ فإنك تكون من المؤهّلين للسير في طريق المبدعين.

- النقد في جوهره مجموعة من العمليات الذهنية التي تستهدف تقييم بعض الحقائق والمعلومات والأفكار، وتمييز ما فيها من خير وحق وجمال عما فيها من شر وباطل وقبح.

- الناقد الجيد يعمل على توضيح الفارق بين ما عليه الأشياء الآن، وبين ما ينبغي أن تكون عليه في المستقبل.

- هناك عوامل كثيرة تؤدي إلى وجود مفارقات بين التنظير والتطبيق، وإن الكشف عنها من مسؤولية الناقد.

- امتلاك عدد كبير من الأفكار، واللاحظات حول الواقع وجذوره، وما يمكن أن يؤتى به... من أهم ما يفرق بين العالم والمفكّر.

- المفكّر يقوم بدور الجراح حين يحاول استئصال المفاهيم الخاطئة في المجتمع؛ وهو لذلك في حاجة إلى البرهنة على أنه يملك مساحة فاصلة بين وعيه ووعي مجتمعه.

- كثيراً ما يكتسب الإنسان أهميته من أهمية الأشياء التي يقوم بإنجازها.

- يحاول المفكّر إحياء روح المبادرة بالخطوات الصغيرة؛ وذلك لمعرفته بأن زمان القادة العظام الذين يغيرون مسيرة التاريخ قد انتهى.

- المشكل هو أن معظم الناس لدينا يميلون إلى إطلاق العبارات النقدية دون تدقيق في معانيها، ودون القدرة على البرهنة على صحتها.

- إن شكر الله - تعالى - على ما أنعم به من وعي مت فوق وذكاء متقد، كثيراً ما يتجلّى في كشف الزييف والانحراف في الحياة العامة.

- الشعور بالمسؤولية؛ هو ذلك الشعور النبيل الذي يحول الصغير إلى كبير والهامشي إلى محوري.

- المرء ليس محاسبًا على ما يقول فقط؛ بل هو محاسب على ما لم يقله إذا كان لا بد من أن يقوله.
- من ركائز العقلية النقدية، تلك القدرة الباهرة على تحديد ما هو عادي وطبيعي وتقييده بما هو شاذ وغير مأثور.
- إن طرح الأسئلة حول أي شيء نزيد فهمه ونقدّه، يشكّل أداة نقدية مهمة للغاية.
- دلالة الأرقام على الظواهر الكبرى دائمًا ظنية، ويشوبها شيء من النقص.
- من الواضح أنه ليس هناك أي علاقة بين الموروث الحيني للإنسان، وبين الرغبة في القراءة، وإنما يعود الأمر إلى التربية.
- يشكّل الفقر سبباً ثانوياً للإعراض عن القراءة؛ حيث تدل الشواهد الكثيرة على أن كثيراً من الأثرياء لا يقرؤون.
- إذا تعلمنا كيف نسأل، فإننا سنجد في التساؤل محفزاً قوياً للخيال كي يعثر على بعض الأجوبة.
- الفموض والإبهام متصلان بنقص المعرفة أو نقص الإدراك، أو بهما معاً.
- ستظل التعريفات قابلة للتحجّر والانتقاء.
- من المؤسف أن ما يُكتب في الصحف اليومية كثيراً ما يعبر عن أهواء وتحيزات، ومن المؤسف أكثر أنه سيصبح يوماً ما جزءاً من تاريخ هذه الأمة!
- يشكّل الخطيب الثقافي الذي نعيش فيه أكبر عائق أمام نضج الوعي وممارسة النقد.
- الوعي النقدي مهما كان يقتضاها وعظيمها إلا أنه في النهاية يظل - إلى حدٍ ما - مؤطراً بحدود البيئة والمجتمع والثقافة.
- نحن مع الحميمة للثقافة والتاريخ، لكن الحمية من غير نقد ومراجعة قد تفضي بالثقافة وأهلها إلى المزيد من الانحطاط.
- هناك حقيقة ساطعة، هي أنه حين تشتد رغباتنا، وتتسع دوائر مصالحنا، يخفت صوت عقولنا.

- من المهم أن يسعى المفكر إلى أن يكون في وضعية لا تحمله على قول الباطل إن لم يستطع قول الحق.
- لن نحصل أبداً على رؤية واحدة وموحدة للواقع؛ وهذا من جملة القصور المستولي على عامة البشر.
- إن الخريطة الإدراكية التي يمتلكها الواحد منا هي في الحقيقة نموذجه الشخصي الذي يجعله يرتكز على بعض التفاصيل، وبهمل تفاصيل أخرى.
- تبسيط الأمور كثيراً ما يكون هو الطريق إلى الإلحاد في فهمها.
- الواقع ليس انعكاساً للقيم السائدة؛ فهناك من الأسباب المعقولة والكثيرة ما يجعل الناس على فعل ما لا يعتقدونه.
- الواقع ليس انعكاساً للقيم؛ لأن وضوح القيم في أذهان الناس يختلف من شخص إلى آخر، كما أن مخاوف الناس، ومطامعهم، وشهواتهم تحول دون ذلك.
- الظروف المعيشية الصعبة التي يمر بها كثير من الناس تجعل وعيهم يتوجه إلى البحث عن وسيلة للبقاء، مما يشكل ضغطاً كبيراً على تمسكهم بالمبادئ التي يؤمنون بها.
- الفقر الأسود يحمل كثيراً من الناس على ارتكاب المحظورات واستساغة ما لا يستساغ.
- الناس لا يحبون التغيير؛ لأنه موحش ومكلف.
- الواقع يتغير؛ لأن التقنية التي نستخدمها تتغير.
- لا ينبغي أن نغتر بجمود الشكل؛ فالمضمون يتغير باستمرار.
- مع أني لا أسلم بالحقيقة في القضايا الإنسانية والاجتماعية، إلا أن معظم الناس يخضعون للظروف التي تطرأ على حياتهم الشخصية.
- طموحات الذين يعيشون في الأحياء الراقية واسعة؛ لأن ما هم فيه من رخاء يغريهم بطلب المزيد.
- لا يميل المرءون إلى سماع أخبار الكوارث، وحالات الفقر الشديد، وأخبار كل ما يعكر المزاج.

- في الأحياء الشعبية والضيق يتدخل الناس في شؤون بعضهم كثيراً، وتكثر الشائعات؛ كما تكثر صور التضامن الأخوي وصور التحاسد.
- يستمد القراء كثيراً من سعادتهم من بساطة عيشهم، وكثرة تواصلهم مع بعضهم.
- حين يصنع الإنسان ثروة؛ فإنه يملك روح الكفاح، ويكون متزناً في الإنفاق منها.
- يمكن للثروة الطائلة أن تصبح مصدر إنساد لأولئك الذين لم يتعروا في تكوينها.
- كثير من الأثرياء جداً لا يعرفون عن أولادهم الكثير، فهم يقضون جزءاً من أوقاتهم في تبخير الأموال، والجزء الباقي في الاستمتاع بها.
- في الأسر الفقيرة يكون الترابط داخل الأسرة على أشدّه، وكثيراً ما يتدخل الأهل في كل صغيرة وكبيرة من شؤون أولادهم، وهذا لا يساعد على نمو الرازع الداخلي.
- حساسية الأغنياء نحو الإهانة أشد بسبب ظروفهم وموقعهم الاجتماعي.
- لا يسعى كثير من الناس إلى تكوين الثروات من أجل تحسين قدرتهم على الاستهلاك والشراء؛ ولكن من أجل تقوية شعورهم بالقوة والنفوذ.
- العاقبة الأشد ضراوة للفقر الشديد تكمن في شعور الفقير بأنه محاصر، وأنه لا يجد الفرصة للقيام بأي عمل عظيم.
- إذا كانت الثروة تمنح صاحبها الشعور بالقوة والمكانة؛ فإنها أيضاً تجعله مهدداً بالوقوع في البغي والطغيان.
- طلما هدد الفقر صاحبه بالعيش على هامش الحياة، وبالقبول بالمهانة والذلة.
- الشراء العريض كثيراً ما يسبب لأصحابه نوعاً من الشعور بالسأم والملل، ما لم تكن العقول والقلوب قد امتلأت بالإيمان.
- من طبيعة متع الجسد التكرار والتشابه.
- لا يستطيع المال بمفرده تلبية الأشواق الروحية للإنسان.

- من المهم دائمًا أن نعي ما يُحدثه المال والحرمان منه، من تغيرات في حياة الناس.
- كثير من الخلل في حياتنا يعود إلى عدم تطبيق القوانين، وليس إلى ما فيها من ضعف أو خطأ.
- تطبيق النظم والقوانين بعدل وشمول يملّك الناس جرأة عالية على قول الحق.
- الخوف من الأمر بالمعروف والنهي عن المكروه؛ هو ناتج من نوافع الظلم والفساد.
- من جرائدهم ولهجتها في الطرح ومعالجة المشكلات تعرفونهم...
- حين يتشرّد الفساد المالي والإداري في بلد تذيل المشاعر الوطنية، ويُكفي الناس عن تأسيس مشروعات عملاقة بسبب الافتقار إلى الشعور بالأمان.
- حين يفقد شعب من الشعوب القواسم المشتركة التي تجعل منه شعباً واحداً، فإن لنا أن نشاهد بروز الطائفية والقبلية بوصفها محاور لاستقطاب جديد.
- حين يسود النظام والقانون يشعر الناس بشعورين مهمين: الشعور بالتفاؤل، والشعور بالكرامة.
- حين يتشرّد الفساد يصبح اختلاف الفضائل، والحديث عن الإنجازات الوهمية باتأيا من أبواب الارتزاق لكثير من الناس!
- لا ينبغي أن نختلف في أن الدول الصناعية الكبرى هي التي تشكّل روح العصر وعقله.
- الانحراف الخلقي والسلوكي يجعل المرء صغيراً في عين نفسه، وفي عين الجهات التي يمكن أن يعمل لديها.
- العيش على هامش العصر يحرم الإنسان من التعرّف على إمكاناته الكامنة؛ وذلك لأن الإمكانات لا تظهر إلا من خلال الانخراط في ممارسة الأعمال الراقية والمعقدة.
- عدم التمكن من استئثار الذات للقيام بالأعمال الجليلة يعرضها لخطر الانحدار نحو المعاني البهيمية الكامنة في النفوس.
- كلما درج الناس في سلم الحضارة، علت الحياة العامة مسحة أثوية.
- مضت سنة الله في الخلق أن الرجال لا يستطيعون الترفه بالنساء إلا إذا رفهوهن.

- مع التقدم الحضاري يزداد نفوذ المرأة، ويترتب عليه مراجعة كل ما يتعلق بـ ( قوامة الرجل ) من أجل تخفيض سلطته وصلاحياته إلى أدنى حدّ.
- من الممكن أن تتعايش منظومات متقدمة ومنظومات متخلفة في ظل حضارة واحدة، بسبب ما تملكه كل منظومة من مقومات داخلية تتحكم في قوتها وضعفها.
- إن الواقع في تركيباته المختلفة، لا يخضع للمنطق، ولا للترابط أو التداعي الختامي.
- كلما حصل تقدم حضاري وتقني أكبر، وجدنا أنفسنا نتعامل أكثر فأكثر مع معطيات غير ملموسة.
- إذا أردنا إصدار حكم على ظاهرة كبرى؛ فإن المنهجية الصحيحة تتطلب تفتيت تلك الظاهرة إلى أجزاء عديدة، ثم نصدر على كل جزء الحكم الذي يناسبه.
- قد دفع فكر ( ما بعد الحداثة ) بكثير من الناس نحو التحلل والإباحية من خلال ما قرره من عدم وجود معايير أخلاقية ثابتة ومتتفق عليها.
- هل يستطيع مفكرو ما بعد الحداثة أن يرون رجلاً في التسعين حافظ على ما كان لديه من نضارة وقوة وحيوية لما كان في العشرين؟ أم أن اتجاه الإنسان نحو الضعف كلما تقدمت به السن هو أحد المطلقات التي لا يختلف فيها اثنان؟
- في حياتنا ما هو مطلق، وما هو ثابت، ونحن نستدل بالمتغيرات والنسبيات على الثوابt والمطلقات؛ كما نستدل بالثوابt والمطلقات على النسبيات والمتغيرات.
- إن من سن الله - تعالى - في الخلق أن القضايا الكلية تتسم في معظم الأحيان بسمة الإطلاق، كما تتسنم الجزيئات والفرعيات بسمة النسبية.
- الحرمان من الضروريات يدفع الاهتمامات الثقافية العليا.
- حين يمضي على المرء يومان لم يتذوق فيهما الطعام، ويجد نفسه على وشك الانهيار؛ فإنه لن يجد الطاقة ولا الشهية لنظم قصيدة أو التأمل في لوحة فنية.
- سيظل حرمان الإنسان من غرائزه الأساسية شديد الوطأة عليه، لكن درجة شدة ذلك تختلف من شخص إلى آخر.
- إن الهيجان العاطفي يشكل عبئاً ثقيلاً على النفس وعلى الجملة العصبية؛ ولهذا

فإنه لا يستمر طويلاً.

- لكل واحد من المخلوقات خصائص ذاتية منحه إياها الخالق - سبحانه - كي يحافظ على وجوده واستمراره.
- ترسّخ في خبرة البشرية أن الصراع يجب أن يفضي في نهاية المطاف إلى شيء من التعاون.
- نحن لا نستطيع أن نحصل على (الكم) بأقصى حجم نريد مع حصولنا على (الكيف) بأقصى كمال نرغبه؛ وذلك بسبب محدودية إمكاناتنا.
- حين تفسد التصورات تفسد الأحكام المبنية عليها.
- التفكير النسبي مدخل لتحسين الوعي.
- إن اعتقادنا بأن الروايات التي ننظر منها للأشياء مختلفة، يجعلنا مستعدين لإعذار بعضنا في حالة الخلاف.
- حين نؤمن بنسبية اقربابنا من الحق والحقيقة؛ فإن ذلك يحرّفنا على رفع شعار: (الصواب يكشفه الجميع).
- إن كل شعب يحاول أن يُضفي المنطقية على أعرافه وتقاليده، كما يحاول أن يصل إلى أهداف مشروعة بطرق مشروعة وغير مشروعة.
- إن الحب والكمال والسمو والتلوك، أمور لا تبلغ متنهما أبداً، وليس لها سقف محدد يمكن أن نرممه.
- القصور في السياسات، وليس النقص في الإمكانيات هو السبب الجوهرى في اتساع الهوة بيننا وبين الغرب.
- حين يعرض أي شعب عن الوحي الذي يمنع المطلقات والثوابت، تصبح النسبة هي سيدة الموقف.
- يحتاج الارتقاء بالأخلاق إلى نسبة جيدة من الأشخاص الأخلاقين، وإلى نظم تحرس الفضيلة، وإلى أعراف وتقالييد صارمة تجاه التحلل الأخلاقي.
- ما يتكون بطريقة سهلة وسريعة يمكن أيضاً أن يتضمن بطريقة سهلة وسريعة.

- الخرافه والشعوذة والأوهام موجودة مقيمة على نحو دائم، كما يقيم الظلام في كهف أغلى بابه بإحكام، وكما أنه لا يهدى الظلام سوى النور، فإنه لا يهدى الخرافه غير العلم.
- الجهل شجرة تنبت فيها كل الشرور.
- انتشار العلم الصحيح يجعل المجال أمام الفكر المنحرف والرأي الفطير ضيقاً.
- انحسار العلم في مجتمعاتنا على مدى عصور الانحطاط أدى إلى انحسار التفاوض السياسي والحلول المتوسطة؛ وصارت الحروب الأهلية هي الشيء السائد.
- العلم الصحيح يساعد الناس على حل مشكلاتهم، والوصول إلى حقوقهم من غير إراقة دماء.
- سلاح العقل هو العلم، وعقل بلا معرفة جيدة أشبه بجندى أعزل.
- العواطف عمياً ومتالة إلى التطرف، والعقل المثقف هو الذي يقيها في الحيز الإيجابي.
- العلم يرشد المرء إلى النقطة التي يجب أن يقف عندها الانفعال.
- الجهل مصدر عظيم للتفكير المضطرب، والمواقوف المتناقضة.
- الجهل مصدر للخوف من الأشياء لا يقول بالخوف منها عقل ولا نقل.
- تارينا عبارة عن صراع بين المبادئ، والظروف الصعبة.
- حين تكون سطوة التقاليد كبيرة، ويكون الضبط الاجتماعي عاليًا، فإن لنا أن نتوقع أن يكون ظاهر كثير من الناس خيراً من باطنهم.
- حين ينتشر الجهل، وتعم الفلاقل الداخلية؛ فإن الوعي بالمضامين الحضارية يصبح ضعيفاً.
- إذا كان الفرد لا يشبع من المال مهما كثراً؛ فإن من طبيعة الدولة ألا ترتوى من النفوذ والتوسيع مهما امتدّ، وتضخم.
- كلما كانت الدولة أقل حجمًا أمكّن ضبطها، واختيار العناصر الصالحة للعمل لديها، والعكس صحيح.

- مهما كانت الدولة صالحة وذات كفاءة عالية، فإنها لن تستطيع الحصول على الإجماع؛ حيث إن هناك دائمًا من له رأي مغاير ومصلحة مختلفة ووجهة مبادلة.
  - الاضطرابات والفن الداخلي، والنزاعات الخارجية تُضعف من قدرة الحكومة على سن القوانين، والاحتكام إلى القافة في تسخير شؤون المجتمع، ويكون استخدام القوة المفرطة هو البديل الجاهز.
  - من الصعب أن نطلق على شخص لقب مفكر، ويكون ضعيف الحساسية نحو أهمية فهم السنن الربانية وطابع الأشياء.
  - العلم بالنسبة إلى العقل أشبه بالرثي الذي نزود به السراح، حتى يضيء، ويقوم بعمله.
  - إن الذي يسعى إلى أن يكون مفكراً يُعثّر به يحتاج إلى أن يغذى عقله بالمعرفة والمعلومات الجيدة والمتقددة.
  - من الآن فصاعداً، سيكون الوقود الأهم للتقدم ليس المواد الطبيعية، وإنما المعرفة والذكاء والقيادة.
  - التحرر الكامل من تأثير العواطف على أحكام العقل غير ممكن.
  - ما يقال في سياق الغضب والاتهام والدفاع عن النفس، يظل مظنة للكذب والبالغة والتجاوز.
  - ما يخالف الشائع والمألوف، ويدخل في حيز الغريب والمستهجن - يستحق منا دائمًا وقة حذر وتأمل.
  - يتأثر المفكر على الانغماس في علم محدد؛ وإنما يسعى إلى توسيع مداركه وأفاق رؤيته من خلال توسيع دائرة اطلاعه.
  - إن المفكر يفرح بصياغة المفاهيم ولم شمل الأفكار المبعثرة، كما يفرح أبناء في السن باجتماع شمل أسرته بعد طول شتات!
  - يتلذذ الإنسان من صلابة الرؤية وقوة المنهج على مقدار ما يكتشف، ويعقل من سن الله - تعالى - في الخلق.
  - إن أعظم النفائس تلك التي ستجدها في غير مطانتها، وهذا ما يعيه المفكر بعمق.

- إذا بحثنا في قضية ما دون أن نعرف تاريخها كما كمن دخل غرفة مظلمة لم يدخلها من قبل.
- على مدار التاريخ كان التطور التقني من أكثر العوامل تأثيراً في تطوير حياة الناس ونقلها من وضع إلى وضع.
- المفكرون يتخذون من قراءة مفرزات التقنية وتطورها مدخل لفهم أوضاع الناس وتحليلها على النحو الصحيح.
- العلم مثل المال؛ نشعر دائمًا بنوع من القوّز إليه.
- نحن نجمع المعلومات، ونسأل ونستشير.. ليس من أجل اتخاذ قرار صائب، وإنما من أجل الحصول على أفضل قرار ممكن.
- الحدس ذو طبيعة غامضة؛ وهو يشبه أن يكون مثل معرفة الإنسان بشيء دون أن يعرف كيف عرفه.
- من فوائد الفلسف وفهم طبائع الأشياء: سد الفجوات المعرفية، والتعويض عن نقص المعلومات.
- أن تأخذ قرارًا يعني أن تخاطر، ومهما كانت النتائج؛ فإن ذلك أفضل من العيش من غير قرار ومن غير مخاطرة.
- الحياة الجيدة؛ هي الحياة التي نعطي فيها للحياة العامة، ونأخذ منها بما يصلحنا، ويصلحها.
- الإنسان مفظور على كراهية العموض والتضليل من المكوث في منطقة (اللائق).
- حين تكون مهمة شخص ما، الدفاع عن سياسات بلد أو فئة، فإن لك أن تتوقع خلط الصواب بالخطأ والصدق بالكذب.
- حين تكون الحقيقة حادة وصارخة أو صادمة، فإن كثيراً من الناس لا يعبرون عنها بشكل واضح ودقيق من باب المجاملة أو المداراة.
- إذا لم تستطع قول الحق، فاسكت، ولا تقل الباطل مع التذكرة بأن السكوت عن الخطأ حين يصبح ظاهرة عامة؛ فإن ذلك يسبب أضراراً فادحة للمصالح العليا للناس.

- أحياناً نبالغ في التركيز على دور المال في التقدم، مما يلقي في قلوب الفقراء اليأس والقنوط؛ مع أن التقدم الحضاري يمنع هوامش جديدة للذكاء والمهارة والمعرفة.
- يقولون في عالم الأعمال: إذا كان لديك فكرة لمشروع ناجح، ولديك إدارة جيدة يمكن أن تدير ذلك المشروع بكفاءة؛ فإن الحصول على تمويل لن يشكل عقبة، وفي هذا نوع من رد الاعتبار للإنسان.
- يحذر المفكر الحق من السير الطويل في الطرق المسودة، كما يحذر من الصيرورة إلى وضعية يضيع الناس فيها المسكن طلباً للمستحيل.
- لدينا دلائل كثيرة على أنه ليس هناك علاقة طردية بين صحة الشيء وانتشاره.
- تكمن النجاة من تأثير هالات المشهورين في الحكمة العظيمة القائلة: «اعرف الرجال بالحق، ولا تعرف الحق بالرجال».
- المفكر الحق يحاول حماية نفسه من شرور الشهرة، ويحاول حمل كل الانتقادات الموجهة إليه على محمل الجد.
- إن النظرة الزائفة للذات، والنظرة الجائرة للآخرين ربما كانت السبب وراء الكثير من الحروب عبر التاريخ.
- تنبيط الناس، وتكون انطباعات جامدة عنهم، ركيزة من ركائز ثقافة التحييز.
- التنبيط يُريح العقل من التفكير، ويُنگه من تجهيز الأحكام وتعليبيها، والبناء عليها من غير جهد يذكر.
- لا يكون الإنسان إنساناً إلا إذا كانت له أشواق ونطمعات تتجاوز مصالحة المادية.
- قد لا نعرف فضائل المتحمسين للدفاع عن بعض الأفكار والمبادئ.... إلا إذا تصورنا حال شخص ليس له رسالة، ولا يهتم بأي شيء سوى منافعه الخاصة.
- الخطير الذي يهدد نقاء الدور النضالي لكثير من الناس، هو ذم المنافسين والمخالفين وباراز عيوبهم.
- النقد هو ماء الأفكار وهوأها، وحين لا تجد الفكرة من ينتقدها؛ فإنها تتعرض للجمود والذبول.

تظن الجماعات المنغلقة على ذاتها أنها تشكل نموذجاً ممتازاً لما ينبغي أن تكون عليه البشرية.

- الموقف الصحيح تجاه الآخر متوقف على فهمه على نحو جيد، وإذا كان نفر بقصور فهمنا لأنفسنا، فإن قصور فهمنا لغيرنا ولا شك سيكون أعظم.

- الخرافات سابقة في وجودها على كل من العلم والتفلسف!

- لدى الإنسان شوق عارم لاجتراء عنمة المستقبل، وحين لا يجد من العلم ما يكفي؛ فإنه يلجأ إلى الخرافات والأساطير على أنها وسائل مثالية لبلوغ ذلك.

- لا يستطيع الذي يتمتع بتفكير منطقي عالٍ أن يعصم ذهنه من الخرافات إذا لم يكن يملك قدرًا جيداً من العلم.

- الإسلام يقدم لأبنائه ما يحميهم من التفكير الخرافي؛ لكن حين يشيع الجهل تفسد عقائد الناس، وتتصبح مشكلتهم الأساسية سوء فهم الإسلام.

- يتسع انتشار الخرافات كلما زادت درجة الجهل والجهل والعجز.

- لمحارب الأوهام، والتقولات، والادعاءات بعالمة العلم؛ حيث لا يكون العلم علئاً إلا إذا كان عالئاً؛ أي متداولاً وقابلًا للشرح والفحص.

- للأسرة والمجتمع سطوة كبيرة، ودور مؤثر في رسم ملامح شخصية الطفل وتوجيه اختياراته.

- هناك فرق كبير بين حمل هم أمر من الأمور، وبين التفكير الحاد فيه.

- لا يتحدث أحد عن الأمور التي أخطأ فيها؛ وذلك لأن مجتمعانا لم تتعود البوح، ولا ممارسة فضيلة التعبير عن القصور.

- إن الحرأة في طرح الآراء مدوحة، لكن مع التزود بالقدر الكافي من الذخيرة العلمية المروقة.

- المفكر الناضج ينظر إلى رؤيته للحياة والأحياء على أنها مشروع تحت التأسيس، وينظر إلى نفسه على أنه ما زال يتلمس ملامح طريق طويل.

- حين يعيش الإنسان في ظروف جيدة، ولا يعاني من ظلم وعسف؛ فإن وعيه

- يلقطر الصور الجميلة والإيجابية في المجتمع، ثم يشرع من حيث لا يشعر بالنظر إلى المجتمع من خلال تلك الصور.
- من المهم أن نعتقد أن الوضع العام قابل دائمًا لأن يقرأ بطرق مختلفة، وقابل لأن يجد فيه كل فريق أو طرف ما يعزز معتقداته.
  - للظروف الاقتصادية تأثيرها الكبير في الالتزام الأخلاقي؛ فحين تشتت وطأة الفقر والقروز، يستسهل كثير من الناس الخروج على الضوابط الأخلاقية والشرعية.
  - اتساع الطموحات على نحو مبالغ فيه قد يدفع ب أصحابه إلى التحلل الأخلاقي.
  - حين يخبر الناس ألواناً جديدة من المتعة؛ فإنهم يمدون إلى إعادة ترتيب أولوياتهم الأخلاقية.
  - مضت سنة الله - تعالى - في هذا الكون أن تظل أجزاء منه ملفوفة بالغموض والإعظام.
  - تكره الأفكار والمفاهيم أن تُحصر في حيز ضيق، وتتلهف أن تكون في فضاء أرحب حتى يظهر تألفها.
  - إن التوسيع في فهم أسباب ما يقع من جرائم؛ هو تطوير لأفكارنا حول واقع الحرية، وامتداداتها المختلفة.
  - فطر الله - تعالى - العباد على طبائع ومتطلبات وحاجات واستجابات موحدة على المستوى العام، ومتباينة على مستوى الجزيئات والتغاصيل.
  - كلما مضى الناس في سُلُّمِ الحضارة زاد خضوعهم للرغبات، ونما لديهم الوعي التصالحي.
  - يكون الرء كثيراً كلما استطاع الخروج من دائرة اهتماماته الشخصية والانغماس في دائرة هموم الأمة ومصالحها.
  - اهتمامات الإنسان تلخص فعلًا رؤيه للحياة، وترجم مشاعره على نحو دقيق وجميل.
  - ما من فكرة تدخل حيز التنفيذ إلا تعرّضت لشيء من التعديل بسبب تفاعلها مع التجربة الإنسانية واحتكماكها بالواقع.
  - العصف الذهني هو أفضل وسيلة مجانية متاحة لتطوير الأفكار.
  - النظرة الإيجابية للذات تحرض الدماغ علىبذل جهود استثنائية.

د. عبد الكريم بكار.

حصل على البكالوريوس من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر (١٣٩٣هـ/١٩٧٣م)، وعلى الماجستير في عام: (١٣٩٥هـ/١٩٧٥م)، والدكتوراه في عام: (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م) من قسم أصول اللغة بالكلية نفسها بجامعة الأزهر، وكان عنوان رسالته الدكتوراه: «الأصوات واللهجات في قراءة الكسائي».

قاد د. عبد الكريم بكار مسيرةً أكاديميةً طويلةً، دامت (٢٦ عاماً) بدأها عام: (١٣٩٦هـ/١٩٧٦م) في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في القصيم (السعوية)، ليتقلّل بعدها إلى جامعة الملك خالد في أبها في عام: (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، حصل خلالها على درجة الأستاذية في عام: (١٤١٢هـ/١٩٩٢م) وليبقى فيها حتى استقال منها عام: (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م) ليتفرّغ للتأليف والعمل الثقافي والفكري، حيث يقيم في العاصمة السعودية الرياض.

وتركت المسيرة الأكاديمية للدكتور بكار على تدريس اللغويات، والتي شملت مواد المعاجم اللغوية، دلالة الألفاظ، الأصوات اللغوية، اللهجات العربية، القراءات القرآنية واللهجات، النحو، الصرف، المدلّوس النحوية وتاريخ النحو. كما قدم د. بكار خلال تلك الفترة عدداً من الأبحاث والكتب المتخصصة والعلمية في مجال اللغويات، وأوسعها في النشاط الأكاديمي للجامعات التي عمل بها من خلال رئاسته لعدد كبير من اللجان العلمية، ورؤاسته لقسم النحو والصرف وفقه اللغة لعدة سنوات، ومساهمته في وضع المناهج، والإشراف على البحوث، وتحكيم الدراسات العلمية. وللدكتور بكار نشاط مكثف على صعيد المحاضرات، والندوات الفكرية والثقافية والدورات التدريبية، وشارك في الملتقيات منها في المملكة العربية السعودية والكويت وقطر والبحرين وتركيا ولبنان ومصر والأردن ومالطا والسودان. كما يقدم حالياً برنامجاً أسبوعياً في قناة دليل الإسلامية باسم: «آفاق حضارية»، وبرنامجاً شهرياً بقناة الحمد باسم: «معالي»، وكان د. بكار قد قدم برنامجاً تلفزيونياً أسبوعياً في قنوات الحمد باسم: «دروب النهضة» لمدة عامين، وبرنامجاً إذاعياً أسبوعياً باسم: «بناء العقل في القرآن الكريم»، وبرنامجاً إذاعياً أسبوعياً آخر باسم: (العلاقات الإنسانية في المجتمع الإسلامي) استمر لفترة ستين يوماً على إذاعة القرآن الكريم بالرياض، بالإضافة لاستضافته في برامج عديدة على قناة الرسالة، وقناة أقرأ، وقناة الناس والتلفزيون السعودي.

ويحرص د. بكار على أن يقدم رؤاه الفكرية والتربوية من خلال مشاركته الواسعة في مختلف الصحف، والمجلات العربية المتخصصة والعلمية؛ حيث يكتب د. بكار مقالات دورية في مجلة البيان اللندنية ومجلة الإسلام اليوم الشهرية، ومجلة «مهارتي» الصادرة عن جامعة الملك سعود ومرقع «الإسلام اليوم»، كما يشارك باستمرار منذ أكثر من عشرين سنة بمقالاته ودراساته في عدد من المجلات الدورية الأخرى.

ود. بكار عضو في المجلس التأسيسي للهيئة العالمية للإعلام الإسلامي التابعة لرابطة العالم الإسلامي (الرياض)، وعضو الهيئة الاستشارية لمجلة «الإسلام اليوم» (الرياض)، وعضو الهيئة التأسيسية لقناة دليل، وعضو في مجلس الأمناء لقناة سنا القضاية (عمان).

ويعد د. بكار أحد المؤلفين البارزين في مجالات التربية والفكر الإسلامي؛ حيث يسعى إلى تقديم طرح مؤصل ومجدد لمحاجة القضايا ذات العلاقة بالحضارة الإسلامية، وقضايا النهضة والفكر والتربية، والعمل الدعوي.

وللدكتور بكار حوالي ثلاثين كتاباً في هذا المجال؛ لقي الكثير منها رواجاً واسعاً في مختلف دول العالم العربي، كما قدم د. بكار للكتابة الصوتية أكثر من مائة ساعة صوتية مسجلة ومنتشرة في مكتبات التسجيلات الصوتية.

#### **وفيما يلي قائمة بالكتب والدراسات الأكاديمية المتخصصة:**

- ١ - أصول توجيه القراءات ومذاهب التحرين فيها حتى نهاية القرن الرابع الهجري، بحث غير منشور، (١٤٠٤/٥١٩٨٤ م).
- ٢ - ابن مجاهد شيخ قراء بغداد، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية بالقصيم، (١٤٠٤/٥١٩٨٤ م).
- ٣ - تحقيق كتاب: «القواعد والإشارات في أصول القراءات»، للقاضي أحمد بن عمر الحسوبي، دار القلم، دمشق (١٤٠٦/٥١٩٨٦ م).
- ٤ - الصفة من القواعد الإعرابية، دار القلم، دمشق، (١٤٠٧/٥١٩٨٧ م).
- ٥ - تحقيق كتاب «رد الانتقاد على الشافعي في اللغة»، للإمام البيهقي، دار البخاري، بريدة، (١٤٠٧/٥١٩٨٧ م).
- ٦ - أثر القراءات السبع في تطور التفكير اللغوي، دار القلم، دمشق، (١٤١٠/٥١٩٩٠ م).
- ٧ - المهدوي ومنهجه في كتابه الموضع، دار القلم، دمشق، (١٤١١/٥١٩٩١ م).
- ٨ - ابن عباس مؤسس علوم العربية، دار السوادي، جدة، (١٤١١/٥١٩٩١ م).

- ٩ - دراسة لإنشاء مركز لتعليم اللغة العربية، كلية اللغة العربية بأبها، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- أما قائمة الكتب التربوية والفكرية الصادرة للدكتور بكار؛ فعنها:
- ١ - فصول في التفكير الموضوعي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية (١٤١٤هـ/١٩٩٤م).
  - ٢ - نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي، دار المسلم، الرياض، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).
  - ٣ - من أجل انتلاقة حضارية شاملة، دار المسلم، الرياض، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).
  - ٤ - مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، دار المسلم، الرياض، (١٤١٦هـ/١٩٩٦م).
  - ٥ - مدخل إلى التنمية المتكاملة، دار المسلم، الرياض، (١٤١٧هـ/١٩٩٧م).
  - ٦ - في إشارة آية، دار هجر، أبها، (١٤١٧هـ/١٩٩٧م).
  - ٧ - من أجل شباب جديد، بحث منشور في وقائع المؤتمر السنوي للندوة العالمية للشباب الإسلامي، عمان، (١٤١٨هـ/١٩٩٨م).
  - ٨ - حول التربية والتعليم، دار المسلم، الرياض، (١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
  - ٩ - العولمة، دار الأعلام، عمان، (١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
  - ١٠ - القراءة المشتركة، دار القلم، دمشق، (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).
  - ١١ - العيش في الزمان الصعب، دار القلم، دمشق، (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).
  - ١٢ - مسار الأسرة، دار السلام، القاهرة، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).
  - ١٣ - القواعد العشر، دار السلام، القاهرة، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).
  - ١٤ - التواصل الأسري، دار السلام، القاهرة، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).
  - ١٥ - هي هكذا، دار السلام، القاهرة، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).

\*\*\*

### رقم الإيداع

٢٠١٠ / ٨٥٣٠

الترقيم الدولي I.S.B.N

978-977-342-877-8

# الكتاب في سطور

إنني لا أخفي أنني ترددت كثيراً قبل الإقدام على تأليف هذا الكتاب؛ وذلك خشية أن يتوجه متوهם أنه إذا أطلع على كتاب أو كتابين أو عشرة كتب... في تحسين المحاكمة العقلية وتحسين أسلوب ممارسة التفكير وفي تنمية الحس النقدي... فإنه يصبح مفكراً، وهذا بالطبع غير صحيح، لكن الذي جعلني أتجاوز التردد في الشروع في هذا العمل، هو الاتصالات التي تأتيني من كثير من الشباب الذين يرغبون في الولوج في عالم الفكر والتفكير والمفكرين، وذلك بسبب جاذبية ما تدل عليه هذه الألفاظ في هذه الأيام، وقد بذلت كل ما أملك من جهد في سبيل جعل أسلوب الكتاب سهلاً وقريباً حتى تتسع به أكبر شريحة ممكنة من القراء الأفضل، لكن بما أنني أعالج موضوعاً معقداً، فلا بد لي من أن يكون ما أحقه ناقصاً، وأحياناً مخيّلاً للأمل؛ إنني قانع بتعيد طريق ضيق في قلب بحر من الرمال المتحركة، وإضاءة بعض الزوايا المتحركة، وقانع بإزالة بعض الحجارة من طريق شديدة الوعورة سائلاً المولى بذلك أن يبارك في هذا العمل، وينفع به؛ إنه ول ذلك القادر عليه.

Dar-Alsalam-Pesqns

## الناشر

دار الكتب العلمية والتاريخ والتراث

القاهرة - مصر - ١٢٠ - شارع الأزهر - من بـ ١٦١ الفورية  
هاتف: ٢٢٧٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٠٢٠٥٢٣٢٢

فاكس: +٢٠٢ ٢٢٧٤١٧٥٠  
الاسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٠٥ - فاكس: ٥٩٣٢٠٤ - +٢٠٢ ٥٥٣٢٢٠٤

[www.dar-alsalam.com](http://www.dar-alsalam.com) [info@dar-alsalam.com](mailto:info@dar-alsalam.com)

ISBN: 978-977-342-877-8



9 789773 428778 >